

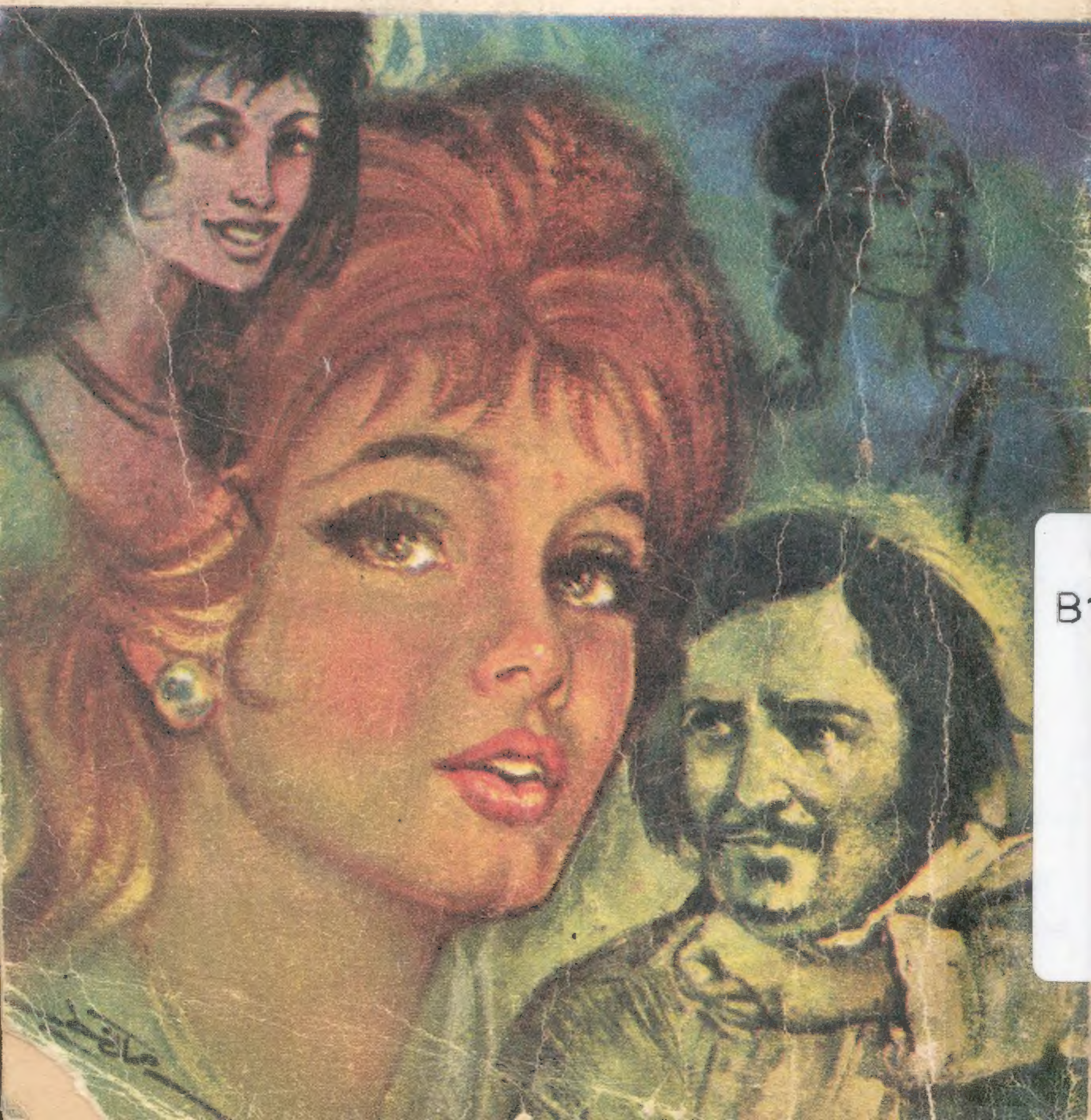
كتاب الهلال



# بلبل

أمنير الروائية الفرنسية  
أحمد الصاوي محمد

سلسلة  
ثقافية  
شعرية



B



# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »  
رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

رئيس التحرير : صالح جودت

للشؤون الفنية : جمال قطيب

مكتبة التحرير : عاكف عبيد

العدد ٣١٢ - نوالحجة ١٣٩٦ - ديسمبر ١٩٧٦

No. 312 - December 1976

مركز الإدارة

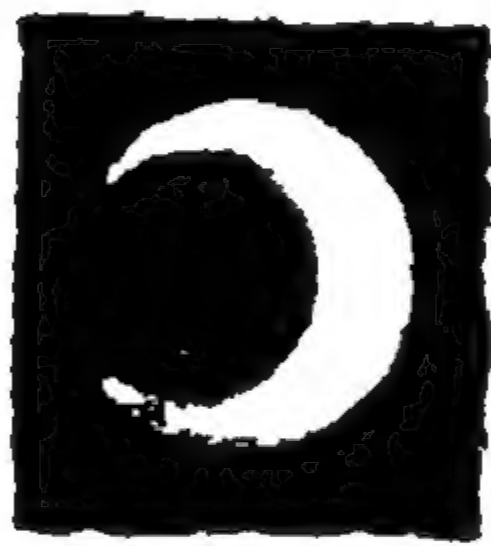
دار الهلال ١٦ محمد عز المصري  
تليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢٠ ل.م. » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشاً صاغاً . فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢٥ ج.ك - والقيمة تسدد مقدماً لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحواله بريديّة . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للمصرف فى جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب .



# مكتاب المسال



« سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع »



الغلاف بريشة الفنان  
جمال قطب



أحمد الصباوي محمد

# بلزك

## أمير الرواية الفرنسية

دار الهلال







## النضال مع الحياة

- ١ -

هذه الحياة الفريدة ، حياة « اونوريه دى بلزاك » ،  
أقرب ما تكون الى قلبى .. انى احبه .. أحب قوته  
وضعفه .. أحب عبقريته الفذة ، وسذاجته النادرة ..  
أحبه : شابا فقيرا فى باريس ، يبحث عن خيالات  
وأشباح لقصصه ، وأبطال لرواياته .. أحبه : محبا ،  
مخلصا ، معذبا ، حائرا بين الفن والحب .. أحبه :  
متخططا ، يبحث عن المال طامعا وناشرا ، فيخسر ،  
ويظل بقية عمره عبدا لخسارته ، يؤلف ليسدد ديونه ..  
وهيهات ..

ولقد اخترت لقرائى الاعزاء هذه الحياة العزيزة  
على .. سأشركهم فيها .. وكنت قد اتخذتها لنفسى ،  
أرى خلالها ما لا تراه العيون .

وانى لأذكر ، فى كتاب وضعته « البرنسس بيسكو » ،  
انها عندما لقيت « مستر كارتر » ، مكتشف مقبرة  
« توت عنخ آمون » ، لم ترد ان تحدثه عن اكتشافه  
الذى يسأله عنه كل الناس ، وسألته عن حياته ، هو  
شخصيا ، فى الصحراء ، وهى الحياة التى لا يسأله  
عنها أحد .. فقال لها انه يعيش فى عشة « بنجالو » ،  
فى وادى الملوك ، قرب المقبرة . وفى خلال السنوات  
العشرين التى قضاها باحثا منقبا ، دون أن يقنط أو



يأس ، كانت سلواه هي قراءة الكتاب المقدس  
وقصص « اونوريه دى بلزاك » .. فقالت الاميرة :  
« حقا ان بلزاك وحده هو الذى كان كفيلا بأن يعمر  
الصحراء .. ! » ..

\*\*\*

النبوغ كالحب ، ما من أحد يتقبله في أرضنا الفبية  
بصدر رحب ، فلا بد له من العنف ليفرض نفسه  
فرضا . ومن بواعث الاسى ففر الاسرة والمجتمع فقرا  
روحيا مدقعا ، يجعلهما عاجزين عن ادراك الساعات  
الاولى من صباح قدر جليل أو مصير عظيم .. فالآباء ،  
والمعاصرون ، يعيشون جميعا ، بلا تأثر ، أو مبالاة ،  
بمجد بازغ مولود ، فلا ينسأله من دهره الا حسرة  
الافئدة ، بعد فوات الاوان ، عندما تتأمل جمال  
العبقرية المفقود ..

حقا ان سبق الشعور بعظمة الرجل الكامنة في بساطة  
الطفل يتطلب معبنا من الاقدام أو الموهبة الشاعرية ،  
وهو ما يعز عادة في سواد الناس .. لماذا تبهر عيونهم ،  
من بين كل ما حولهم ، من أشياء خاملة ، فتميز علامات  
النبوة ؟ ! .. أترى هذه العيون في السماء المشرقة  
اكثر من يوم صيف ؟ .. أليست القلوب التى تحس  
دنو العظمة نادرة ندرة القلوب التى تتأثر بوردها النوراني  
المتفتح ، عند ما تلمسه شمس الصباح الكريمة بشعاعها  
الدائم الاشراف ؟ ! ..

\*\*\*

عندما كان « اونوريه دى بلزاك » ، في يونيه ١٨١٣ ،  
في الرابعة عشرة من عمره ، على شاطئ اللوار ، بمدينة  
تور ، يتنزه مع أخته ، بصحبة أمهما ، صاح على حين  
فجأة ، وهو يقفز ، كمن به مس :



- لور !.. أتعرفين ان أخاك سيصير رجلا عظيما !  
فتضج الصغيرة الغريرة بالضحك ، وترد عليه أمه ،  
الخصيفة ، هازة كتفيها : « مالك ولكلمات تجهل  
معناها ؟ ! »

وكان النهار هادئا جميلا . وليس في نور السموات  
وطيب الأرض ما يشعر نفسا غير ملهمة بأن تلك الصبيحة  
الصبية هي بشر هاتف بمجد مؤثر للآداب الفرنسية..  
لقد كان الفتى في السن الناعمة الصوت ، فكيف يحمل  
كلامه على محمل الجد ؟ .. ومع ذلك فتلك هي الساعة  
الخطيرة التي تتكون فيها الشخصية ، ساعة النبوغ ،  
الساعة الأولى المشهودة : يستيقظ الأسلاف ،  
ويتحدثون معا .. ومن خلال أصواتهم جميعا ، تحت  
قلنسوة الطالب ، نرى رجلا صغيرا يدخل الدنيا ،  
ويبحث عن توازنه فيها .. وبيننا كان هذا الصبي يحلم  
في هذه الأشياء الكبيرة ، مشى في التراب ، فاحتد  
عليه صوت أمه :

- ها أنت ذا قد أتلفت جوربك وحذاءك !.. انت  
لا تلتفت الى شيء ، ولا معنى بشيء ! .. يا للضنى  
منك ، ويا للعذاب !.. أتضحك ؟ ! أيها الولد الذي  
لا قلب له ! ..

فترد عليها العين الصافية ، والوجنة الوردية ، والفم  
الباسم ، والصوت الذي فيه رنة الفرح : « بالله  
بالله لا تفضبي ، يا حبيبتي ، يا أماه !.. »

ويجرى ينهل من الهواء كما لو كان ماء ، ويحصى ما  
على سطح نهر اللوار من أشعة بيضاء ، إذ ينفخ فيها  
الريح مثلما تنفخ فيه أمانى الحياة.. ويعينيه العسلتين،  
الظامئتين ، اللتين ابتدر فتأجج فيهما شعاع نفس من  
نار ، راح ينظر بشغف الى ذلك المحيط السعيد من



الحدائق والجنات ، والبيوت التى جمعت بين التواضع  
والانسجام . وكما يحدث الكائنات أحيانا بصوت عال ،  
ويسأل النهر عن صحة أسماكها ، ويسأله ان يطمئنها  
على صحته ! .

وكانت لور تطرب ، والأم الشابة تتنهد ، أنيقة ،  
جميلة ، ذات سيادة وخشونة ، كما لو كانت ، تحت  
مظاهر النعمة والرغد ، تحمل هما خفيا .. ولكن من  
أين للصفار ان يدركوا هموم الكبار ؟ ! .. ومروا أمام  
بائع صور يعرض صورة نابليون واقفا فوق خريطة  
جزيرة كورسيكا .. فقال اونوريه الماكر :

— أماه ! .. يا ليتنى كنت قد ولدت فى كورسيكا !  
— يالك من مخلوق مرذول ! ..

فيضج بالضحك .. واذا ببائع صحف نسابدى  
بالنصر ، وفى يده ملحق حربى ، فيهرع الاطفال اليه :

— أماه ! أماه ! .. انتصار ! ..  
فيقول بائع الصحف ، والعرق يتصبب منه :  
— ها هوذا نصر جديد يتوج بالمجد هامة الامبراطور ،  
وفرنسا .. ان الجيش الاعظم ، ايها المواطنون ، قد  
فاز فى معركة « بوتزن » ! .. والخلفاء قد ذهب  
ريحهم ، وتشتت جمعهم ، فولوا الادبار ! ..

وبينا كان الجمهور يهتف : « لتحي فرنسا ! .. ليحي  
الامبراطور ! .. » . كان اونوريه واجف القلب ، يتبع  
تقاطيع بائع الصحف ، وكان جنديا قديما ، مشوها ،  
مقطوع الساق .. فصار بلزاك الصغير ينظر ، ويتعلم ،  
ويتهذب ، وبأخذ من مشهد هذا الشقاء الانسانى ،  
والحرمان النبيل ، درسا فى بسالة الرجولة ، التى  
تغفل شقاءها ، وتنسى حرمانها ، فى ضجيج انتصار  
الايوان ..



لشد ما عاد اونوريه قير العين ، يتفجر طموحا ! ..  
ما اكثر ما فى الحياة من أشياء عظيمة وجميلة !

القت مدام بلزاك أمرا الى المربية ، المكلفة بالاطفال ..  
فأسرعت هذه اليهم ، لتبدل ملابسهم ، وتنزع ثياب  
النزهة الانيقة عنهم .. والحق ان اونوريه قد خلع  
سترته وبنطلونه الرمادى القاتم ، دون ان يفكر فيما  
يفعل .. فقد زعم نفسه عندئذ فى بروسيا ، يحمل علما  
مظفرا ، ويدخل بلدا على رأس الفزاة ، ويسمع ضرب  
الطبول ودوى الهتافات ..

واذ كان لايزال أمام موعد الطعام ساعة ، يأخذ  
اونوريه أخته لور الى الفرقة العليا من البيت ، حيث  
يشاهدان من نافذتها السحرية مدينة « تور » ، وجميع  
أسطحها ومداخلها ، وهالة الشفق التى تبسط على ما  
حولها صفاء وسلاما ..

— أتعرفين ، يا أختى ، ان من سعدنا ان ولدنا فى  
مدينة طيبة ؟ فقد كان من المحتمل ان نولد من  
المتوحشين .. فما زالت فى الدنيا بلاد تفص بهم ! ..  
وليس ثمة غير عيب واحد ، هو ان تور ليست قريبة  
من بروسيا . فلن يجرى الامبراطور الى تور . فما  
أشد شوقى الى رقيبته ! . وهل قصت عليك  
« المدموازيل » ( يقصد المربية ) كيف كان الجنود ، أثناء  
التقهقر من روسيا ، يقضون نحبهم فى الجليد ، اذ  
كانت درجة الحرارة ثلاثين تحت الصفر ؟ أما هو فكان  
روح وبهجة ، وبأمر ويقود ، ولا يشكو شيئا .. حتى  
لقد كان لا يحس البرد ! .. لقد صدق أبى اذ قال  
عنه : « انه ليس رجلا من طينة البشر » !

ثم أضاف بحياء وبساطة :

— وائى ليسرئى شعورى بأتنى ، انا أيضا ، لست



على غرار الناس .. فاذا سألتني أو لم أكن في مدرسة  
فندوم مثلى مثل بقية الصبيان ، قلت لك اننى كنت  
اموت بينهم من السامة والضجر ، اذ اراهم يعملون  
جميعا نفس الواجب ، فى نفس الساعة ، فى نفس  
القاعة ، فى كراريس متساوية شكلا ، وحجما ولونا ! ..  
فهؤلاء « الآباء » ( يقصد القسيس المعلمين ) ، لا يريدون  
لنا فى رعوسنا الا أفكارا واحدة ، ليست رفيعة ،  
وليست سامية ! ..

فتراجعت لور ، كما لو كان قد قال شيئا غير جائز ،  
وقالت بصوت خافت :

— أتذكر الآباء الذين ضربوك بالمقرعة على أصابعك ؟  
— أوه المقرعة ! .. اننى ، وهم يضربون ، كنت  
أفكر فى شيء آخر .. أما أحدهم وهو « الأب هوجول » ،  
فلا أغفر له ماحييت ، اذ أخذ منى كتابى !  
— أى كتاب ؟

— لقد سبق ان حدثتك عنه ..

— اننى لم أتذكر !

— أعلمى اذن يا عزيزتى لور انه لا يقال : « اننى لم  
أتذكر » ، بل : « اننى لم أعد أذكر » ! ..  
— ولكن هذا طويل !

— نعم هو طويل ، ولكن معرفة اللغة تتطلب وقتا  
أطول من جهلها . والجهل أطول وأصعب ، والارادة  
تفرض الزمن ، الزمن الطويل .. والعناد يقضى بطول  
الصبر .. والامل يتطلب طول البال .. وهذا هو  
موضوع كتابى « فى الارادة » ..

— أكتبته بدل واجباتك ؟

— بالتأكيد ! .. وكان فى درجى .. وكنت أحبه ! ..  
وكان قلبى يشب أثناء كتابته .. وكنت يا صغيرتى عند



وضعه في سن « بسكال » الفيلسوف حينما اكتشف بمفرده الرياضيات كلها .. وفي اليوم الذي أخذ مني الأب هوجول كتابي فكرت فيك وفي أبي وأمي ، وقلت : « لن أراهم بعد الآن أبدا ! » ، فقد أردت ان اموت .. أم لما اشتد بي المرض ، وجاءت أمي لتأخذني ، ودعت جميع الآباء المعلمين ، ماخلاه ، فلم أقرئه السلام .. وعندما تكون في الجنة ، ويكون هو في النار ، سأطلب الى الله ، بعد ذلك ، لا قبل ذلك ، أن يفقر له .. وهو بعد أخيه الصغيرة ، لأنه يحبها ، بأن تكون في الصف الاول ، يوم تكريمه حين يصير عظيما ..

وسمعا صوت المدموازيل بدعوهما الى العشاء . وكانت مدام بلزاك ، تنتظر ، بلا حراك ، في صحن السلم . فنظرت الى اونوريه بعينها الزرقاء الثلجة . فلزم الصمت ، ودخل قاعة الطعام هادئا .. وكانت القاعة من طراز لويس الخامس عشر ، بوفيهاتها الفالية من خشب السنديان ، تعبر نقوشها عن يد صناع يحب الفن ، والنساء ، والدقة ، والصفاء .. وكانت تلمع كأرضية القاعة .. وكان كل ما فيها يفوح بعبق الطعام الشهى ، والحديث الشجي ..

وجه الأب سؤالا :

— لماذا ترتدى هذه الطفلة دائما هذه القلنسوة العالية ؟

وكان السؤال مقصودا به لور ، فاحمرت .. وجازف اونوريه بقوله :

— اني أرى الصغيرة ظريفة بهذه الريشة المرفوعة فوق رأسها ..

فصاحت أمه : « صه ! »

وقالت جدته : « اننا لا نسألك رأيك ! »



وقرنت لومها بنظرة الاستياء ، ارضاء لبنتها . ثم  
قبلت اونوريه فجأة في عنقه !

وجلسوا الى الطعام ، وكانت مدام بلزاك قد صفت  
شعرها بعناية فائقة ، وعقدت حول جيدها شريطا رفيعا  
من الحرير الاصفر ، تدلت ربطته فوق نحرها ،  
منسجمة مع حزامها . وكانت جميلة اليدين ، تشرب  
الحساء بحركة عصبية ، وتضجع أنفها الدقيق في  
صحنها .. وكان المسيو بلزاك يبسم كما لو كان يحلم ،  
ويأكل ببطء ، ثم يلتهم ، فجأة ، ما امامه مفتبطا . وكان  
ينظر دائما نحو النافذة ، ولا ينظر قط نحو حماته .  
وكان شيخا مدهشا في السابعة والستين ، يحكم من  
براه بأنه لانريد على الخمسين ، الى جانبه زوجته  
الشابة في زهرة سنيها الثلاثين .. وكانت قوته موروثه  
عن أب فلاح صلب كخشب السنديان . وكانت للمسيو  
بلزاك متانة عضلاته ، ورخامة لهجته . وكان اذ يزعم  
ذووه انه يتعشى بينهم ، يكون في الحقيقة قد سافر الى  
عوالم خياله ، يشيدها على أسس جديدة .

وصاحت الأم في الولد :

— أفلا تكف يا اونوريه عن التدحرج تحت المائدة  
كالجحش في البرية ؟ .. ان رايتك تكرر ذلك أبعدتك  
الى فراشك بالخبر القفار !

وهكذا أقسمت الأم التي لا تعرف كيف تخلق الهناء  
من حولها ، ولا ترى ان وجه صغيرها بشرق بطبيعة  
غنية حيوية . وكذلك الأب لم يكن يتبين ذلك . فهو  
بدل ان يلحظ عياله يضرب في يداء خياله . وكانت تتكرر  
هذه المشاهدات بين زوجين هما على طرفي نقيض ..  
عمرك الله كيف يلتقيان ؟ ! فلم يلحظا لا هي بلمسها  
الحقائق ، ولا هو من عالم الهواجس — انهما قد أنجبا



معا ولدا فنانا ، تدب قدماه في الارض ويرتفع رأسه نحو السماء . انه ولدهما ، عقلهما ولحمهما .. ومع ذلك بدوا ثلاثتهم كما لو كانوا ابعد ما يكونون بعضهم عن بعض ، كما لو كان ثلاثتهم من الاجانب الغرباء .

وتخرج الام من غرفتها حيث كانت تقرأ فلسفة « سويندنبورج » .. والآب في مكتبه يدرس في التوراة طول الحياة البشرية .. والجدة الشهمة تقضي ساعة في المطبخ تعنف الطاهية المسكينة .. ولا يدور على المائدة حديث . فاذا قال الاطفال لأبيهم ان الناس في الشوارع يعلنون نبأ انتصار حربي ، تنهدت مدام بلزاك قائلة ان هذا النبأ يدل على الوف الجنود القتلى ! .. فيؤكد زوجها ان بين القتلى جرحى سوف يشفون ! .. أما القتلى فسيبورتون أحديتهم للذين هم بلا أحذية .. ويضيفون على العراة سترهم ! .. فتتأفف الحماة من قول صهرها الذي يشبه ما يقوله القسيس الحمقى : « أليس بعد هؤلاء القتلى سيكون الشهداء السعداء عند الله ؟ ! » فظل لا ينظر اليها ، ويبسم ، وينقر على المائدة ، وأبى ان يتناول اللحم ، قائلاً : « ان اكله ليلا يسبب الارق ويسم الانسجة » .. فتتمرمر زوجته قائلة :

— اسمعوا الخبر الاول من نوعه ! .. انك كنت تقول بعكس ذلك تماما منذ شهرين .. لله ما أعجب نزواتك ! — ذلك لأننى قد تربيت على لبن الماعز ! ..

ويسمع نباح كلب . فتقول الصغيرة لورانس : — انه الكلب الكبير الذى يشب دائما على ! فينذرها أبوها : « لقد حذرتك مئة مرة من الدنو من الكلاب ! .. فالكلاب حيوانات خطيرة لا يؤمن جانبها » .



فتسأل الجدة بنتها بلهجة المتهمك : « ترى كم نسخة بيعت من « تاريخ الكلب » الذى وضعه زوجك منذ ثلاث سنوات ! »

فيقول مسيو بلزاك : « مليون ونصف مليون ! » ..  
وينهض ضاحكا ، مما خيل معه لاونوريه انه يستطيع الاشتراك فى الضحك .. فتنهره جدته : « يا قليل الادب !.. اذهب الى فراشك »  
ففكر اونوريه : « رباه ! ، رباه !.. أين من يحبني ؟ ومن على ان أحب ؟ »

وشعر بحزن يشق عليه ، وانه بحاجة الى من يبثه ما فى نفسه !.. أب وأم !.. لقد طالما قرأ فى الكتب انه ليس فى هذه الدنيا أقدم من الوالدين . فلماذا إذن يخشى جانب تلك التى يدعوها « أمه » ؟ ولماذا تراه ، وأبوه على ما هو عليه من معرفة ، ومن احاطة ومن فصاحة ، وأبوه عنده أجل من عرف من الرجال ، لماذا لا يجرؤ على ان يروى له ما أصاب كتيبه « فى الارادة ؟.. ولماذا يارب فى بلاد يجرى فيها نهر عظيم ، وتقوم فيها كنيسة رائعة ، وفيها كل هذه الآيات والصور البيئات ، ويحكمها عامل جليل القدر ، لماذا لا يسعد الناس جميعا ؟

ونادت « المدموازيل » الاطفال ، لتفسل لهم وجوههم وأيديهم .. وبعد الصلاة يدخل اونوريه غرفته ، وتلحق به أخته جريا ، فيتحدثان ، فتظهر أمهما على العتبة تنذر اونوريه بالضرب اذا ظل يتكلم .. ونفخت المربية الشمعة ، فساد الظلام ، وانصرفت .. واونوريه لا يأتية النوم ، فهو : يتشاءب ، ويتضجر .. يريد : ان يجرى ، وان يعمل ، وان يقرأ ، وان يكتب ، وان يتشاجر ، وان ينتصر ، وان يحب ، وان يبكى ، وان يفعل أشياء عدة



جلیلة وجميلة ، كالابطال او القديسين .. ويظل يتقلب  
في فراشه ، ويتقلب .. وتقول لور :

— او .. نو .. ريه ! ..

— ماذا تريدین ؟

فتضحك الصغيرة ضحكا عاليا ، وتقول :

— اما زلت تطمح الى ان تكون عظيما

فيفتح الباب كهبة الريح . وتبدو أمهما وفي يدها  
شمعة . وتسال غاضبة :

— من الذى صاح ؟

فيجلس في سريره ، وقد انتفش شعره كالادغال ،  
ويحلق في لهب الشمعة بعينيه النجلاوين ، ويعجب :

« انا ! .. »

فتصفعه أمه صفتين ، وتخرج .. فتتأثر لور ،  
وتكاد تبكى من أجله ، وتزفر .. وتعض غطاء فراشها  
تخلصا من نحيبها .. وتساله :

— لماذا قلت ذلك ، مادمت .. ؟ .. وهل أحسست

بألم شديد ؟

فيرد عليها اونوريه مباهايا :

— لم أحس شيئا !

وعندئذ يمتلىء قلب الصغيرة : ألما ، واعجابا ..

وتقول بصوت لا نظير له ، في رجفة وحنان ، يتجلى  
فيهما كل نقاء سنيها الاحدى عشرة :

— اننى ، كذلك ، واثقة من أنك ستكون رجلا عظيما !



بعد عام مر بنا ، عين المسيو بلزاك بإدارة المهمات  
الحريرية في باريس . وفي عشية السفر راح أونوريه  
يمثل لآخوته ، بطريقته التي لاتجارى، مهزلة يستعرض  
فيها كل الوجوه التي عرفوها في مدينة تور ، ويودعها  
وداعا ساخرا ..

وعرف الاولاد لذة الانتقال ، والسفر ، وسكنى بيت  
جديد في تلك المدينة التي كانوا يجهلون لها ، المدينة العظيمة  
ذات الاسم الرنان ! .. وشعر أونوريه بالفخر والكبرياء  
اذ أصبح من ساكنى تلك المدينة الساحرة ..

ومع ذلك كان الطريق لايزال أمامه طويلا حتى يصبح  
باريسيا عريقا . فأدخلته أمه ، غداة وصولهم ، مدرسة  
داخلية ، بشارع سان لويس . فظل ثمانية أيام عاجزا  
عن الاصفاء الى شىء غير مخيلته . وكان رأسه يشتعل  
شوقا لرؤية : نوتردام ، واللوفر ، والتويلرى ، وأين  
يسكن الامبراطور ؟ وأين فصلوا رأس الملك على المقصلة  
(الجيوتين) ؟ .. لقد بدأ عهدا جديدا ، كله : حماسة ،  
وثوران ، وكله : انجذاب ، وافتتان ..

الحلفاء في العاصمة . عودة لويس الثالث عشر . المئة  
يوم . ووترلو . الردة .. يا لها من ساعات مثيرة ، تلك  
التي ستعيشها تلك النفس الفتية ، الباحثة عن معنى



الحياة ومصير الوطن ! عهد قلق وتزعزع ، ينشد فيه كل امرئ استعادة توازنه . فخطر لاونوريه أن لديهم فاتحا عظيما ، فلا بد لهم الآن من مفكرين عظام ، من عقول تعطى التسعب افكارا وقوانين .. وسلك نفسه في عداد هؤلاء « الموعودين » ! ..

وكان اونوريه ملكيا ، على شاكلة ناظر مدرسته المسيو لبيتر . ولكنه كان يرى رأى أبيه القائل بأنه منذ الثورة يحق لكل انسان ان يطمح الى المجد ، بتكريس نفسه لخدمة بلاده ، مهما يكن وضع المنبت ، رقيق الحال ! .

وقضى عاما في مدرسة المسبو لبيتر ، وعاما مثله في مدرسة أخرى ، ثم عامين عجيبين ، سريعين كأنهما ربيع ، التحق فيهما بمدرسة الحقوق ، متظاهرا بأنه يعمل كاتباً في مكتب الاستاذ « جيونيه دي برفيل » .. وكان يدرع فيهما باريس الشاسعة من أقصاها الى أقصاها ، وتعلم خلالهما الرقص ، وتابع بشغف دروس السوربون هذا هو تاريخه حتى سن العشرين . وكان يملكه ويسيطر عليه قلق ملح ، ورغبة جانحة : « حذار حذار أن نضيع الوقت ! »

وعندما زعموا انه يتنزه ، وانه يتجول ، وانه يعيث ، وانه يحلم ، كان يؤدي ما ينبغى له : ينظر ، ويدرك ، وينظم حياته . واذا كان يجلس ساهيا في محاضرات الحقول : فذلك لتمييزه ما لا ينفع قصده ، ويخدم غرضه ، الذى كان جليلا لا ضئيلا .. فلما كان يضرب فى أنحاء باريس ، مدفوعا باعجابه بما يراه ، كان يبحث عن الامس ، عن الماضى الغابر ، ويعجب به ، ويمجده ، ويحييه ، لانه هو الذى سيلهمه المجد فى المستقبل . ولكن ، هل كان يتشأب فى الدرس ؟ هل كان يهرب



منه بلا عذر ؟ ذلك أن مهنة « كاتب محام » الصغيرة ،  
التي فيها ينسخ ، ويسجل ، ويرتب الملفات والاضابير ،  
تقتل فيه ذلك الميل العظيم للخلق والابداع ! فهو يخشى  
على روحه التلف . وباريس هي مهبط الوحي ، ومصدر  
الالهام ، الحوادث فيها هي ذروة التاريخ ، وحاضرها  
هو أجمل ما في الحضارة ، ونسائها هن أجمل نساء  
الأرض وأشدهن فتنة ، ورجالها هم أشهر الرجال ..  
وكان إذا ما نظر بعين نهمة الى المركبات تمر في  
الشانزليزيه ، حاملة اشتاتا من كل الطبقات ، ناقش  
أحوال الحياة الاجتماعية ، وقارن أوضاعها وأحكامها  
بعضها ببعض ، فيسأل الترف عن أسبابه : « هؤلاء  
النسوة الجميلات ، الشائقات ، الفاتنات كل هذه الفتنة ،  
لمن هن ؟ من الذي يستحقهن ؟ » .. ولم تكن الأفكار  
الخشيسة لتخطر له في بال .. فكان إذا ما رأى نفسه ،  
سلفا ، بعين الخيال ، في إحدى المركبات الى جانب  
واحدة من هؤلاء الحسان ، فذلك لن يكون ، أو يبذل  
جهدا نبيلًا ، يهيء له الشهرة ، ثم يتيح له الحب ،  
جزاء وفاقا ..

يا نساء باريس ، ما أشبهكن بالشهب في العينين .  
العاشقتين ، عيني هذا الريفى الصغير ، المهتز حرارة  
وحيوية ! .. انه يعجب بكن أعجابا مقدسا . انكن تلهبنه  
بشعلة من الشعر . فلا يخاف ، ولا يحزن ، الا اذا  
ما عاد الى البيت أدراجه ، لانه لا يلبث أن يلقى اخواته  
الظريفات ، أولئك الريفيات اللواتي كن يمثلن عنده -  
منذ بضعة شهور سلفت - شباب الدنيا وجمالها ،  
وقد أصبحن ، الآن ، في نظره غشيمات ، قليلات الخبرة  
بفن الطهى ، قديمات الزى ! فالقدم ، واليد ، والحركة  
والزينة فيهن ، لم يعد لها عند اونوريه تلك الحمية



الشعرية ، التي تحوط بالفتنة المرأة الباريسية الانيقة .  
الطليقة .. وهو قاس عندما تتهافت أخواته الصغيرات  
على رؤيته ، مبهورات ، اذ يلبسن جواربه الحريرية ،  
وينتعل حذاءه اللامع ، ليذهب ليرقص في حفلة  
الأوديون .. فيقول :

— وربى اتكن لم ترين من الحياة شيئا ، فقط  
وكان من حسن طالعه انهن لم يرينه ، بعد ذلك بساعة،  
وهو يسقط أرضا ، مع راقصته ! فما كان ليفر لهن  
قط رؤيته على تلك الحال .. ومع ذلك ، اتراهن كن  
يضحكن منه ذلك الضحك الخبيث الذى أرسلته  
الباريسيات الساخرات ؟ لقد أحس حمرة الخجل ،  
وحملته الأنفة ، وازدهاه الكبر ، فأقسم لنفسه في  
الطريق ، وهو يلوح لأعمدة التياترو بقبضته : « تالله  
لا سودن الدنيا بشيء آخر غير الرقص ! »

وفي اليوم التالي ، يقضى ثلاث ساعات على رصفة  
السين ، ورأسه في صناديق الكتب المعروضة . لقد  
عاد فأصيب بسعار المطالعة . وبدأت له الدنيا شريرة ،  
في حين ان الكتب هي الخيرة الكريمة . فما ان يفتح  
كتابا قديما حتى يحن قلبه ، ولا يقفله حتى يحس انه  
أغنى مما كان ، ولا سيما على شاطئ السين ، أمام  
اللوfer ونوتردام .. ويخفق فؤاده لهذه الصحبة ..  
وعندما يكون الكتاب ضخيم الحجم ، رخيص الثمن ،  
يشتره .. وهكذا لم يعد في غرفته موضع لقدم ..  
ويثبت أمه من تنظيفها . ولكنه لا يستطيع دفع رغبته  
في التعلم .. وكل ما يقرأه يشيره : التاريخ ، والآداب ،  
والعلوم . وكان مفتونا بمحاضرات السوربون ، يذهب  
اليها من تلقاء نفسه ! .. فيا للساعات الشائقة ! انه  
يعجب ويغبط بمجامع قلبه أولئك الرجال الذين يلقون



في قاعات دافئة بمن تفص بهم من نساء وطلاب -  
بأصوات ملهبة ، دروسا ممتعة في العباقرة وأعمالهم .  
وهامو ذا يصفى الى الاستاذ « كوزان » اذ يتحدث الى  
طلاب الحى اللاتنى فى الحق ، وفى الجمال ، وفى الخير ..  
ويفتن بسماع « فيلمان » - الذى أعطوه فى الثامنة  
والعشرين كرسى الفصاحة الفرنسية ، فى السن التى  
تتدفق فيها الفصاحة .. وهو فخور ، سعيد بكرسيه ،  
يرسم القرن الثامن عشر - واونوريه يصفى ، ويرى ،  
ويؤمن .. الى حد انه ، بعدما انتهى الدرس يوما ،  
ورن التصفيق ، خيل اليه انه المقصود بهذا التصفيق !  
وتصور نفسه على مقعد التدريس ، وانه هو الذى خطب  
خطبة عصماء .. وبينما كان يصفق كالآخرين لهذا  
الاستاذ الساحر ، تابع حلمه ، وابتسم ، وأحنى رأسه  
للحاضرين شاكرًا ..!

هذه التأثرات العميقة فى نفسه الصبية قد احتفظ  
بها سرا .. فلمن يفضى بها ؟ .. انه ساذج ، ولكن  
ليس الى هذا الحد .. ولو فعل لكان أبوه أول من  
يسخر منه ، وأمه تعده مجنونًا ، وإخواته لا يفهمن ،  
وأخوه فى أذيال أمه .. وليس غير الأنسة « دى رودجمون »  
العانس ، التى هى من طراز عتيق ، عتيق ، تلبس ما  
خلعه الناس من زمن ، وتستند الى « عصا - مظلة »  
مثل « مارى انطوانيت » فى قصر التريانون ، وتتنشق  
فى أنفها المدبب سعوطا من علبة ذهبية .. وكانت كثيرة  
التردد على مدام بلزاك ، فلا تكاد ترى أونوريه ، حتى  
تقول :

- آه ! .. انى أرى فى عينى هذا الفتى انه سيسألنى  
عما اذا كنت قد عرفت الكاتب « بومارشيه » ..  
لقد عرفته قليلا ..



فيسألها أونوريه : « وهل كان وقحا مثل بطل قصته  
« فيجارو » ؟ »

— انه فيجارو نفسه !.. فقد رسم في تلك القصة  
ذاته . ان الكاتب العظيم يرسم نفسه دائما !  
— ما أدق ما تقولين ، أيتها الأنسة ، وما أرقه !..  
فاحمر وجه الأنسة دي رودجمون سرورا بشناء  
أونوريه عليها .. وقالت :

— لا أدري اذا ما كان فيما أقول دقة أو رقة ، وانما  
أدري ان صنعة الكتابة تتطلب من صاحبها ان يكون  
أغنى من الآخرين .. لا بد له من ان يطوى تحت جناحه  
الآخرين جميعا ..

فهر رأسه موافقا : « هذا حق .. هذا حق » ..  
وبصوت منخفض قال : « سأكون أغنى منهم ! »

وكان من أشد المعجبين بالكاتب « بومارشيه » ..  
با له من رجل !.. يلبس الشيطان ! ويصنع كل شيء .  
حتى الروائع يكتبها وهو يمزح ، ويلقى بالكلمات كما  
تلقى السماء بالبرق .. وهو ساعاتي ، وموسيقار ،  
وبائع بنادق ، ومحام ، ومؤلف مسرحي !.. ذلك ان  
الفن التمثيلي هو من أشد ما يجذب فتى يريد ان يسود  
بالفكر . أي سلطان على الجماهير ، ذاك الذي يجعل  
القصة تضحكهم وتبكيهم ؟ !

وكان كثير التردد على « التياترو الفرنسى »  
( الكوميدي ) . وهو المسرح الوحيد الذي يعرض آيات  
التمثيل . وليس وراءه وقت يضيعه في سواه . فهو  
يقف في الصف الطويل المنتظر أمام شبك النذاكر  
مصفيا الى أحاديث هواة « أعلى التياترو » ، فيتعلم  
ما يحبه الشعب في بساطته واستقامته . ويعود دافع  
العينين . وأصوات الهتاف في الصالة ما زالت تدوى



في أذنيه . الحق انه ما من شيء يؤثر فيه مثل هذا  
المجد المسرحي . فالثراء الذي يراه في الشانزليزيه ،  
ونباله الكتب التي تلهب رأسه بنار المعرفة ، عندما  
يأوى ليلا الى غرفته ، وبشعل سرا شمعته ، ودروس  
السوربون الممتعة ، التي تغذيه وتطريه ، لا شيء من هذا  
كله يمنع روحه جناحين ، لا شيء في باريس يجتذبه  
ويغريه مثل فكرة التأليف المسرحي . سوفوكليس ،  
شكسبير ، مولير ، الامجاد العظمى !.. كورنيل ، سيد  
الكتاب !.. وهو يضيف الى هذه الاسماء الكبرى  
اسم : « اونوريه بلزاك » ، يراه يتبعها وبلاحقها ،  
مسجلا اسمه ورسمه على شرفات تياتروا باريس ،  
العاصمة ، أى : الرأس ، والفكر .. باريس التي تحدد  
رغباته ، وتعبر عنها ، وتصنع منه رجلا معتزما ان  
يصبح مشرف أسرته .

وحملته هذه الفكرة الاخيرة على أجنحتها ، وحلقت  
به . وانتهر بقلق الظافرين فرصة سعيدة يفضي فيها  
الآبيه بقوله : « سأجعلك يا أبت العزيز عظيما ! » .  
ولكن المسيو بلزاك كان في الوقت نفسه بعد ولده  
مركزا من طراز آخر ، مركزا حرا يكسب فيه اونوريه  
حياته كسبا مكفولا ، موفور الرزق . فان هذا الرجل  
الغريب الطباع . بعدما كان مستقل الرأي ، قد قضى  
ثلاثين عاما في وظائف الحكومة ، فأحب التهاون وعدم  
المبالاة اللذين تضيفهما الادارة على النفوس . فالموظف ،  
في غير دائرة مكتبه ، يستطيع ان يفكر ويتأمل ويبتكر .  
ولكن من سوء طالعاه انه مضطر في الصباح التالي الى  
العودة الى وظيفته ، أى الى « الروتين » والخضوع  
لأشخاص تافهين .. فرأى مسيو بلزاك « ان هذا  
لا يطاق ولا يحتمل » ، ومع ذلك تحمله دهرا طويلا ..



وهذا هو ما حمله على اعداد مكنب خاص لولده ، ليكون « مسجلا للعقود » ! فقد طالما أجب ذلك : ان يكون أستاذا ، سيد نفسه ، يقف كتبه بين يديه ، وبأيديهم الملفات ، يقرأون له ، ويكتبون باملأته . وقصصارى القول انه يريد لولده المسرات التى حرم هو منها ، وتوقع من اونوريه ان يقر بهذا المشروع عينا ، ويعترف بجميل أبيه .

وهكذا نجد كلا منهما يعد من جانبه العدة لهناء الآخر ، وكلاهما يألم ان هذا الهناء ليس قاب قوسين أو أدنى . ثم سنحت الفرصة فجأة ، ولم تكن منتظرة . فقد وجد مسيو بلزاك ولده يقرأ « رابليه » ، فقال له :

— ياله من عقل كبير ! أليس كذلك ؟ يالها من حرية عظيمة يا اونوريه !

كانت هذه الكلمات كافية لربط قلبيهما . وأضاف أبوه :

— لا شيء أشهى من ذلك . .

— أليس كذلك يا أبت ؟ . .

— ولى فى هذا الشأن كلام معك . . فها أنت ذا قد

بلغت طور الرجال . .

وسمع اونوريه ما اعتزمه له أبوه ، كارها مستنكرا

. . وبثه ما فى نفسه من رجاء فى الكتابة والشهرة عن

طريق القلم . . فلما عارضه الشيخ غاضبا ، نطق

اونوريه بهذه الكلمة السامية : « أتريدنى مسجلا

للعقود ؟ ! . . شيء لا أفهمه ! . . اعرف انه فى الامكان

ان يكون المرء قائدا عظيما ، أو شاعرا عظيما ، أو

سياسيا عظيما . . وانى لراغب فى مثل هذه المهن . .

ولكنى لا أرى مسجلين للعقود عظاما ! . . أبدا ! . .



وانى لاحتقر صناعة لايمكن للمرء ان يكون فيها عظيما «  
- آه !.. اذن فالسيد الشاب يريد أن يكون فولتير  
أو روسو ؟ !

- وهل كان ابواهما أوفر منك يا أبى ذكاء ؟ !

وسمع هنرى ، شقيق اونوريه ، هذا النقاش  
مصادفة ، فحملة الى أمه . فزادت هذه فيما بين الوالد  
وولده من الضيق والخرج . فهل ينوى اونوريه ان  
يقتلها من الحزن ؟ أم تبادر هى فتقتله خشبة الخيبة  
والفشل ؟ وحدث ، فى فورة من فورات غضبها ، أن  
وقعت ، وأصيبت ركبته ، فعاد السلام المؤقت الى  
البيت ، واونوريه فى بحران من الصمت الاليم .

كثيرا ما تكون الأمهات على غير هدى . ولكنهن بهذا  
الضلال من تصورهن يؤثرن فى أولادهن وبنفعنهم .  
فقلوبهن لا تعرف السلام ولا عدم الاهتمام . وهن من  
شدة غيرتها وهياجهن يزدن النار استعارا .. وهذا  
الاستعار خير من جمود الصمت وجذب الاصطبار .  
وسيحادث ان حياة بلزأك تتغير تغيرا تاما . فاذا كان  
الأب يتعجل اشتغال ولده الكبير ، فذلك لانه لا يلبث  
ان يحال الى المعاش . وهذه الاحالة معناها خسارة  
فادحة لدخل الأسرة ، أذ تنقص ميزانيتها الواف  
الفرتكات . فضلا عن انه لابد من تزويج البنات ودفع  
مهورهن . وهو ما يقلب النفقات والعادات رأسا على  
عقب . واستطاع الأب ان يجد بيتا فى «فيلباريزبس»  
على بعد ستة فراسخ من باريس . والى هناك تنقل  
الأسرة أثاثها مستغنية عن خادم ، مقتررة على نفسها فى  
الانفاق ، بعد ما كانت لا تحسب اللبس والطعام حسابا  
.. فقد كانت الأم وبناتها - رغم رأى اونوريه - من  
المتائقات المتحذقات . وكان الأب من المشغوفين بألوان



النيئة الفنية بالفيتامينات واللوان الطعام الناضجة ..  
وقد آن الوقت لاختزال هذا كله . ولن يشعر أحد منهم  
بهذا كما شعر الولد ، أونوريه ، الذي هو عندهم  
متعصب ، عنيد ، راكب رأسه ! لأنه لن يرضخ للذهاب  
الى فيلباريزيس ، فيسبب بذلك خراب الأسرة .. اذ  
ماذا يفعل في باريس غير انفاق المال ؟ ..

هذه هي أقوال الأم . اما الأب فلزم الصمت . فهو  
يحب الحرية ، بل ويحب الادب ، بحيث لن يقابل بالعنف  
رغبة ولده ، وان كان لا يخفى ضيقه منه ، وانصرافه  
عنه .. وظل يتحرى حلا حتى وجدده على مضض ،  
وعهد به الى الأم الساخطة التي حملته الى أونوريه  
كعقاب له .. ولكن أونوريه يعيش ، كوالده ، بالمخيلة :  
غرفة سطح في باريس ! الف وخمسمائة فرنك ( ٦٠  
جنيها سنويا ) للعيش ! .. هذا هو الخلاص ! .. هذا  
هو الهناء ! .. ولو انه كان - عند والدته - هو  
الاستشهاد ، فأونوريه لا يخشى الاستشهاد . فهو يكاد  
يحب البؤس ، ضريبة المجد .. فان للعظمة أيضا  
أثاوتها ! .. فأجاب أمه بجفاء بأنه يقبل .. مع اعترافه  
بالجميل ! .. والويل له اذا ندم على كلمته الأخيرة هذه  
.. فهو في ذروة أحلامه ! .. وهو يتعجل العيش وحده  
.. عشرون عاما ، من القوة ! .. حياته ككاتب :  
شجاعة ، وجراة ، وعبقرية .. هذا ما ينبغي له . وفي  
باريس ، سيلقى هذا كله .

وكانت ساعة مشهودة ، من اغسطس ١٨١٩ ، في  
حمارة القيظ ، تلك التي سكن فيها عشة سطح بشارع  
« لديدجير » ، على خطوتين من فوبورسانت انطوان ،  
بعد ما حملوا اليه ، على عربة يد ، اثاثا رخيصا ،  
وحقيبة ملابس ، ورزما من الورق والكتب .. وقد



عانقته أمه ، في جو من التراب ، عناقاً أخيراً ، قائلة له ،  
وكأنما تتحداه : « ها أنت ذا يا صاحبي !.. فاكتب  
آيات بينات !.. ولا تنس أنه في هذه الصناعة لا يوجد  
بين بين .. فاما ان تكون ملكا متوجا ، واما ان تكون  
صعلوكا ذليلا ! » ..

وبدا الاضطراب على لور ، فالتفت اونوريه نحوها ،  
وقال متبسطا :

— لا تضطربي يا حبيبتي لور .. سأكون ملكا !..  
ثم غالب نفسه وسأل : « أين أبي ؟.. » .. اختفى ..  
لم يره أحد .. فمضى اونوريه لطيته .. كليم القلب ..  
غير أن حركة المارة في الشارع قد ألتهه .. فأحس بفتة  
بقوة الاسد الرئبال ، اذ دخل غرفته .. وأعد بنفسه  
منضدته ، ليكتب عليها ، ويكون شسهيروا ياها !..  
وجعلها قبالة الكوة التي بنحدر منها شعاع الشمس  
الذهبي ، الشعاع الناري .. وخلع سترته ، وألقاها  
أرضا ، وفتح قميصه ، وشمر عن ساعديه ، وضحك  
وهو يخط على المنضدة :

— اليك !.. انت وأنا !.. والالام بينهم وبيننا !..  
ويذكر فجأة ان هذه الجملة ، قد سبق له ان قالها  
وهو صبي في مدرسة فندوم ، عندما سخر منه رفاقه ..  
اذن فهو لم يتغير .. وهي فكرة قديمة بحققها .. فصدرت  
منه صيحات الفرح .. وراه الحمال هكذا ، فقال : « هاهو  
ذا فتى سعيد ! » ..

— بل سعيد بجنون !.. ضع هذه الرزم هناك !..  
مولير ، وكورنيل !.. حسنا !.. وهذه عدة القهوة !..  
حسنا جدا !.. سنضع كل شيء مكانه .. وأكون مركز  
كل شيء !.. أتفهم أنت معنى الآن يكون للناس بيوت  
فسيحة وقصور منيفة ؟ !.. هنا كل شيء في متناول



اليد : المائدة ، والسريز ، والكرسي ، ورف الكتب !..  
حياة انسانية متراكمة ، مركزة ، مبسوسة الى الحد  
الواجب ، لا أكثر ولا أقل !.. وان « كوزان » ، مسيو  
كوزان ، الأستاذ بالسوربون ، سوف يدخل هنا ، ويرى  
ويقول : « انى اتنبأ بما سوف تتمخض عنه هذه  
الحجرة » !..

ووقف الحمال مبهورا .. فصاح به اونوريه : « انزل  
يا صديقى واحضر الباقي ! » .

ورتب غرفته ، وهو يرقص ويغنى . وكانت غرفة  
حقيرة ، فى بيت عمال ، رآه فى الشمس ، فطاب له ،  
وصادف هوى من نفسه . وكانت الغرفة مجردة ، ضيقة ،  
معوجة . وها هو ذا فيها مع أوراقه وأرادته . وبدت له  
الحياة جميلة .

وكان قد حمل كل ماسوده منذ طفولته من شعر ونثر .  
فأعاد قراءته ، وابتسم ، ورتبه . وعلق الصور على  
الحيطان ، وملأ دواته حبراً ، وأعد ريشتين جديدتين ،  
وأحس انه يبدأ شيئاً فريداً .

ترى ، أهنالك شاب سواه قد بر هكذا على ان يعتزل  
الدنيا بأفراحها ، وينقطع لعمل عظيم ؟ آه !.. انه يعرف  
الشبان !.. انهم جميعا عشاق مسرات وملذات ..  
وكأنى بهذه الشبيبة لبست ألا رمادا تلروه الرياح بعد  
هذا العصر النارى الذى عاشوه .. الله له ! هو الذى  
يحس كل هذه الرغبات والأمانى !..

وبدأ يكتب خطابا الى اخته يعبر لها فيه عن أفراحه  
جميعا . ولم يكن بقدر انه قد بدا نضالا عنيفا هو مأساة  
الشباب عندما يكونون مترفعين ، طموحين ، متعجلين ..  
وكان يتعجل اقامة الدليل لأسرته على كفايته . ولكن  
الشباب يريد ولا يقدر . يحس لنفسه جناحين ، ولكنهما



ليسا من القوة بحيث يطير بهما .. انه يحلق ، فيسقط .  
وها هو ذا اونوريه يعلن : « أريد ان أكتب ! » .. ويحتل  
غرفته .. ويزعم نفسه سعيدا .. ويمسك بريشته ..  
ولا يدري ما يفعل بها .. ذلك ان الارادة وحدها ، في سن  
العشرين ، تكون غنية ، والقلب وحده يفيض بدم كربم ..  
بيد ان العقل فقير ، اذ لايمكن ان تغنيه الا الحياة ، بما  
فيها من ثقافة ، وتجربة ، وخبرة ..

وعاد اونوريه فاستغرق في المطالعة : بومارشيه ،  
موليير ، فولتير ، روسو .. فيا للأفكار التي تتطابر  
كالشرر في رأسه ! .. لكن الشرر قصير العمر . فتوهم  
ان النار ناره . وكانت نار رجال عباقرة . فلم يستطع  
الاحتفاظ بها . ومع ذلك كهربيته . فوضع في ثلاثة أيام  
قصة عنوانها : « Coqsigrué » ، اوبرا كوميك شعرية  
في فصل واحد .. ثم عاد فانطوى تحت كتبه . وعادت  
اليه الافكار خفافا سراعا ، قصيرة المدى دائما ، وان كانت  
دائما براءة .. وكذلك عاش بضعة أيام في حمي  
الاهام ..

وكان قد انتهى من قراءة مجلدين بقلم فيلمان عن  
« كرومويل » ، فأوحيا اليه كتابة درامة نبيلة ، أي  
شعرية ، وراها بعين خياله وآماله تمثل على مسرح  
الكوميدي فرانسيز .. وظل يضع لها تصميمات بعد  
تصميم .. مصفيا الى لفظ البيت ، والى ضجيج المدينة  
البعيد .. كيف كان كرومويل ؟ أو شارل الأول ؟ كيف  
كان يفكر هؤلاء الرجال ؟ وكيف كانوا يعملون ؟ .. لقد  
اغمض اونوريه عينيه ، وراح بنادي أرواح أبطاله . ثم  
لما شعر بأن في رأسه دخانا كثيرا ، ولها قليلا ، كتب الى  
أخته لور خطابا فياضا بالحياة ، والفكر ، والطيبة ،  
وكل تلك المواهب التي تكفل كتابة آية من الروائع ،



والتي مع ذلك نهرب منه ، كما بهرب الماء من بين  
الاصابع ، كلما أراد ان يسخرها في كتابة مأساته الشعرية  
وضاق ذرعا بفصته التي لا تكتب على مكتبه . لقد  
كان بحاجة الى تحليل الألم . فأين يدرسه ؟ قال لنفسه :  
« سأجد ذلك في مقبرة بيرلاشيز ! » .. وحمل قبعته .  
وهرب من حجرته . وخرج على أمل .. وعاد على  
مضض . فما أكثر ما رأى في تلك المقبرة الباريسية من  
مهازل ! لشد ما يفسد الناس أنبل ما في الحياة ، وهو  
جلال الموت ! « اذا نحن صدقنا الاحجار ، وشـواهد  
القبور ، كانت كل النساء مخلصات ، وكل الأمهات  
معبودات ، وكل الابناء اولادا حلالات .. ثم لا يكون هناك  
الا قصابون أمناء ، ومحامون شرفاء ، وجنود بسلاء ! » .  
وعاد الى غرفته . وعاد الى « كرومويل » . وعادت  
باريس تجتذبه اليها . فهل كان على حق في اختيار درامة  
تجرى في إنجلترا ، في القرن السابع عشر ؟ اليس آمن له  
ان يروي قصة باريسية ؟ ! .. لا ! .. فلا بد له أولا من  
ان يدهش العائلة .. ثم ينسج على منوال كورنيل  
وراسين ، ويسير على دربهما عن قرب .. ففتح قصصهما  
ليجد نموذجا روحيا . وترنم بأشعاره وهو يتمشى في  
بولفار « التامبل » .. ورأى اهل الاناقة ، من كل زوجين  
اتنين ، يدخلون مطعم « الكادران بلو » ، الذي لا يقل  
ما يتكلفه الفرد فيه عن جنيهين في وجبة العشاء ! . فقام  
جهد بهذا البلذخ ، وقاس ما يلزمه من أعمال مهولة  
ليحصل من شق قلمه على مركز اجتماعي يمكنه من مثل  
هذا الترف الذي لا تستغنى عن ألوانه نفس تريد ان  
تلاحظ وان تعرف ..

ولما عاد وجد بينه بشعا ، وغرفته مثلجة ، وسريـره  
قدرا .. قالتمس الرقاد ، وعلى لسانه طعم الرماد . ولما



استيقظ قرا ماكتبه . وكان بدنه هادئا ، وكان روحه باردا . فأدرك انه ، بدلا من تقليد راسين ، كتب مسخا مبهجوجا . . فأحس ، مع الشتاء ، بأن نوعا من اليأس الثابت قد حل فيه ، وليس لديه سلاح للمقاومة غير ارادته . وما دام قد اعتزم كتابة « كرومويل » رغم كل شيء ، فسيكتب « كرومويل » غير انه لم يعد يحس انه ملهم . . كان قد انصرف الوحي وانقضى الالهام . . وبقي لعزاء نفسه شعوره بأن النبوغ قد يكون هو الصبر الجميل . فوصف تقاعسه بالجبن . فهل هو هنا في باريس لينفق مال أبيه ولا يبدع شيئا ؟ . . ان كل بداية صعبة ، ولكن لا بد من البداية ، وليس حتما عليه أن يبلغ شأو راسين من القصة الاولى . ان أول قصة لراسين ليست بذات شأن يذكر ، وهي مع ذلك لم تحرق ، ولم تذر في الهواء حروفا . . . وقال لنفسه : « ان المأساة لن تقتلني ، بل أنا الذي سيأخذ بتلابيبها ويخنقها » . . !

وظل على ذلك نحو الشهرين بلا حراك تقريبا . وكاد البرد يجمد أطرافه من قلة الحركة والخروج . وظل صامدا خامدا أمام قصته ، لا يكاد يمر من كرسيه الى سريره ، الذي حدث ان قضى فيه أياما برمتها ، ينظم فيه الشعر ، ملقيا بالحبر على أغطيته . ولا يكاد يختم مشهدا حتى يتنفس الصعداء ، ويفرك يديه ، ويضرب كتفيه ، ليجري الدم في عروقه ، وليعبر عن رضاه . . وكان يشكو من البرد الذي سبب له الورم و«القشف» كما في أيام المدرسة ، ثم من ألم شديد في أسنانه . ولكنه بلع كل هذه الآلام ، وظل ينظم شعرا . . . فأكسبه التقشف صلابة ، وبرد منه القلب ، وغلظ العقل . وفقد في وحدته عادة الكلام . . وهو يجر بلا انقطاع أذيال أفكاره الصادفة



والزائفة ، نائها ، كما لو كان في صحراء ، وسط باريس  
هذه الغاصة بالناس ، فأصبح « فولتيريا » جافا ، فريشة  
النظريات الانانية ، النى تحرقه بنارها ، دون ان تدفئه  
بحرارتها . . وتجعله يسخط على المجتمع وعلى الدين . .  
أفلا يعرف سادتنا القسس معنى النضال من أجل الخير  
العام ؟ أفلم يروا اذن باريس ، هذه المدينة التنيعة ،  
حيث الشقاء والترف ، يتحدى أحسدهما الآخر  
ويتصادمان ؟ . . لقد تزعزع ايمان اونوريه ، وكان قبل  
ذلك وطيدا . . ذلك انه قد ساء غذاؤه ، واتسخت ثيابه  
وكان غنيا بالمطالعة ، فقيرا بالتجارب ، متسككا في أعز  
معتقداته وأمانيه . .

وظلت غرفته ، خلال شهور ، هدفا للشمس والتراب ،  
فأفسدا كل ما فيها ، فاسودت الحيطان ، واصفرت  
الكتب ، وأوحلت الارضية ، ولطخت المنضدة ، وانتشرت  
بقع الحبر في كل مكان ، وامتلات أدراجة بقمصان  
وفانلات ، تكدست في انتظار غسالة لم تحضر قط ،  
واختلطت عشرة أزواج من الجوارب وامتلات بالخروق ،  
وتكورت مناديله كما لو كان قد مسح بها سقفا . وأخيرا ،  
لم يعد غير الليل يلقي سدوله فيخفى بؤس هذا الحجر .  
ولكن اونوريه كان شقيا بأسا كجحره . وكان روحه  
مظلما كسلم البيت . . وربما كان يكفي لاضاءته ان يعلم  
بزيارة أبيه لبواب البيت . . ولكنه لم يعلم . . فمنذ  
وقت الفرقة بينهما حرم المسيو بلزاك على نفسه وعلى  
أهله ذكر اونوريه . وكان قلبه يفيض حنانا على ولده  
الغائب ، ولكن كبرياءه كانت تحول بينه وبين اظهار  
هذا الضعف . فحدث يوما ، اذ مر بباريس ، ان جاء  
شارع « لديجير » ، كما لو كان غريبا ، بسأل البواب  
وزوجه ، فوجد الرجل أبله أبكم ، ووجد زوجته ثرثرة :



« آه ياسيدى !.. انه ولد مستقيم ، أشبه بالبنت !  
فهو خجول ، لا يفكر فى غير ان يخبىء ويكتب !.. يكتب  
ماذا ؟ الله أعلم !.. ولا نعرف عن أسرته شيئا ، ولكن  
عندى ان أباه رجل معتوه ، بلا شك » .. فقال : « ولماذا  
تحكمين على أبيه بالعتة ؟ » قالت : « ذلك انه يترك ولده  
هكذا فى سجنه الاختيارى ، ولا يسأل عنه !.. ان هناك  
قتلة ليسوا أشد منه حبسا ! »

وعاد المسيو بلزاك يفكر فى ولده ، ويقول : « ان هذا  
الصغير ، وقد حكم على نفسه بحياة موحشة كهذه ،  
خاضع ، بغير شك ، لاستعداد شديد القوى . فلماذا  
لا أتغلب على نزعة الكرامة المزعومة ، وأصعد الطبقات  
الست لأعانق صغيرى ؟ »

وجاءته لور بعد العشاء فى ذلك اليوم نفسه تبشره بأن  
اونوريه قد أنبأها فى رسالة منه بأنه أتم مأساة تمثيلية  
شعرية .. فتهلل الأب لهذا النبأ .. وطلب لبنته ان  
تدعوه ليجيء فيقرأ لهم روايته . فبعثت اليه فى الصباح  
التالى رسالة حارة هاتفة ، لا يقدر على كتابتها الا الاخت  
الحنون . فاغرورقت عيناه لدى قراءتها ، وأجاب :  
« انى قادم ! » وبعد خمسة عشر يوما ، وصل ، يوم  
أحد ، الى فيلباريزيس . وكان منفعلا ، ولم يك سعيدا  
آخر ابريل ١٨٢٠ . ربح شمالية ، عاتية ، تهز أشجار  
الفاكهة المزدهرة ، وما يزال الريف كثيبا ، رغم تلك الزينة  
البيضاء الوردية .. حزينه ، تلك الطرق الواسعة  
المرصوفة ، المفروسة بالأشجار القائمة .. حزينه ، تلك  
البرية المصبوغة بلون الطين .. حزينه ، تلك القرية ،  
بمبانيها الكبيرة ، المسطحة ، المصفوفة .. حزينه ، دار  
بلزاك ، بين حوش لا معنى له ، وبستان لا طابع له ..  
وحزين ، ولا ريب ، ذلك الاستقبال المعد له ؟.. لا ،



لقد كان الاستقبال حارا ، كريما ، مؤثرا .. قبلته لور ، ولورانس .. وربتنا عليه ، وعانقناه .. وقالت الاولى منهما :

- اننى ادخر لك مفاجأة لم ارد ان اكتب اليك بها .. ذلك اننى يا اخى الكبير مخطوبة !..

وتقدمت اليه أمه ، وقبل ان تضع على خده قبلتين صاحت : « أواه يا ولدى !.. لشدة ما نحفت وذبلت !.. ولا بد من ان نعيد بناءك !.. صباح الخير يا اونوريه ! » وما هو ذا مسيو بلزاك يسأله : « ما وراءك من اخبار السياسة ؟. ماذا يقولون فى باريس ؟.. وهل هم مرناحون الى الدوق دى ريشليو ؟ » .

ويدخل المسيو سرفيل ، خطيب لور ، وهو مهندس بالطرق والكبارى ، فيقدمان لبعضهما . ويعم الفرح . ويجلس الجميع الى المائدة .. الفداء شهى : بط وحشى ، ونبيذ فوفراى الابيض ، لم يكذ يشرب منه اونوريه ثلاث كؤوس حتى دفى قلبه ، وطاب حديثه .. واخواته شائقات .. وخيل لاونوريه ان اباه قد صب لحماته نبيذا قبل ان تسأل شرابا !..

وطلعت الشمس ، وشربوا القهوة ، ودقوا ثلاث دقات ، كعلامة المسرح ، منصتين الى « كروموبل .. بقام اونوريه بلزاك » !.. وبدأ فنانا بقرأ .. ولكن الثمار الموعودة ، وبا للأسف ، لم تكن بعد قد نضجت ، حتى جو المحبة ، والمرح ، والطعام اللذيذ ، والشراب الزكى ، والرضا ، والصفاء الشامل ، حتى هذا كله لم يحل دون فتور الجو من حول اونوريه ، وسقوط ملحمة عند بيتها الثلاثين . واضطرب لدى ذلك صوته وانخفض .. فلماذا ؟.. انه هو نفسه قد فقد فجأة ايمانه !.. انها اذن قصة رديئة ، ولا ريب !.. فشعر بجناحه يهاض ، وانقطعت أنفاسه ،



وأحمر وجهه ! . وقال غاصبا بريقه : « انها لم تخلق للقراءة .. بل للتمثيل » .

ثم بعد صفحتين قال : « لعللى أحسن صنعا باعطائكم اياها لتقرأوها على مهل » .

ثم بعد صفحة أخرى : « انى لا أريد ان أحول بينكم وبين التنزه » .

وساد الجميع الخجل . وأرادت اخته لور أن تحمله على المضى فى القراءة ، ورجاه خطيبها ، فأبى .. وأصر على الخروج .. فخرجوا .. وكان بلزاك وزوجـه لا يستطيعان الحكم صراحة على القصة ، فاكتفى الأب بأن قال ممتعضا : « هل الملحمة كلها من قافية واحدة ؟ » .. فأجابه أونوريه محزونا : « نعم يا أبت ! »

ولما خرجوا الى الحديقة ، كان صوت خفى لا ينفك يقول لأونوريه : « أسأت .. أسأت يا صديقى .. أسأت حقاً » ..

وظفقت البنات يتكلمن فى الزواج القادم : ثيباب وحلوى ، وأكاليل كنسية .. وكان أونوريه يصفى ، ولا يسمع . وأصبح « كرومويل » نسيا منسيا .

رباه ! .. ان أحدا فى الاسرة لن يعود فيذكر ذلك قط ! . ورأى اليوم الذى كان يحلم به منذ خمسة عشر شهرا بنهار ! .. وانه لانهيـار مروع .. ولو كان فى مكانه شخص آخر لبحث عن أسباب للحقد والاتهام . أما هو فان خيبته قد جعلته يشعر بالحقيقة الجارحة ، ويتقبلها .. وكان من الأمانة بحيث لا يتهم سوى نفسه .. وعلى ذلك ، بننا كانوا يجتازون خدبة القسيس الصغيرة ، تحت شمس الربيع الباكـرة ، ظل هو فى المؤخرة ، شاعرا بالضعة ، معترفا لنفسه ، فى شجاعة ، بأنه قد أراد أن يعمل عملا عظيما ، فخاب فآله ، وطاش سهمه ..



تزوجت لور ورحلت ، وحل الهدوء محل الضجيج .  
واعتكف أونوريه في غرفته يستعرض ماله وما عليه .  
فراى مما له : حسن استقبال أسرته الذى لا ينكر ، وعطف  
المسيو سرفيل ، زوج أخته ، الذى حمل « مأساة  
كرومويل » الى أحد أساتذته الجامعيين ، وأن كان الحكم  
عليها قد جاء قاسيا . وجعلت الأم تقضى ثلاث ساعات في  
اليوم في نسخ الدراماة ، لتحمل صورة منها الى صديق  
للأسرة له علاقات وثيقة بالكوميدي فرانسيز . زد على  
هذا رغد الحياة المادية في فيلباريتريس : فالفراش  
وثير ، والطعام شهى ، والثياب نظيفة . وكذلك انتفع  
أونوريه بجو الربيع ، وتفتح الزهر ، وتفريد الطير . هذا  
من ناحية الارباح . . أما من ناحية الخسائر ، فقد رأى  
مما عليه : اضطراره الى البعد عن باريس منذ ثلاثة  
أسابيع . ولم يكن بأسف على غرفة السطح ، ذلك القبر  
الجوى ، وإنما على الشوارع ، لاسيما في المساء ، عندما  
يضى على الظلام سره ، ويصطبغ المارة ، أغنياء كانوا  
أم فقراء ، بألوان الشعر والخيال . . وخيل اليه انه كان  
سيجنى من ملاحظتهم معلومات مجدية . ثم مقبرة  
بيرلاشيز ! أن ما هو مكتوب على أضرحتها أشد حزنا من  
الموت . . بيد انها جميلة ، تلك المقبرة ، التى يشرف منها



المرء على المدينة ، فيحس برغبة غريبة ، وقد وضع قدميه على رفات الموتى ، وأطل على مساكن نمانثة ألف من الأحياء ، يحس بأنه لا يريد أن يموت قبل أن يحيا حياة أجدى وأمجد من حياة الآخرين .. أما في ضاحية فيلباريزيس ، فالحياة خامدة خاملة ، والأرض تخرج نمراتها في بطن ، حتى الحيوانات اذا كانت جميلة تكون حزينة !

ماذا في طوقه الآن ؟ انه أمام أمرين لا ثالث لهما : اما ان يكتب أيضا للكتابة ، واما أن ينتظر حتى يعيش .. ولكن يعيش .. كيف ؟ انه لم يعد يستطيع العيش بغير كتابة . ولقد قال للدكتور « ناكار » ، طبيب الأسرة المكلف من اهله بأن يجد « شيئا ما لأونوريه » :  
— يا دكتور ، اننى لن أقبل شيئا ! أقسم لك على ذلك برأسك ، ورأسى ، وبالعلم ، وبالادب ! .. اننى لأربد ، بأى ثمن كان ، ذلك الشيء الممقوت الذى يسمونه « وظيفة » اننى لست ، ولن أكون أبدا ، حصانا يعلق فى عربة ! . وهكذا حكم على نفسه بنفسه بأن يستأنف امنشاق القلم . فكل الناس فى البلد يعملون . وما دام هو لا يريد ان يربى الدجاج ، ولا ان يفلح الأرض ، فلا مندوحة له عن الانكباب على مؤلف جديد .. وخطرت له القصة ، فالقصص الآن ذائعة يتداولها الناس ، ولاسيما ترجمة روايات ولترسكوت .. وقد حاول ان يحمل أباه على قراءة ما يكتب ، من دون طائل ، لأن المسيو بلزاك قال له :  
— ان القصة هى أفيون شعوب الغرب .  
وقال له فيما بينه وبينه :

— ان الفصص تطيب للنساء .. اللواتى ربما كن فى حاجة اليها ! .. أما اننى لو كنت مكانك لوضعت كتابا عن الزواج ، ، قصة ، بل كتاب تجربة ! ..



- ولكن يا أبت ليست لى فى هذا تجارب !  
- أحقا ؟ .. وهل ليست لأجدادك تجارب تنفعك ؟ ..  
وماذا فعلت اذن بالورانة ؟ .. استمع اليهم .. الى  
أسلافك ! .. لو أنك أرهفت أذنك اليهم ليلا لسمعتهم  
يخاطبونك فى صميمك قائلين : أن المرأة أشبه بالبرغوث ،  
تقفز ولا تستقر على قرار .. ولا سبيل الى فهمها أو  
ادراكها ، فلا بد من أحد أمرين : إما أن ندوسها ، أو  
نلعها تلتهمنا ! ..

ثم ضحك من قلب خلى .. ففكر اونوره فى شذوذ  
حياة أهله ، من أمه المتمرمة الى جدته الترسية ، الى  
أبيه البطاش .. ذلك الأب الذى فاجأه اونوره يوما وهو  
يطارد صبية من صبايا الحقل .. ثم فى تلك النظرية  
الكبرى ، نظرية المرأة التى يقف أمامها الرجال عاجزين ،  
وهم يزعمون أنفسهم أقوياء قادرين ..

خليلة ؟ ! يا للكلمة الاخاذة ! .. أتكون له يوما ما  
خليلة ؟ أيستحق يوما امرأة جميلة جذيرة بأن يعبدها  
قلبه الكريم ؟ : « أواه ! .. ليست فى هذه الدنيا كلها  
امرأة لى ؟ » . وتذكر وجوها جميلة ، قد أحبها فى  
فصول السوربون ، وقامات رشيقة ، فى المسارح ، لفتته ،  
وفتنته ، واستهوته .. باريس ، باريس دائما ! .. انها  
باريس التى يرجو أن يقدر له الحب فيها ، ما دامت  
تنضم على كل ما هو جميل ، وخليق بالحب ! .. ولكن  
الأيام تمضى ، ويكتمل عام ، لم يعد خلاله الى مدينة  
أحلامه ، إلا لاما ، لىبتاع كتباً ، وليجدد صلاته بشبان  
التحقوا بالصحف ، وعاد منها حاملا الرجاء فى الحب ،  
دون الحب .

ثم حدث فى أوائل يونية ١٨٢١ أن تعرفت مدام بلزاك  
بسيدة من جيرانها تدعى : « مدام لوردى برنى » ،



وأعلنت انها دعته هي وزوجها وبنتيها الكبيرتين وفتاتين فانتين ، لتناول الشاي يوم الاحد القادم .. فتضايق اونوريه ، بلا موجب ، اذ زعم ان امه ارادت لفت نظره الى « فتنة » تلك الفتاتين ، ونوه بأنه : في اليوم الموعد سيذهب ليتنزه ، وانه لا يحب الفتيات ، فكلهن تافهات — (فقال اخته لورانس : « شكرا ! .. ) — فضلا عن انهما كريمتا قاض ، وهو لا يطبق الموظفين — ( فقال أبوه : « شكرا ! .. ) — وقالت أمه : « ولكن هناك الأم ، وهي جد شائقة ! » .. فسألها اونوريه : « وما عمرها ؟ » . فقالت : « انها تكبرني بثلاث سنوات » .. فقال اونوريه : « اذن أى حديث تريدان أن بجرى بيني وبينها ؟ » .. فقالت أمه : « شكرا ! .. »

وفي الساعة الثانية من مساء ١١ بونية ، كان اونوريه يتشاءب في الصالون ، بين أهله ، في انتظار أسرة برني ، اختيارا لا اضطرارا .. فان أحدا لم يرغمه على البقاء ، ولكنه بقي ، متظاهرا بعدم الاكتراث .. معتزما الا يتحدث الى الرجال الا قليلا ، مهملًا النساء ، لأنهن اما فوق السن التي تروق له ، او دونها .. ناشئات في جو ضاحية فيلباريزيس ، الذي لا يطيب له .. على انه لم يلبث ان رأى فجأة ثلاثة اثواب بيضاء ، نقية ، ناصعة ، جميلة ، ساحرة ، مثيرة .. ورأى الاعين الصافية ، والثغور النضرة .. ورأى الأم ، التي كانت أسمن قليلا من بنتيها ، تبدو كأخت لهما .. وكانت بسيطة ، طيبة ، لطيفة ، تفيض مشاعرها رقة واحساسا ! .. وكم كانت شديدة التأثر وهي تعلن للحاضرين نبأ مؤلما عرفه زوجها : « ان الامبراطور قد مات منذ شهر في جزيرة سانت هيلانة ! » .



مات !. نابليون !. أعظم العظماء ؟ !. يا الهى !.. متى ؟.. كيف ؟..

واقترب اونوريه منها ، وبادرها بعشرين سؤالاً.. ثم ها هو ذا قد أحس بقلبه يشقى ، ويهنأ ، لأنه اكتشف امرأة بدت له رائعة الحسن ، وانه من فمها الفباض بالطيبة والرحمة قد عرف الخاتمة القاسية للرجل الذى يحوز من دون الرجال جميعا ، على مدى العصور ، أشد إعجابه .

— آه ياسيدتى !.. انت أيضا تحبينه .. أليس كذلك ؟

— من ذا الفرنسى الصميم باسيدى الذى لا يحبه ؟ ما أحسن نطقها بهذا القول الجميل !.. وما أجمل ثمرها اذ ببتدر منه اللفظ كأنه شهد ، وكله حنان ، وكله شفقة !. وما أثبت نظرتها المطمئنة !. وما أبدع خصرها فى ذلك الحزام الحريرى المنسجمة زرقته مع زرقة عينيها !..

— سيدتى .. قولى لنا كل التفاصيل التى وقفت عليها .. أوصى بأن يدفن على ضفاف السين !.. وهل كان برتران ومونتلون معه ؟ وماذا قال وهو يقضى نحبه؟ ونسى اونوريه الزوج ، والفتاتين ، وأهله .. وحاصرها ، وجعلها تتكلم ، وراح ينظر اليها ، ويصفى .. وراح هو نفسه يتكلم ، والنار تتلظى فى قوادع ، ويتطاير شررها ! ان روحه قد أصبحت قيسا من نور ، أو شعلة من نار!.. فكان مدهشا !.. لقد أدهشها !.. فراحت تصفى اليه ، وتحلم ، بغتة ، ازاء هذا الفتى الذى فى العشرين ، الذى يحب ، بكل هذه الحرارة ، وكل هذا الشوق ، عظماء الرجال .. والنساء بلا شك !.. فأخذت ، واضطربت .. ولكنها كانت أشد منه حيطة ، فالتفت



نحو مدام بلزاك تروى ذكرياتها عن موت لويس السادس عشر ، مليكها المعزز ، ورقصت متأثرة ، وقصت متأثرة : كيف ان جلاده كان يضع قبعته على رأسه وهو يعدم الملك ، ثم ألقى بسترته الجميلة الى الشعب ، فمزقتها الوف الأيدى !.. وكان هذا يكفى اونوريه بلزاك ليدرك: أية امرأة هى ، فهى نبيلة . وتاريخها مجيد ، مادامت أعظم الاسماء قد امتزجت بحياتها . وهى تمثل عهد الملكية العائرة الخلقة بالاتفاف . دع أنها تسكن ، فى أقصى الضاحية ، قصرا يمثل خير ما فى العهد القديم . أو ليست هى نفسها ، بما طبعت عليه من رقة ودمامة ، قديرة على أن تحيى آفة الشعر فى موات القلوب ؟.. ولقد يبدو أنها تعذبت . انها لاريب غير سعيدة . ولايلوح على زوجها التالف .. فلعلها لم تحب قط .. أتراها تنتظر الحب ؟ !

وما كاد يتساءل عن هذا ، حتى غمره الخجل ، وتباعد ، وتحدث الى الفتاتين .. ولكنه لم يكذب بعد عنها ، حتى استرد ارادته ، وبعث اليها من روحه ، ووجه لأول مرة فى حياته قوى الجاذبية التى كان يؤمن منذ صباه بأنها فيه .. آه ! لقد نظرت اليه !.. ثم نظرت !.. فلم يعد يتمالك . فاتجه اليها : يحدثها ، وينصت اليها ، ويحكم من كل كلمة تفوه بها بأنها امرأة شائقة ، لا تنطق إلا عن النبالة .. وها هو ذا يحس ان القدر يقوده ، بله العناية .. أجل . انها ارادة الله تهيمن علينا ، وتنظم حياتنا ، وتهيىء لكل امرئ سبيله ، وليس لنا ازاءها من حيلة !.

واذا كان اونوريه يقنى منذ عام فى قبلباريزيس ، فلبس ذلك ليخمد ، ونام ، وينتهى .. وانما ليحب !.. وها هى ذى امرأة أحلامه ، فى ريعان الشباب ، رغم عمرها ..



ما عمرها ؟ . انه الآن يسخر من السن ! فهي موهوبة من كل جانب : من الطبيعة ، ومن المجتمع . انها هي التي يبحث عنها ، وهي التي سيكرس لها حياته ، حياة فروسية ، ملؤها : الشجاعة ، والاقدام !

ولم يكن لديه أية حجة اطلاقا للذهاب في اليوم التالي الى بيتها ، ومع ذلك ذهب . قال انه كان يتنزه ، فمر صدفة بالبيت .. فدخل ! .. فصاحت :

— اوه ! .. ان زوجي سيأسف .. لانه في باريس . فانتعش واشرق . ثم دخل ثلاثة اطفال ، فعبس .. ثم جلس .. وقال مننهذا :

— آه ! .. ياسيدتي لاشك في ان زوجك وبناتك يحبونك الحب كله !  
لقد بدأ عهد التنهدات .

وكانت مدام دي برنى ، بادية ذى بدء ، دمثة ، متلطفة ، ولكن شديدة الاعتزاز بالكرامة ، متحفظة ، متظاهرة بعدم ادراك مابه ! .. وبدلا من ان تتصايب ابتدرته بالحديث عن اولادها الكبار ، وعن بنتها المتزوجة ، وعن زوج بنتها .. وخاطبت اونوربه بلهجة أموية .. وكان لذلك خطرته ! .. فان اونوربه لم يحس قط عطف أمه عليه ، وكان يختنق بالحاجة الى من يبثه نجواه . فحدثها بصوت متهدج عن الشباب الممتلىء بالرغبات ، عن الحياة المفتقرة الى الحرارة ، عن المجتمع الذى ينكر قواه الفياضة . وبدأ تأثره لأصغائها اليه . وكان قبل قدومه قد أعد جملا وعبارات : « ان كل ما تفوهين به ياسيدتي له عندي وزنه ! .. ان أصغر لفظ منك له رنينه في قلبي ! » .. ولكنه اضطرب ، وارتج عليه ، ولاحظ في خديها ، ونحرها ، تلك البشرة الحريرية الناعمة . وكانت في ثوب من الكشمير الابيض ، ذى رسوم



فارسية ، ود لو لمسه بأصبعه ، أو ربت عليه يده ..  
وكانت فيه رائعة فنانة ، تتلأأ بهجة وهناء ..  
ثم مضى وهو أشقى ما يكون بالعود الى بيته .

وبعد أربع وعشرين ساعة حمل اليها كتبها . ثم عاد  
بعد ذلك ليسترد الكتب . واقترح ان يعطى دروسا لأصغر  
أبنائها . وكان يجيء غالبا في الصباح ، ماشيا في ندى  
المروج . فيفاجئها في غرفتها ، وقد وضعت على رأسها  
قلنسوة ( بونية ) من الموسلين ذات خلايا ، زادتها  
« غندرة » ودلألا ..

وبدأ الخدم يتهامسون .. وكانوا يرونه في المساء قادمًا  
بخطوته السريعة المضطربة ، في الساعة التي تشتد فيها  
بالمرضى الحمى ، وتبدأ فيها قلوب العاشقين بالخفقان  
وتضليل العقول .. وكان قد أتم قراءة « روسو » .  
فتأجج حيوبة وحرارة واندفاعا ..

واضطرت أخيرا الى ان تقول له بصوت مرتجف متانر:

- باصديقى ، رجاء ! .. أتقدر الأمر ؟ !

- أمر ماذا .. يا الهى ؟

- لم بعد فى وسعى ، بعد ، ان أدعك تجيء هكذا ..

- أنا ؟ .. وماذا فعلت ؟

- أيها الطفل ! .. سبحان الله ! .. اننى امرأة ..

وانت رجل ..

فلشد ما ألهته هذه الكلمات ! وكأنها قد اختارتها  
اختيارا .. والحق انه ليس غير الله تعالى يرى مايجرى  
فى قلوب البشر ، حنما يطلق عليها الحب سحبه ،  
ويقلب فيها كل شيء رأسا على عقب ! .. لعلها كانت  
تفكر مخلصه فى الذود عن نفسها ، ولكنها انقادت الى  
حنانها ، ازاء هذا الطبع الصريح الكريم المستسلم ..  
فأرادت ان تحذره ، فكشفت عن سراضطرابها ، واعترفت



بذات ضعفها .. وان مجرد لفتها نظره الى الخطر لكفيل بأن يجعله يتذوقه وتتمناه ..

تم .. يالعينى هذه المرأة !.. عينان شاحبتان ، لا يلبث انفعالها ان يصيفهما بالذهب !.. وهذا الصوت !.. ان انفاس روحها تمر فيه !.. ثم ما السبب ؟.. نعم ما السبب فى انها ، عندما اراد فى ذلك اليوم الانصراف ، قد اخذت يده لتضعها على قلبها ؟ ! يالله !.. لقد احس بحنان صدرها !.. وخرج كالنار الآكلة ، لا تسعه الدنيا .. وتسعه الكائنات من أعشاب وأحجار يردد : « انت !.. انت !.. يا حبيبتي !.. » ومن ذلك الحين اراد ان تشغل كل حياته . فسألها لقاء فى الحقول والغابات .. وتحدث بحرارة واصرار عن الصداقة ، الصداقة النقية ، البريئة ، الطاهرة ، وعن تألف الارواح .. وكان ذلك لديها برهان وجوب التسليم .

وفى الواقع انهما ، كليهما ، كانا لا يدريان الى أين المسير ، او المصير .. ولما أرهقته الى حد اليأس برفض معقول ، صاح : - حسنا !.. اذن لم يبق أمامى الا الرحيل الى الهند أو أمريكا !..

ولكنه ببقائه كان بجهل ما سوف يحصل . وكان ذلك أشد ما أترق فيها . ولم يكن لديه عن النساء أية فكرة . ولم يكن وانقا مطلقا من انها ستصير له خلية ، وكان أشد ما يكون شوقا الى ذلك . بيد انه لم يكن يظن ان هذا يتوقف عليه وحده . فقد كانت لها حقوقها على نفسها ، وكانت لها الكلمة الاخيرة ، فاذا لم تكن الكلمة كما بشتى ، انه اذن سيمضى على رأسه ضالا يائسا . وكان شبابه الباكر لا يحمله على اقناعها ، بقدر



ما كان يجعله يتأوه أمامها ، ويتألم : « انى أسألك ان  
ترحمى قليلا وتبسطى .. بعض الابانة عن السرائر! ..  
فانى أقول لك كل شيء .. أنا .. فقولى لى شيئا ..  
انت ! » لم يفاجئها : « أعلم جيدا بأنك لست سعيدة ..  
فاسمعى ! .. انى أمقت زوجك ! » .. ولم تكن ترد  
عليه قط ردا مباشرا .. كانت تهدئه : « مادمت تظهر  
نحوى كل هذا الود ، فاعمل من أجلى .. اكتب لى  
كتابا جميلا ! »

وفى اليوم التالى بعث اليها بخطاب ، سوده وبيضه  
عشر مرات ، وضمنه أشعارا ساذجة .. يحن لها  
فؤادها ..

وكان أحيانا يدخل عندها وقد تكبر وتجبر :

— سلاما سيدتى ! .. انه الشاعر الفرنسى ، والكاتب  
الشعبى « اونوريه بلزاك » ! وكانت مرغمة على ان تلقى  
ماء على ناره ، وتحتاط من سعاره :

— أتعرف انى أصبحت أخشى بناتى ؟ .. اظن انهن  
برتبن فى شيء ..

— فيم الارتياب اذن ؟ ياله من خبر! .. اذن فهناك  
شيء بيننا ؟ ! .. بالله قولى .. أى شيء هو ؟ !

وبعدها زمجر هكذا ظل مكتئبا .. فحاولت ان تغير  
مجرى الحديث ، وان كانت تعلم استحالة الكلام بعد  
ذلك فى شيء ما .. فعرضت لزواج اخته الصغرى  
لورانس ، وانها رأت أم خطيبها : امرأة نارية ! .. فبدلا  
من ان يضحك اونوريه سخط قائلا :

— الزواج له ما له وعليه ما عليه .. وليس الذين  
يلتقون فيه دائما بالذين كان ينبغى ان يلتقوا .. خذينا  
نحن مثلا .. أفلم يكن ..

فتأخذ بيده قائلة : « ايها المجنون الكبير ! » ..



فيتضايق ، ويشتد ، وينفعل : « آه لو كنت امرأة !  
ولو كنت ادعى لور ! .. » فتقول : « ارجوك ان تدعوني  
باسمى ! »

— هذا ما أفعله ! . لور . . لور دى برنى . . اذن لكان  
مسلكى يكون شيئاً آخر . . والآن وداعا . هذه آخر  
مرة أراك فيها ، لأنى أموت من رؤيتك . . لم أعد  
أستطيع أن أراك . . اننى لأكاد أتمالك من ان أقول لك  
أشياء جنونية ! . . وان أخاطبك بلا كلفة . . أواه منك !  
— أونوريه . . اليك عنى . . ابتعد ! .

— كلا ! انى باق ! . . وانى سأعود ! . . انك أنت  
حياتى ! وانى لأحس القدرة على عمل أشياء عظيمة من  
أجلك . . يالور !  
— اجلس بربك !

— لله ما أروع محاسنك ! ثلاثون عاما ، لا أكثر !  
كيف بالله يمكنك ان ترفض قطف التفاحة التى اضاعت  
أبويك الاولين (١) ! . .

— أنت مخبول ! ماذا تقول ! . . اذهب عنى ! . انك  
تخجلنى ! . . يا للجرأة ! . . انك لم تحدثنى قط هكذا !  
انى لا أريد ان تأتى بعد الآن . . أسمع انت . . ولا تأت  
غدا على أى حال ، قلن أستقبلك غدا !

— غدا سأذهب الى باريس . . فتأتين اليها !  
— كلا !

— سأنتظرك عند التياترو الفرنسى !

— كلا ، مطلقا ! انك تميتنى من الخوف . . ان زوجى  
لا يلبث ان يدخل !

---

(١) قصد آدم وحواء وخروجهما من الجنة بعد اكل التفاحة  
الحرمة !



- يا حبذا !.. انى اكرهه ! وساقول له ذلك ..  
هاتى يدك ..

- دعنى ، سألتك بالله !.. ان بناتى لا يلبثن ان  
يسمعنك !..

- انى احب بناتك !.. ولكنهن بحاجة الى ظهر  
الحياة . وانت تعلمين اننى سساكون ذلك الظهير  
والسند .. عندما تصبحين لى !..

- ماذا يقول ؟ ! ماذا أصابه ؟ !

- الى غد !.. عند التياترو الفرنسى !  
- دعنى !..

- لو .. يا حبيبتى لور .. انت علوية ! وكما يقول  
روسو عن عشيقته العزيزة : « ان لك فما على مقياس  
فمى !.. » ..

ولقد قاومت مدام دى برنى الحنون اكثر مما قاومت  
مدام دى فarnس صاحبة جان جاك روسو . فليشهد  
لها الخلف بأنها جاهدت طويلا وقاومت هذا الحب  
المستعر ! غير ان الحب له قوانين ثلاثة : اما ان تمنح  
ونستسلم ، واما ان نهرب من اليوم الاول ، واما ان  
نموت به .. وهذه المرأة كانت قد أضاعت حياتها .  
وكان يتضوع منها اغراء خريف جميل . وأحست الزهو  
بعاشق كهذا فى ريق الشباب . فلتحكم عليها السماء  
وحدها ، فهذا شأنها ، وليس شأن الارض وأهلها .

وأسلمت نفسها ، ذات مساء ، فى فصل الربيع ،  
بعد موعدين جنونيين ، فى حديقتهما ، بعد وعود حارة  
متهورة ، بعد قبلات مسعورة مخبولة .. فى صيحة  
مدهشة : « انى سعيدة .. انى أعبدك !.. » والآن  
استطيع ان أموت : فقد منحت أخيرا الهناء !..

وسيكتب اونوريه فيما بعد ، هذه العبارة : « ليس



مثل الحب الاخير لامرأة ، حب يرضى الرجل ويكفيه ،  
أول عهده بالحب !.. » ..

وها أنت ذا ، يا اونوريه ، قد تلقيت ، فى ذلك  
المساء ، لوردى برنى ، العهد الشائق بأن تكون لك !..  
وبعد أسبوع تحزم ثيابك وكنبك فى كيس سفر ، وتستقل  
عند الفجر عربة البريد الى باريس ، ومنها الى بلدة  
« بايو » ، حيث تسكن أختك المتزوجة !.. وكان عذرك  
نافها : « العمل الكثير .. فقر الدم .. الحاجة الى  
هواء النورماندى » ..

ولو ان شئون الحب تهم رجلا مثل مسيو بلزاك  
الوالد ، لساوره الشك عندما رأى ، فى غياب ولده ،  
مدام دى برنى تمشى وحيدة ، شاحبة ، مستوحشة ،  
فى بوب مهمل ، تبكى بدموع من دم !..

ولكن لعل هذا ما جعل العاطفة بعد ذلك يتأجج  
لهيبها ويزداد سعيها .. فعاد اونوريه من « بايو »  
يتغرز صحة ، وصفاء ، وحرارة قلب ، كله للحب ..  
فهرع ، دون حيلة ، الى بيتها .. فصاحت به دون  
موجدة عليه :

— ماذا ؟.. ماذا فعلت لك ؟ وماذا جرى ؟

فقبلها فى جبينها ، وفى شفتيها ، وفى صدرها العزيز ،  
وقبل يديها وركبتيها :

— أنا عشيقان مدى الحياة !

فلم تعد بحاجة الى تفسير لغيابه عنها وهجره اياها  
منذ أسبوع الحب الاول ..

أما هو فلما بعد عنها فكر فيها ، ورأى انه بملك  
خليلة فريدة ، تعبده عبادة . ولما عاد اليها زاد بذلك  
اقتناعا . وأراد — اعترافا بجميلها — ان يرفى ذروة  
المجد ، ليشكرها ويغمرها بالآلاء ولائها له من وضع كتاب



جميل . وسوف يضعه . وقد أحس انه الآن غنى غنى  
طائلا بالتأثرات والعواطف الجامحات !..

واذا كانت هى شديدة الهوى ، فقد كان هواه هو  
بغير حساب ..

- يا حبيبتي .. لو انك مضيت فى مقاومة الهناء لربما  
قضيت فعلا من الحرمان !.. أما أنا ، فلم أكن بعد  
قد عشت !.. وقد رددت عن قلبى دائما نزعاته  
الكريمة . حتى جئت انت فأنقذنى . والآن كل ارادنى  
مسخرة لعاطفتى . وقد نضجت ، وكبرت . وأريد ان  
اعمل عملا قيما .. فهل قرأت كتابى « كرومويل » ؟ ..  
وهل أحببته ؟

- لا ، لا اظن .. انه انت الذى أحب ! وانت لست  
فى قصتك « كرومويل » !

- انت ملك !.. لقد وجدت الكلمة التى لم يعرف  
احد كيف يقولها لى !.. اننى لم أخلق لأضع مآسى  
تمثيلية ، وإنما روايات وقصصا ، سأكون « ولتر سكوت »  
فرنسا . واليك يرجع نجاح حياتى الادبية . فقد بعث  
قصتى الاولى بثمانمئة فرنك ( ٣٢ جنيها ) ، والثانية  
بألف وثلاثمئة . فهل تدرين بكم بعث الثالثة ؟

- قل واسرع !

- ألفان !..

- انى أعبدك !

- ولا البت ان أعود من باريس رافع الرأس ، ممثلىء  
الوفاض !.. لا يلبث ذلك الفتى اونوريه ان يصبح اعظم  
المؤلفين انتاجا وأشهرهم طرا !..

ثم هنا نفسه بأنه لم يقبل أبدا « وظيفة » ! الوظيفة  
الصفيرة المروعة التى تقتل صاحبها ، فى ستة أشهر ،



جسما وروحا !.. وكم من موتى على هذه الشاكلة  
يفص بهم المجتمع !

فوافقته مدام دى برنى ، وأبدت إعجابها به . ثم  
راحت تطمئنه من جهة بناتها وزوجها وخدمها ، لأن  
الادوار قد انعكست !.. قالت :

— لا ، لا ، لا أحد يشك أو يرتاب .. انها مخيلتك  
التي تشتغل !.. نم .. اذا شك أحد ، فلا بد من  
تجريده من سلاحه بما نظهره من تبات واطمئنان ..  
فتعال متى شئت . ولا تفكر وانت قادم الا فى ..  
ولتطمئن قلبا ، ولتقر عينا !..

وقد بذلت ما فى طاقتها لتبعد « العذال » ، وتمنع  
التبوهات ، وترد بعطف لا حد له على نلميحات مدام  
بلزاك ، التي اظهرت وقوفها على علاقة ابنها بـ مدام دى  
برنى .. ولكن هل هى نفسها امرأة متبتلة ، فاتنة ،  
صالحة ؟.. ان هنرى — شقيق اونوريه — لا يشبه أباه  
عن قرب أو بعد .. دع ان الزواج فى ذلك العصر كان  
لايقوم الا على المصلحة والمنفعة ..

وكأنى بـ مدام دى برنى فى نظرتها الى مدام بلزاك تقول  
لها : « احكمى على اذا نسئت ، ولكن احكمى كذلك على  
نفسك ! » ..

ولم تكن أمه فى امتعاضها من هذه العلاقة الا متمشية  
مع طبيعتها النفور ، تلك الطبيعة التي جعلتها تتشكك  
فى مقدرة اونوريه على الكتابة ، فى حين كانت مدام دى  
برنى تعيش به ، وتمنحه من روحها ، وهو الذى أحيا  
موات هذا الروح ، فكيف تضن عليه بالحب ؟.. انها  
الآن قد جعلته يحب فيها حتى ما فى جسمها من عيوب !  
وهو أيضا ، بعدما هرب منها ، غداة عهد الغرام بينهما ،  
قد عاد يهيم بروحها النقية ، الوضاعة ، الفتية ، التي



ليست فيها تجاعيد ، كتلك التجاعيد القليلة التي  
ارتسمت على جسدها الفض من أثر الأيام المضيئة .  
وقد أحب فيها أونوريه حتى آتار هذا الضنى القدسي  
عنده ، فجثا أمامه : يتعبد ، ويتعبد ! ..

وكانت فعلا امرأة على سجيته ، لا أثر للصنعة فيها  
أو التحذلق ، ولا النفعية ، لا تصفى لغير حساسيتها  
الرشيدة .. وكان عقلها نيرا ، فقاده ، وسددن خطاه ،  
وجعلته يتقبل الآيات من فمها الذي كان جميلا ، لا ينطق  
إلا بالحق ، وكان الحق منه مقبولا .. كانت امرأة على  
طبيعتها الشائقة التي تجعلها تمزج له المديح الحار بالنقد  
الحنون :

- أنك أشبه ماتكون ببيضة النسر التي فقسست تحت  
الأوز ! .. آه ! أنى أعرف أسرتك .. وأستثنى أبالك ..  
أما أمك فلم تفهمك .. فضلا عن أنها لا ترى قط نحائف  
الأشياء الرفيعة التي تكونك .. وهى منقوعة فى أنانيته  
وكبريائها ونفورها ، ولو أسرفت فى هذا قليلا لقتلتك ..  
وأما أخواتك ..

- لا تذكرى لور بالشر ! ..

- أنها بنت أمها ! .. وسوف ترى فى خلال عشرين  
عاما ! .. وقصارى القول أن أسرتك قد مسختك . وقد  
جهلت ما فىك من إنعام الخير ، تلك التى تنظم شعر  
الحياة الصميمة فى مجامع القلب .. وتكون عادات عريقة  
من اللياقة وأدب المجتمع .. فإذا سمحت لى يا حبيبتى ،  
أنت يا من أحبه وأريده كاملا ، أظهرتك على أشياء  
صغيرة ..

- آه ! .. رجاء اليك ! .. أتوسل اليك ! .. أنك أنت  
أمى .. أمه ! ..

ولم يجرحه أى نقد من نقاداتها . فقد كان يعوزه ذلك



الصقل ، كان متعطشا اليه ، ليكمل به حياته .  
ورأى جليا الفرق بين خليلته وبين أسرتة .. هذه  
أمه ، التي مع ذلك يحبها وتحبه ، تنزل الى باريس ،  
وتعود منها ببكرة خيط ! .. وهذا أبوه يفلق على نفسه  
غرفته ، فلا يرى ، ولا يرى ، ليلتهم تاريخ الصين في  
ثلاثة عشر مجلدا ! ..

وهذه خليلته تثقفه وتعلمه كيف يكون هو نفسه ،  
على حقيقته ، وانما من طراز رفيع :

— ان الرجل المتعلم لا يختلف عن غير المتعلم الا بفروق  
قد تكون طفيفة ، ولكنها جوهرية في الحياه . انظر الى  
امراة من الطبقة الراقية في مرقص . فهي معتادة ما  
حولها ، لا تشهد على محياها ذلك الفرح الساذج الذي  
تبديه بائعة او مستخدمة يندر غشيانها الحفلات  
الكبرى .. وهذه توافه ، ولكنها لا تحول دون الهناء ،  
بل تكسبه رفة ، وتضفي عليه أناقة .

وهكذا كانت تصقله ، وتروضه ، وتلطف من حديثه ،  
وتفرس فيه الافكار الرقيقة ، التي سوف تنتضر ، فيما  
بعد ، وتتحول زهورا عجيبة . فأحس بالفنى الروحي  
الذي تغدقه عليه ، وعرف فضلها ، وشكر جميلها بزياده  
التعلق بها ..

وحين يحس الظما الى مثل أعلى ، تتحول هذه المرأة ،  
التي حرمت مدى أربعين عاما من السعادة .. الى  
متصوفة نقية :

— يا حبيبي الكبير ! اني واثقة من ان علاقتنا قد  
نسجت على أيدي القديسين !  
فيؤمن على كلامها ، وينظر الى محياها بقداسة كما  
لو كان محرابه .

على ان الزمن هو القاتل الاعظم ، يبلى العواطف كما



يبلى الابدان . وكانت أسرة بلزاك قد عادت لتقضى عاما في باريس . . . وهناك ربطت اونوريه صلات ببعض الشبان النجباء ، وتعلق خاصة بأحدهم «توماسي» ، وكان من المتصوفين المتعلقين بالآخرة ، الباحثين عن انسانية كاملة ، فكان لا يكف عن صرف بلزاك عن كتابة القصص ، دالا اياه بصوت محموم على خطورة الحياة ورهبتها ، وان القلب لا يخضب ويمر الابلخلق والدين :  
- صدقنى ، يا صديقى العزيز ، صدقنى ! . . . عد الى ايمانك وأحبب معتقدانك ، وقوها ، ودعمها تدعيما ، لأنها هى وحدها التى تكفل لك مستقبلا ساميا !

فأحسن اونوريه ، وهو يسمع هذا الوعظ والارشاد ، انه يعود الى افكاره الصالحة ، التى كانت أثرة عنده في سنه الخامسة عشرة ، عندما كان يتردد على رغبته على مدرسة مسيو لبيتر . فباح لدام دى برنى بما يخالجه ، فسخرت منه ، لأنها كانت من سلالة لويس السادس عشر ومارى انطوانيت ، متحررة على مثالهما من تعاليم الرهبنة ، ساخطة على ذلك المذهب الذى أراد التحكم فى الجامعة ، والاستبداد بدروس السوربون ، وجعل السيادة العليا للكنيسة كما كان فى القرون الوسطى ! وأضافت :

- يا للشناعة ! . . . لشد ما أشعر بالاشمئزاز من هؤلاء الناس ! . . . سأذهب هذا المساء لأشبهه روائية « طرطوف » (١) ، وسأصفق حتى أبلى قفازى ! . . .  
- انى أدرك ماترمين اليه ، ولكن الحريات تذهب بنا وتضيعنا . ان المجتمع بحاجة الى اطار ، فلا بد لنا من

(١) هى قصة مولير الخالدة التى ترجمها صاحب هذا الكتاب منذ بضع سنوات الى العربية يطلب من وزارة المعارف العمومية التى نشرتها وقررتها لمدارسها . ثم اخرجتها الفرقة القومية .



نظام ، وقادة ، ودرجات .. وليست المسألة مسألة  
أذواق شخصية وأهواء .. بل ان هذه ينبغي توضيحيتها  
لننظر الى أبعد ، وننظر الى أعلى .

ونشر في هذا الرأي ، سرا ، كتيباً لم يوقعه باسمه .  
وهكذا لم تعد خليلته العزيزة الحاكمة عليه بأمرها ،  
المستبدة بعقله على هواها : ان خلافا واحدا قد يجرح  
الهناءة . انها عاصفة القلب تهب ، كما في الجوالصحو  
عندما تنذر بانقلابه سحابة سوداء ..

ولما عادت أسرة بلزاك الى فيلباريزيس ، استأجر  
اونوريه غرفة على خطوتين من حديقة اللكسمبورج في  
ركن شارع « تورنون » .. وكانت مدام دي برني الحنون  
تجئ ، ما استطاعت ، من قريتها ، في مركبة صغيرة ،  
لتراه ، و « تعطيه الحب » ، كما كانت تقول وهي تدله  
بنظراتها ..

وكان ما زال سعيدا الى حد الهوس باستقبالها  
وسماعها تحدثه عن كفايته ومستقبله حديثا جذابا ،  
غير انه كان يتألم من حقارة غرفته ، ومن عجزه عن  
أخذها في مركبة الى التياترو ، وانه لا يستطيع ان ينفق  
عليها مائتي فرنك في ليلة .. وا أسفا ! .. ان الكتب  
التي نشرها لم تنجح ! .. لم ينجح أى من كتبه الثلاثة  
الآخرة ، ولم تحمل اليه مالا ، وقد كان يؤكد انه من  
دون المال لا هناء ولا حبا مقيما . وهكذا كان اذا ما  
رآها : آية في الجمال ، والفتنة ، تتلأل في ثيابها ذات  
الذوق السليم ، ثم رأى نفسه في بنطلون من الخاكي  
الاصفر وصديريّة قصيرة جدا .. حاول عبثا ان يوهم  
النفس بأن هذا كله نافلة . فقد نظر الى المرأة وظل  
شقيا .. وهو شقاء قهمنه ، وابتسمت منه ، وحاولت  
ان تعزيه ، وحملت اليه يوما بنطلونا أبيض أنيقا من



الباليه رويال .. فاحمر وجهه ، لا ندرى أمن خجل أم غبطة ؟ .. وبعد ان توسلت اليه ، لبسه ، وخرج معها . ولكنهما ، يعد عشرين خطوة ، قابلا شابين انيقين ، فقال ساخطا :

- كيف يفعلون لتكون قمصانهم بهذا البياض الناصع ؟ !  
- يا عزيزى المسكين ، اونوريه الحبيب ، المتوحش ، العجيب ! .. ولماذا لا تسرح شعرك وتصفره ، انت ايضا ، كهؤلاء الشبان ؟ .. انك اذن تكون خلقا شادا !  
ثم وجهته نحو مصيره وغابته : ان يبلغ ذروة المجد بالكتب الجميلة :

- انك قد لاشريك لك ! .. انت تعرف أشياء لا يدري أحدا أين ومتى عرفتھا ! .. فاعمل ! .. اعمل ! .. ولا تخش شيئا .. انك ستصبح أعظم أبناء جيلك !

وتتوالى الاحاديث المعسولة بغرفة شارع دى نورنون بعد القبلات الهائمة :

- اذا أعطانى الله عمرا ، واذا ظلمت انت أيتها المرأة الشائقة تؤيدننى بروح من حبك ، فانى حقا سأفعل ما ذكرت ، وأصور للدنيا الانسان ألوانا فى عاداته ونفسه ، كما يفسره العالم بعرض القوانين الطبيعية وترتيب الانواع الحيوانية ! .

وما كان أبدعه متكلمًا اذ ذاك ، بوجهه الذى كان لا يزال نجبلا ، وان كانت وجنتاه بلون الدم ، وشعره الاسود الغزير الملقى الى الخلف ، كما لو كانت ريح العبقريّة قد نفخت فيه .. فقالت متحمسة :

- ما أجل ما تنطق به ، كأنه وحى يوحى ! .. وبرغم بنظرونك المصنوع من قطن أصفر ، وقميصك البفتة ، وحذائك الضخم ، فانى أعبدك ، يا حبيبى اونوريه ! ..  
وانى أحذر ما تريد ان تعمل . وسوف تشغل المرأة فى



عملك مكانا لا حد له ، مكانا عليا !.. وستكون أعظم من  
ولترسكوت الذى تتشابه بطلاته جميعا فى أداء الواجب،  
دون الهوى !.. مسكينات !.. يا للنفاق !.. ونحن  
نعانى مثل هذا فى فرنسا . ( أنعرف اننى أمس صفقت  
لرواية طرطوف ؟ ) . وفى وسعك ان ترسم لوحة لكل  
تاريخنا .. دراسة أخلاق ، كما تقول ، ودراسة نساء ،  
جيلا بعد جيل !

وهو فى هذه المرة بجدها قد أوجت اليه بآية مستقبله  
الفكرى .. فيمجدها .. فتقبله قسلات مجنونة ،  
ألوانا ، وأشكالا : « انك تعرف المرأة .. والفضـل  
لحبـيبـتك لور .. ولعلك ستكون عظيما على يدى .. من  
بدرى ؟ ! » .. فيقول : « سأكون عظيما من أجلك ..  
أتريدى ؟ .. »

وجد ، وولع .. ولكن اونوريه مازال ضيق الصدر،  
فارغ الصبر .. لا مجد ولا مال !.. لا شيء غير ذلك  
المطعم الصغير عند « الأم جيرار » حيث يتناول  
وجبة البطاطس التى لا تتغير .. فحس اليساس  
والقنوط ، هو الذى بدأ حياته بوضع كتاب « فى  
الارادة » .. وينظر من بعد الى قصر أعضاء مجلس  
فرنسا الاعلى ، ويتساءل : « أفلا يكون استعدادى  
سياسيا ؟ » .. ثم بجول فى الصحف الصغيرة التى  
يبعث لها بمقالات قصيرة فيها لمحات فكره الخاطف كسنا  
البرق ..

وفى موسم ارتبائه هذا ينصرف فى فرساي بامرأة  
خطرة ، أخطر النساء على سلام قلب شاب : « مدام  
دابرانتيس » ، عقيلة المارشال « جونو » . وقد أوتيت  
كل ما يهيج بلابله ويثير ثأثره : كان سحر ماضيها أكثر  
من سحر حاضرها . يالها من هرة غاوية عندما تروى



له بعينها البراقتين : « لقد قبلنى الامبراطور فى الجبين » !.. ان الشيطان كان مرتديا جسدها ، منطويا فى روحها . وكانت تتلون ألوانا ، فهى أحيانا سوداوية المزاج ، متأللة ، حزينة ، ساهمة .. وأحيانا شديدة الاندفاع ، متفطرسة ، ساحرة ، آمرة .. تبسدى استسلاما يبعث الهوس بها .. وكان اونوريه يعلم ان نابليون قد اشتهاها . فهل نالها ؟.. آه انها لم تبذل جهدا كبيرا لتداهنه ونطريه .. فقد أعجبها .. كان فعلا يتفجر حيوية وحرارة وطموحا .. قالت له : « ان مجرد نظرتى اليك تثيرنى ! » .. وحدثته عن « رأسه السماوى » .. وسمعها ذات مساء تقول له كلمات ستعود بعد سنوات الى أذنيه كلما تصادم الحب بالفضيلة وتعثر بالنبل :

— اننى صدقتك على مدى الايام . و.. خليلتك .. متى شئت !..

ولما عرفت لوردى برنى انه يلقاها ، قلقت ، وسألت : « اتبدو عليها سنوها الاربعون ؟ » .. ثم تضبط غلافها ، وتقول فى قلق : « ماذا عساها تكتب اليك ؟ » فيرفض اونوريه ان يطلعها على الخطاب . وتعتريه رجفة وآلم .. ولكن المخيلة تسعفه ببرد مقبول :

— انها هى التى لم تسمح لى !..

وعندما تتمالك مدام دى برنى تعود مرة اخرى الى رحمة العقل وكرامة القلب :

— حسنا .. وانى أحترم ما فى شسبابك من رقة ومداراة .. ولكنها لا تلبث ان تذوى ونفنى .. ولا يبقى لك سواى ..

فكيف لم يكن يرد على مثل هذه الاقوال بالندم والكفارة ؟.. ذلك ان تلك المفامرة القصيرة ، مع امرأة



ثانية لم تكن أيضا شابة ، لم تزده الا اضطرابا وتبليلا ..  
حتى انه عندما اجتمع بعد ذلك بمدام دي برنى في غرفته  
والفاها قد نسيت ، واغتفرت ، وعطفت ، وتفانت فيه ،  
وفنيت ، بكى .. وما كان يكاؤه لمجرد خيانتها اياها ..  
كان شاعرا بتفاهة مقامرته مع مدام دابرانتييس ، متألما  
مما أحاط بها من فقر ودس .. كم من رغبات كظيمة  
مستحيلة تتخبط بين ضلوعه ! كم من أحلام ذهبية  
تبددت ! .. انه في سنه الباكورة هذه كان يعيش بين  
أطلال بالية ! أسرعان ما تقص أجنحة روحه الشعرية  
وتطوى في أحضان عجائز قبلنسـا تحلق في حب فتى  
سحري ؟ ! .. ومع ذلك فهو يلقي ، في المقهى ، وفي دور  
التمثيل ، وفي إدارات الصحف ، على أذرع رفقاءه  
الشبان ، نساء في زهرة العشرين ، نضرات ، صافيات  
كسماء الربيع .. وشهد ، وفؤاده يتمزق ، بأن « أصفى  
النفوس وأغناها لا تكفى لارضاء رغباتنا العديدة الدانية  
وتلك التى أحبها قد فقدت هذه النضارة ، وأضاعت  
شباب الجسد الذى لا يعوض . فيا للأسف الدامى  
الدائم ! ويا للهوى الذى لا يهب الا للذات اليمية ! .. وها  
هى ذى تناديه :

— انت ينبوع حياتى ! فهى مستمدة منك !  
ويحاول عبثا ان ينادى أشباحه وأوهامه لتسعه  
بمثل صيحتها .

وحين تنصرف من عنده داعية اياه للمرة العاشرة ان  
يريد وداعه حنانا ، تلحظ اكتئابه ، وتتنهد قائلة :  
— انى أثقل عليك ! .. انى أحس ذلك ! .. وأعرفه ! ..  
ولكن حبى لك فوق الطاقة ! . فابحث عن واحدة  
أخرى ، وعندئذ أخلى لها مكانى . وأصبح لك أما ، بكل  
تفانى الأم ، وكل محبة الأم ! ..



وكان فعلا قد دعاها : « اماه » ، في انفعالات لوعته  
لاولى .

يالها من مخلوقة ، معبودة ، خليفة بالعبادة .. كان  
يمكن ان يكون ولدها !..  
وا شقوتاه !..

ان الحب هو حاجة مضية تمتزج فيها نداءات  
الروح واحتياجات البدن . وليست البقية الا سفسطة .  
وعلى الرغم من نغمى هذا اللقاء بامرأة نفتحت على بديها  
أنضج أفكاره ، فقد ظل شاعرا بأنه تمنى الحب العظيم ،  
الحب المعجز ، العجيب ، الكامل ، الذى يخيل  
لصاحبه انه يلامس الرفيق الاعلى ..

وقد ظل مضمونا عليه بهذا الحب ، وظل من هذا  
الحب محروما ..



في ذات صباح اتخذ قرارا خطيرا : اعتزم ، لكي ينسى شقوة الحب ، أن يصير غنيا . وأحس بفكره يصفو ، وأخذ يقول لنفسه : ان الثراء لمن أوتي من النبوغ حظا قليلا يمكن كسبه بجرة قلم ! والارادة تكفي . وحتى الآن قد رغبت فيه ، ولم أرد . أما الآن فاني أريده ، وعلى ذلك سيكون لي ، وسيكون سريعا ، لأن ورائي بعد ذلك مشاغل أخرى . . أريد أن أدخل ميدان الاعمال ، دخولا رنانا ، ولست أريد صفائر الامور ، بل كبائرها . والاعمال في حاجة الى الشعر ، كالآداب والفنون سواء بسواء . لا بد من الابتكار والخلق ، وسوف أبتكر وأخلق . وقبل مرور عامين ، سأكون ثريا . . !

ولما أعلن مدام دي برني عزمه على اقتحام ميدان الاعمال ، سألته :

- ولكن أى نوع منها تنوى أن تزاول ؟

- لست أدري بعد . . ففي ميدان الابداع متسع للجميع !

- وكتبك ؟

- انها تكتب في باطنى . . وتكتب من دون عكوفى عليها ، أو تفكرى فيها . قد يلوح على اننى اضيع



وقتي ، في حين اني اكسبه . فلا بد من أن نبدأ فنحيا ،  
قبل أن نكتب الحياة . ولم يبدأ مولير آياته الا في  
من الاربعين . فقد شغل بادئا بأن يكون رجلا . وفي  
سعيي الى الفنى في وقت قصير سأحشـو جعبتى  
بالملاحظات التى تنفعنى فى كتيبى . ولما كنت لا أظن انى  
سأموت فتيا ، فأمامى سسنون طيبة طويلة لأفوز فى  
الادب فوزى فى التجارة !

وكانت له طريقة لا تخيب فى تحميل كل ما يعرض  
له . وكانت هى تحب الجمال ، فصدقت كل ما قال ..  
والدهش انه بعد ذلك بقليل وفق الى تجارة ، ولم يلبث  
أن حصل على موافقة أسرته التى سرها منه أن يتخلى  
عن صناعة الادب غير المجدية .. اللهم الا اخته الصغرى  
لورانس ، فهى التى تشككت :

— انى لا أراك تبيع ، وتشرى ..

فسألها غاضبا :

— ولماذا ؟

— ذلك انك طيب القلب .. موفور الاستقامة ..  
فهز كتفيه . لم تكن له تلك الفطرة الدقيقة التى  
آتاها الله النساء الكريمات المنبت ، اللواتى يعرفن انه  
لابد فى الحياة من أسلحة الدفاع دوما .. وألقى بنفسه  
فى غمار عملية طبع ونشر بدت له سليمة ثمرة ..

أن يطبع « مولير » و « لافونتين » ، وأن يطبع كلا  
منهما فى مجلد مصور ، سهل التناول .. اليس هذا  
دينا واجب الوفاء نحو عظماء الرجال هؤلاء ؟ .. فأقرضه  
المال صديق يدعى مسيو « داسوتفيليه » ، وحذت  
حدوه مدام دى برنى . ومضت ستة أشهر فى : عمل ،  
وجرى فى باريس ، ورحلات الى بلدة آلنسون حيث كان  
يسكن الحفار . ثم خرجت آخر الامر الكتب . وكان



ثمن النسخة منها « بنتو » ( نحو الجنيه ) ..  
بيد أن أحدا من الناس لم يتأثر بهذه الهدية ! فبيعت  
عشر نسخ . وتمخضت العملية عن خسارة مروعة ،  
هى ضياع خمسمائة وألف فرنك ! ..

فبدلاً من أن تسخط مدام دي برنى ، وتأسف على  
مالها ، زعمت أنها وجدت حلاً . فقد علمت بأن مطبعة  
مطروحة للبيع بشارع « ماريه » سان جرمان ..  
قالت :

— اشترها ! .. فلا تبقى تحت رحمة الغير . انهم  
هم الذين يقتلونك ، ويمسحون بك الأرض ! .. فلا بد من  
أن تكون سيد نفسك ، وولى أمرك .. وعند ذلك تبسط  
سلطانك ، وتنجح ، أما الخسارة الاليمة التى خسرتها ..  
— آه ! .. أتظنين انها تشغل بالى ؟ .. ضعى يلك  
هنا ، على قلبى ، لتحسى ارادتى وعزمى .. انى واثق  
بنفسى .. ونصيحتك قيمة .. وها أنت ذى ، مرة  
أخرى ، تنقذيننى ! ..

وكانت المطبعة المعروضة للبيع على خطوتين من  
السين ، وراء المجمع العلمى ، فى حارة مظلمة ، مثلجة ،  
تقبض الصدر جذرانها العالية الخالية من النوافذ ،  
وان كانت تتصاعد منها — كما لو كانت قبراً — ذكريات  
مثيرة ! .. الشاعر راسين مات هنا .. وأدريين لكوفريير  
المثلة التراجيدية العظيمة ، أجمل غوانى عصرها ،  
عاشت هنا .. لشد ما نرى بلزاك راضياً عن العمل فى  
هذا المكان .. فالعمل هنا — فى عينيه — هو بمثابة  
السير فى أثر التاريخ ..

أما الصنعة ، فيالها من صنعة ! .. لسوف  
يحدقها .. ثم يالها من فكرة : أن يطبع كتبه بنفسه ،  
ياله من حلم قد تحقق بعد بضعة عشر عاماً .. بالذات



المصير الاسنى ! .. انه سيثرى وهو فى خدمة الفكر! ..  
ولكن لابد قبل التحصيل والاختزان من الدفع وشراء  
الكنز ! .. وكان المسيو بلزاك الأب ، مازال يجرى  
على ولده اونوريه مرتب الالف وخمسماية فرنك سنويا ،  
فرضى بأن يعطيه كل نصيبه فى تركة المستقبل ويقطع  
المرتب . ولكن المبلغ لم يكف ، فدفعت الباقي مدام  
دى برنى .. فبلغ منه الانفعال والتأثر بوفائها حد  
البكاء ، وقال لنفسه : « لشد ما تحبنى ! .. ما هذه  
امراة ، ان هى الا ملك كريم ! .. وانى احيانا لتخالجنى  
من نحوها أفكار مروعة .. كيف يارب افعل لطرد هذه  
الفكر ؟ ! »

وكذلك ساعدته فى الحصول على رخصة طابع ..  
وذلك بفضل زوجها المسيو دى برنى ، المستشار الملكى ،  
الذى وصفه اونوريه بأنه « قاض ، وموظف ، ورجل  
مفقوت » .. وخرجت الرخصة بعد ثلاثة أشهر ، وهو  
يكفر ، ويأكل بعضه ، من نفاد صبره .. وأخيرا ، دخل  
ميدان الاعمال ، كمن يجرد تجريدة !

وفى ٤ يونية ١٨٢٧ تسلم مطبعته كالفازى الفاتح .  
ومع ذلك لم تكن هذه خاتمة النضال . انها بداية المعركة  
الكبرى فى سبيل المال !

ولم يكن وحده فى ذلك الشوط الى الثروة . فقد  
اتخذ شريكا ، ولكنه سجل فى العقد : « يحتفظ المسيو  
بلزاك لنفسه بالحسابات » .. وربط نفسه كالثور فى  
الطاحون ..

وفى حجرتين حقيرتين ، ضيقتين ، شنيعتين ، ستبدا  
حياته منذ الآن ، على مكتب مغطى بالكرتون الاخضر ،  
وغرفة ذات خدر ، حجب بنسيج رقيق أزرق .. وظل  
فى المكتب يعمل ، ويدرس ، ويحقق دمه ويفور ..



وخدع النفس وخانها في وقت واحد بثلاثة عوامل :  
أولها الكبرياء ، وثانيها السذاجة ، وثالثها الخيال ..  
وقد ضاق صدره من التوصيات الأولى .. أو لم يبدأ  
بطبع نشرة عن « حيوب القوة وإطالة العمر - صيدنى  
٧٧ شارع سانت انطوان » ؟ فكان يسخط ويلعن لضياع  
الوقت في مثل هذا ! .. وكان شريكه ينظر اليه ولا  
يفهم ! ..

وعرض له بعد ذلك أن يطبع قصة « Cing - Mars »  
التاريخية للشاعر الشهير دى فينى . وكانت هذه  
القصة لا تعجبه .. فتجهم للمؤلف الذى سخط عليه  
بدوره ، وراه رجلا لا كياسة فيه ، وراه ثرئارا ! ..  
في حين كان بلزاك ينحني على جامعى الحروف ويوصيهم :  
- لنخلص من هذا الكتاب الرديء ! ولنصرف  
عنه الى شيء آخر !

انه قصة سخيفة يؤيد فيها المؤلف رجلا خائنا ضد  
السلطات العامة .. ومن غير السلطات لا تكون هناك  
دولة ! ..

وكانت له في الدولة نظرياته ، اما في المطبعة فلا ..  
كان يبتكر . لم يكن يعرف شيئا عن الاحوال التى تحيط  
بعمله ، ولم يلبث العملاء أن تبينوا ذلك . كما فطنوا  
الى انه كذلك شاب حساس طيب القلب . فأذاعوا ذلك  
فيما بينهم وتناقلوه ، وهرعوا كالقطط الجائعة  
ليستغلوه ، جماعات وفرادى .. وكان ذلك سهلا ،  
فقد كانت له نفس نبيلة غير أهل لآلة تجارة . وكان  
عاجزا عن النزول بقلبه ليتجرد للحساب الدقيق ، وبدلا  
من أن يتكلم بجفاء ، ويقدر الصفائر ، ويحسب حساب  
الناقلة ، وينظر الى المليم والدائق ، كان يلبي نداء  
العواطف الكريمة الفياضة .. فاذا اكتشف سارقا



نهره قبل أن يدفع له أجره .. ثم لا يلبث أن يقول :  
« لقد أذلتته .. وهذا يكفي ! » .. لم يكن يناضل  
بقبضتيه . كان يحكم بروحه ، وكان شفيقا . وكانت  
من ورائه عصابة من الفجرة ، لا تتخرج من استغلاله  
ونهبه تحت ستار أنهم « عملاء شرفاء » ! .. وكان نبيا  
جدا ، والنباهة الفاتكة شر محتوم في الاشغال . كان  
يفهم الرذائل كالفضائل . وكان يعالجها كما يعالج  
الطبيب الداء . ولم يحمل قط حقدا . كان عالما أشتعل  
رأسه وطاح في معمل المطبعة .. ولم يكن طابعا . لم  
يكن يعرف كيف يناقش ويساوم . لم يكن يعرف كيف  
يحسب ليكسب .. وبدا هذا المركز مجديا لا يدر عليه  
رزقا ، الا الرزق الادبي الذي يحصله من المناقشات  
في الذمة والامانة ! .. ولم يكن ذلك كله ليكسبه مالا ،  
فما بالك بالغنى الذي زعم انه أقرب اليه من جبل الوريد؟  
وكانت مدام دي برنى تجيء منذ عام كل يوم لزيارته  
في الغرفة الزرقاء ، وسرعان ما أدركت انه لن يكون  
رجل أعمال قويا قديرا الا في الخيال .. ولكنها كانت هي  
نفسها لا تفهم في الحياة شيئا من تلك الاحصائيات  
الصفيرة الخسيسة ، فأى نصيح يمكنها ان تسديه اليه؟  
لقد وجدت أن الأسهل لها والأولى بها أن تقف عند  
حد دور العاشقة . وكانت كالنار التي تخدم ولكنها  
ترداد بريقا ، ولم تعد تذكر غير الحنان والدلال والحب  
والعواطف .. كانت صفاء القلب بعد اكفهار الظلمات  
التي غرق فيها بلزأك لأذنيه ، ضائعا ، فريسة الارقام :  
الايرادات ، والمصروفات ، والميتزانيات ، والفواتير ..  
قالت له :

— انى أعلم انك فرغ صبرك ! فوراءك ألف شاغل ،  
وآلف كراهية ، وآلف اشمئزاز ، وآلف ندامة ! .. اذن



فدعنا من هذا كله ، فلا نذكره ، يا حبيبي الحبيب ..  
واهداً ، واسترح ، وضع هنا رأسك .. فقد كنت  
تحب الاستناد الى كتفى . واني هنا لكي تنسى ..  
فدعني أنظر في عينيك . اننى لا امل النظر فيهما أبداً ،  
يا معبودى ، أترى أمك الغريبة قد حملت بك أذن فوق  
فوهة بركان فيزوف لتجعل لك عينين بهذه السخونة  
الأكلة ؟ ! فهما عينان تريدان .. وتداعبان .. وتعطفان  
وتحبان .. عيناك ! .. انهما من الروح ، روحك !  
وهما جميلتان كزهر الربيع ، عميقتان كطبقات السماء !  
- يا ملكى ، يا ملكى العزيز الحارس ، انى بخير ،  
واني سعيد .. وأنت ترددين الى الروح ! .. انى أنسى  
العمال ، والعمل الفاسد ، والزبائن .. آه ! .. انك  
لا تعلمين ما عملوا اليوم .. فاسمعى ! ..

وفي لحظة النسيان ، تتراحم عليه أسوء الذكريات  
وتتراكم حوله ، وتحاصره . وعندئذ تضع يديها الجميلتين  
على فمه ، فتتلاشى فظائع البشر التى أصابته فى يومه ،  
ولا يعود ثمة من أثر الا لنشوة الحب . وما كان أجملها  
فى شتاء ٣٧ - ٣٨ ! .. وما أشد ما رافت فى عينيه ،  
فى ثوبها الاسود ، المحبوك على خصرها بشريط ، ولاسيما  
تلك الطرحة الشفافة التى تضعها كالشال ، وتلقى  
بطرفيها فى حزام وسطها ! وها هو ذا يجدد أعزازها  
وتدليلها ، لسنها ، ولحنانها ، ولاحسانها الذى لم يكن  
ليصدر الا عنها ، تلك الفضيلة التى لا تصدر الا عن  
القلب ، على مضى الايام .. وكانت تكرر له بلا ملل :  
- انى أعبدك ، أعبدك على الرغم من ألوان غضبك ،  
ونقوائك ، وغلظة طبيعتك . و .. ذلك من أجل ..  
« روحك الجميل » ! ..

وكانت تصل مخبولة حبا ، آتية على قدميها من شارع



دنفرسان ميشل ، حيث كانت ، حينذاك ، تسكن في باريس خلف حديقة اللكسمبورج الفناء العريقة ! فتنزل في شارع دي تورنون ، مرسله بالفكر ألف قبلة نحو الغرفة التي شهدت حبهما الشهور الطوال ، ثم تخرج على شارع السين ، حيث تشتري له أرغفة الخبز الصغيرة والفاكهة ، لأنه لم يعد يجد متسعا من الوقت للغداء ، وتصل ، تكاد تكون مقطوعة الانفاس من الوجد والتفانى والهيام !.. وتقول ، من خلال العناق والقبل :

- آه يا صديقي !.. السننا جبِلنا من طينة واحدة ؟.. انى فخور ، فخور !.. لقد شاركتك كل السنين العجاف .. وستأتى سنوات المجد .. ثم يمضى بلاشك عنى مع امرأة أخرى .. ولكن لاسبيل لك فط الى نسيانى ، لاننى قد وضعت الهناء فى آلامك ، بينا سيضع غيرى الآلام فى هنائك !.. يا حبيبى ، يا حبيبى ، لو ان كل الأزواج كانوا على مثالنا لما بقى على ظهر الارض عزاب !

نم تجىء ، ككل مساء ، لحظات الوداع الموجهة .. ويكون العمال قد انصرفوا ، فيقودها الى الشارع ، مجتازين المطبعة ، فريها ما على الرخام من صفحات مجموعة ، وصور مطبوعة ، ويحذرهما من أن يلوث الحبر ثوبها .. ثم يحين موعد الرحيل :

- هات منفارك ياسيدى !.. الى اللقاء ياديدى !.. هل ترانى سأعود ؟.. انى خائفة .. انى من دونك تنقطع أنفاسى !.. اعطنى مرة أخرى هذه اليد الحنون التى أحب ان تظل فى يدى .. والآن أدعك لأربع وعشرين ساعة ، ياسيدى .. أى لقرن من الزمان !..

وكانت المطبعة فى تلك الاثناء تسير الى الخراب .



فعلى التاجر أن يضع قناعا على وجهه لا ينزعه أبدا..  
في حين كانت هذه المرأة لا تساعد الا على نزعها ، لأنها  
كانت مثله لا تنتشى الا من تذوق الحق . ولم تكن لديها  
كما لم تكن لديه - أسلحة للدفاع ضد الشر والشره  
المحيطين بنا . ولم تكن توجهه الا الى الافكار النبيلة :  
وما حيلة التجارة في هذه الافكار ؟ ! انها كانت ، في  
حبها اياه ، تجره الى الخراب .. وكانت تعبده ، على  
رغم الخراب ، وفوق الاطلال ، لانها في وسط المشاغل  
والمساكن التي لا تستطيع وقايتها منها ، وبين ضروب  
الفتن العديدة هذه ، لا تجد ما تقوله له غير : « لو  
كنت مكانك ما فعلت الا مثلك ! » ..

وكان يحس انه على الاقل مدين لهذا النبوغ النسوى  
السخي برجولته ، وبهيامه بالجمال ، وتحمسه للشرف ،  
وكل ما يجعل لهذه الحياة قيمة . وعلى ذلك ، ففي  
العراك التجارى ، وان كان قد هزمته شراذم الموردين  
والعملاء ، فالفضل لها في ان قلبه تشدد وتجدد ، وازدهر  
كشجرة جميلة .. ولما كان القلب هو الذى يمنح العقل  
النبوغ ، فقد ظل شعاع من الامل بين جوانحه ، انتظارا  
اليوم المشهود الذى يعود فيه الى حمل قلمه ، اذا نبت  
قطعا ان الاشغال والاعمال لن تغنيه فتىلا .

وكان مع ذلك لا يزال قوى الرجاء في الاعمال ، وفي  
المال . فزعم ان آية الفنى في تحويل المطبعة الى مسبك  
للحروف !.. فاندفع في نفقات باهظة . وبقيت مسألة  
المشتريات ، وايجاد النقود ..

أما شريكه « باربييه » فلم يصدق ، وأبى أن يتبعه  
بيد أنها هي .. هي دائما .. هي المخبولة ، الهائمة  
المشوقة ، فد حصلت من زوجها الاعمى على تفويض  
بدخوله باسمه ، في الشركة الجديدة !.. وكان ذلك



بمثابة أعباء جديدة ، ضفتا على إبالة !  
نم وقعت الواقعة ، وكانت الطامة ، عندما حل دفع  
كمبيالة ضخمة ، وكانت الخزانة خاوية . وحمل الى  
الخدر دفاتر الحساب ، وراح مع خليلته يجمعان  
ويطرحان ، ولا يجدان مخرجا . . فما العمل ، يارباه ؟!  
ان التجار الموردين قدموا بلطف فواتيرهم .

فقلت له مدام دى برنى :  
- اذن فعليك ان تحذو حذوهم مع عملائك . فأرسل  
جميع فواتيرك ! .

فأمر بذلك متنهدا :  
- يا للأخلاق ! . يالها من حياة ! . انى أوثر لو  
قطعوا رأسى ! .

ولم ينتج عن ارسال الفواتير شئ . وعلى الضد من  
ذلك نفذ صبر الموردين ، وطالبوا بحسابهم . وتلا  
الاحاح منهم تهديد ووعيد بالتقاضى . فصاحت مدام  
دى برنى :

- فليقاضوك ما شاءوا ! . ايمكن لهذا ان يقضى على  
حبنا ؟ ! ايها الحبيب المعبود . . انك لايمكن ان تعرف  
منزلتك عندى ، ومكانتك منى !

وفى الغداة طاف على المصارف . فقابله رجالها  
بالبرود ، أو الشفقة المزوجة بالاحتقار . فوجدته لور  
دى برنى ، فى المساء ، مخضل العينين بالدموع :

- يا صديقتى ! . لماذا يقسو على الله هكذا ؟ . انك  
تعلمين ، انت ، اننى لا أريد بأحد سوءا . . وموقفى  
شنيع . . انه غدا ال « ١٣ » ! .

ورأى المرابين « أولئك الذئاب ، يظهرون فى ثياب  
المحسنين ، يقدمون اليه نصف ماله ! . فأحس بدماعه  
يلتهب . . وبعد أشواط مضنية ، بذل فيها روحه



لهؤلاء الناس الذين لا روح لهم ، تجلت بصيرته ، فقال :  
- يا للزمن الضائع !.. يا للجهود الذكية بلا طائل !  
جهود متوالية ، مرهقة ، على الضد من طبيعته .  
فاذا لقي صديقا ، لزم الصمت ، و أخفى عنه مابه .  
وامام أسرته ، كذب ، ولا سيما على مدام بلزاك ، أمه ،  
المتشائمة دائما ، التي تتنبأ بالشقاء في الهناء .. وكانت  
ترى أن الريح غير مؤاتية ، وأنه لا سبيل الى خلاص  
التاجر من مآزق التجارة حتى يصفى تجارته !.. وهو  
الآن قد صار من رأيها .

ولكن لم تكن المسألة مسألة انسحاب من الاعمال  
بقدر ما هي انقاذ ما يمكن انقاذه من الاناث . وكتب  
كمبيالات لم يقبلها أحد . فهلع ، وهرع الى القمار!..  
فعاد كاسف البال ، شقى الحال .. فقالت له صاحبتة :  
- لقد ذهبت الى الباليه رويال .. ولعبت وخسرت!  
- اجل .. ولكنى لم أفجع في المئة فرنك التي  
خسرتها ، وكانت آخر ما معى ، بل فيما شهدت ، اذ  
وجدت قاعة من جهنم ، أحاطتنى فيها ثلاثون عينا  
مخيفة ، ترسل شروا ، وتضرب نطاقا من النار من  
حولى ، وتفتشنى ، وتجردنى ، وتريد أن تعرف ما اذا  
كنت سأذهب فألقى فى السين بنفسى !..

- آه ياملكى !.. اسكت !.. وتعال الى صدرى ..  
انى سأنقذك !..

وجشت على ركبتيها أمامه تقدم له المال :  
- خذ ! خذ كل شيء !.. انى أحبك أكثر من حياتى !  
وسمعا لفظا فى المطبعة . وكان العمسال يطالبون  
بأجورهم . فأسرع بلزاك اليهم ، فشتموه ، قائلين :  
« أنك تلهو وتستمتع . فى حين اننا نموت جوعا !. »  
- أنا ألهو وأسخر من العامل ؟. اننى على استعداد



لأن أكون غدا عاملا . ثم اننى سأدفع لكم اجركم غير منقوص ! وليس التأخير الا عارضا ، يسبب لى من الالم أضعاف ما يسبب لكم ! وأنا أيضا لم أهد آكل .. ! وسأبرىء ذمتى مما أنا مدين لكم به .. أقسم على ذلك .. فان لى ذمة وشرفا !

فى هذا النوع من العذاب الذى يحرق الدم ، دم رجل مسوق رغم أنفه الى الافلاس واليأس ، يتيح النضال المستعر للعاطفة أن تنجو ، وهو بهذا يعد نعمة من السماء ، مثله مثل الدموع التى تفرق القلب وتروح عنه ..

وفى ١٦ ابريل ١٨٢٨ أرسل اليه العمال انذارا رسميا ، تم اطبيق على المطبعة الدائنون ، وانضم اليهم البقال ، وصانع القمصان ، وصانع الاحذية ، وكانت فاتورة هذا الاخير بثلاثمئة فرنك .. فصاح بلزак :  
- ثلاثمئة فرنك !.. هذه سرقة !..

فاجابه الحذاء ببرود :

- لا ياسيدى !.. هذا مجموع ما انفقته على قدميك من احذية !..

وعندئذ هرول اونوريه كالمجنون الى امه ، لتستنجد بابن عم لها تاجر ، يدعى مسيو « سيديو » :

- فليات الى !.. ولينظرا . وليحسب ! وليقرر ما يراه !.. وليضعونى فى السجن يا اماه اذا قضى بذلك المجتمع !.. اجل ! ربما كنت قد خربتكم !.. اجل ! انى مدين بعشرين الف فرنك لدام دى برنى !.. اجل ! اننى بلا شك شقى منحوس !.. ولكن هناك رحمة الهية ، وانى لوائق من الفقرا ن يوما ما !.. وها هو ذا الحول قد حال على وأنا فى جحيم !.. لم أعرف فيه غير رأسى يحترق . وقلبى ينقبض من الوان القنوط !



ولم يكن يمضى يوم الا وتنقض ساعة على رأسى !..  
ولم أكن أشهد الا وجوها عابسة ، عليها غبرة ، ترهقها  
قتره ، يؤلمنى تذكراها . وغير عيون رجال غارت منها  
كل مبادئ الانسانية ، ولم أعش الا فى وسط مشاهد  
مروعة ، كما لو كنت فى حومة الوغى .. أواه يا أماء ،  
يا أماء !.. اذا أردت النجاة فى ظل شيخوخة طيبة  
هائثة ، فاهربى من أهل الحساب ، وإياك من أرباب  
المال والأعمال !.. وانصرفى بكل قواك الى المتصوفين  
والشعراء .. فهم رجال من العلو والسمو بحيث لم  
يضعوا قدما فى أحوال الحياة !..

فزفرت مدام بلزاك ، وقد ضمت يديها ابتهاالا :  
- يا ولدى !.. بربك لا تصح ، لئلا يسمعك أبوك !..  
فليس له ان يعرف ، فى مثل سنه ، بهذا ، والامات !  
وطفق بلزاك ينشج نشيجا محزنا !.. ثم هوى فوق  
سرير أمه !.. وخيل اليه انه أخذ من يديه بقوة وحق ،  
وداروا به ، ثم داروا .. حتى سقط منكبا على وجهه  
أرضا ، منقطع الانفاس !.. ورقص كل شيء فى رأسه ،  
ورقص كل شيء حوله !

لقد انتابته الحمى ، اذ أدرك انه خرج من صناعة  
الطبع والنشر مدينا ، فوق كل ما أنفق ، بثلاثة آلاف  
جنيه . لقد أقسم ان يكون غنيا ، غنى طائلا ، غنى  
سريعا .. وها هو ذا أفقر منه فى كل وقت مضى ، أفقر  
من كل انسان ، وقد اجتمعت عليه ضروب الفقر  
المدقع جميعا ..



ان نجاح امرىء في الحياة ، اذا اوتى كافة عناصر النجاح ، انما يتوقف فجأة على لا شيء ، وهذا اللاشيء يكفل له الاتزان . ان مثله مثل الطفل في شهوره الاولى ، عندما تتخبط قدماه الصغيرتان ، ويعترى أمه القنوط فتقول : « انه لن يمشى ! . سيصاب بالكساح ! . » . ثم اذا به ذات صباح ، يمشى ويمشى قدما لا يلوى على شيء . . . ويصبح كغيره من الاطفال ، اتخذ مكانه ، وطيدا ، على الارض .

وكذلك كان شأن اونوريه بلزاك . فما أن تاب الى رشده من صدمته ، بفضل المسيو « سيدبو » ، الذى أخرجه من ورطته ، ولا غبار على شرفه ، بينا كانوا يصفون مركزه دون أن يدرك من الأمر شيئا كثيرا ، حتى لاحظ - كالمريض عقب الحمى - ان قلبه وعقله قد خلاصا ، وراقا ، وصفوا . . . لقد خرج من ليل ذى كابوس فظيع ، فما كاد يطلع النهار حتى عاد اليه صباه وكان من الآثار غير المنتظرة لمصيبته الحرى انه عاد فاسترد مزاج الحياة ! . .

وفاتحه المسيو سيدبو بهذه النتيجة :

- خمسة وسبعون ألف فرنك دينا ! . . ( ٣٠٠٠ جنيه )  
- لابأس ! انى فى التاسعة والعشرين ، وصحتى



جيدة ، ومطامعى واسعة .. فسأدفع ، سأدفع الدين كله حتى الدائق الاخير !..

وكان لابد لذلك من وضع كتب تباع بأكثر مما بيعت الكتب الاولى . وقد دلته الحياة بجلاء على أن الكتب الاولى كانت رديئة . وكم كان ملهما اذ لم يضع عليها غير اسم مستعار ! فقد حفظ بذلك اسمه ، ليضعه على ثمرات المجد ! لقد لمس حقائق الوجود . وعانى تجاربه ، وذاق كيف ان المجتمع يشوه النفس البشرية ويشقيها .. وهذه الحقائق أروع ما يمكن للمؤلف أن يبتكره . وهذه المشاعر الانسانية هي التي يريد تصويرها ووضعها في اطارها . فلا يتوه في معانى الفردوس المفقود ، ولا يسيح في القمر . حتى ولا يذهب الى القرون الوسطى ! انه سيرسم ما حوله ، في عصره ، من ظروف الحياة ، وملابساتها ، وأخلاقها .. وسيكون في رسمه مشرا !..

واستأجر تحت اسم مسيو « مرفيل » - زوج أخته - شقة صغيرة في شارع كاسيتى رقم « ١ » على بعد ثلاثين مترا من شارع فوبورسان جاك ، بين سقوف الاديرة وقياب المرصد ( الأوبسرفتوار ) .. أشبه شيء بجمال الريف : سكون ، وراحة ، واستجمام .. وهناك يستطيع العمل كالرهبان .. بل انه أوصى لنفسه بثوب راهب .. وقصارى القول انه اندفع في جذله ، واشترى - دون أن يدفع - أثاثا .. فرفعت أمه ذراعيها الى السماء : « هل عاد اليه جنونه ؟ .. انه يزيد في ديونه ! » وكان من رأيه أن المظهر لا غنى عنه للكاتب .. فاذا جلس الى منضدة مكسورة على قارعة الطريق لم يجد له ناشرا يدفع في كتبه قرشا ! ..

ولم يكد يزخرف عشه المكون من ثلاث غرف ، المطل



على حديقة .. ولم يبق له الا الجلوس ليكتب .. حتى  
سافر فجأة الى « فوجير » !.. ذلك ان موضوع كتابه  
الاول كان قد تحدد في ذهنه ، وكانت تنقصه الوثائق  
في جو مقاطعة بريتاني . فأراد ان يعيش بين أهلها :  
يرى ، ويسمع ، ويسجل .. وكان يسكن فوجير صديق  
لوالده هو الجنرال الكونت دي بومرل ، فاستضافه .  
ووصل ضاحكا ، جذلا ، مستبشرا بما سوف يملأ به  
وقاضيه من آيات بصورها للأجيال .. فسأله ، في  
حياء وحيطة ، عن أخبار .. أشغاله .. فأجاب بقوة :  
- المسألة بسيطة . أردت أن أقوم بعمل جليل . ولم  
يطب لي الا لأنه كذلك . فلم يفلح . فاتجهت وجهة  
أخرى . وما أبداه اليوم اعظم أثرا وأجل قدرا !.. انى  
أنوى كتابة سلسلة قصص تاريخية لم يسبق لأحد أن  
كتبها في هذه البلاد ..

فسأله مدام دي بومرل : « أو لم تقر « Cing - Mars »  
- بلى ياسيدتى !.. بل اننى قد طبعته !.. وانى  
أعرفه عن ظهر قلب !.. قصة رديئة جدا !.. كل ما فيها  
زيف .. وقد ولدت في مقاطعة لاتوربن ، وأعرف ماهى .  
فقال الجنرال : « وكذلك مؤلفها المسيو دي فينى !  
- هذا محتمل .. وهو من دواعى الأسف !..

وراح يتكلم خمس ساعات متواصلة .. وكانت أسرة  
بومرل قد دعت بعض الجيران لقضاء السهرة .. فبهروهم  
جميعا . روى لهم - لهؤلاء الناس المحدودين المحصورين  
بين بيوتهم وحقولهم - حياته المضطربة الشاقة ، ورسم  
عشرين لوحة باريسية ، وعالج : السياسة ، والمسرح ،  
والفن ، والحرب ، والكنيسة .. وكان زلقا ، فياضا ،  
متحمسا ، وكأن الكلمات كانت تزدهر على شفتيه  
المسعدتين وقد أحاطوا به في دائرة . وظل الرجال



مبهوتين صامتتين . أما النساء فقد وجدنه ساحرا  
خلابا . . . وتهاوسن سرورا . . . وقال قاض شيخ :  
- ياله من محام ! . . .

وردت عليه عانس عجوز ، وهي تنتفض اعجابا :  
- آه ياسيدى ! . . . هذا العقل ! وهذا الذهن ! . . .  
وهذا الجبين ! . . . أرايت جبينه ؟ . . .

ولكنه كان قد جاء ينشد القصص ، لا ليرويه . . .  
ففى الايام التالية أمسك لسانه ما استطاع ، وأرهف  
أذنه . وجاس خلال البلد ، يزور ، وينظر ، ويستجوب .  
وسجل كل ماحوله من رءوس ، وحركات ، وحكايات . . .  
ووضع هذا كله فى « نمليته » ، كما كان يدعو ذاكرته  
المؤانية . وكان فى الصباح يكتب فى غرفته ، المظلة على  
الوادى ، الذى تشرف عليه البلدة والقصر . وكان يحصى  
بعينه الأكليتين المشاهد ، باحثا عن معنى جميع  
الأشياء ، عن وجه البلاد وروحها . وكأنه من نافذته  
هذه قد اعتزم أن يلقى الضوء على وطنه بأسره ،  
ويصوره !

وعندما عاد الى باريس ، مزودا بالمذكرات والذكربات  
كانت كالنحلة المتعجلة . كان يتعجل صنع شئده .  
وملا أيامه بالعمل المضنى . ان أعداد كتاب ، والحلم به ،  
وترتيبه ، هو : الهناء الذى ما بعده هناء ! . ان امتلاك  
ناصية الموضوع هو : الاشتناء ! . . . اما الانقطاع بعد ذلك  
للكتابة فهو عمل الحداد أمام كوره : يضرم النار ،  
ويضرب السندان . وهذا يتطلب الجهد ، والعناء ،  
والعرق . وما أطول كتابة كتاب ! . . . وما أقصر مدى  
النهار ! . . . ان ما يسوده من الصفحات فى ائنتى عشرة  
ساعة لقليل ، قليل ! . . . فقد بلزأك لكتابه شهرين على  
الأقل ، وقرر أن يتمه فى شهر واحد . . . وكان الشتاء



كالحا قاتما ، بحيث لم يعد ينظم عمله على ضوء النهار  
أو سواد الليل . راح يكتب . حتى اذا أضناه التعب  
توقف ، ونام ، وأكل ، وسأل عن التاريخ . ثم قال :  
« ان الايام تذيبني بين يديها ، كما يذوب الثلج في  
الشمس !.. » .. وبدلا من أن يتم كتابه في شهر  
استغرق ثلاثة أشهر ليضع « Dernier Chouar » أول  
كتاب شرفه ومهره باسمه ..

وكان فوزا عظيما ..  
ورأى اونوريه بلزاك اسمه على كتاب ، لأول مرة ،  
فخالجه الفخر في هدوء وجاءه أصحابه مستبشرين ..  
وأحس بأعدائه يحدقون فيه مندهشين خجلين ..  
وكتبت اليه النساء . وتلقى دعوات الى الغداء في عالم  
الادب ، والى العشاء في عالم السياسة ، والى السهرات  
في عالم المسرح والفناء .. وقالت له خليلته :  
- انها لصفحة عظيمة من التاريخ !..

واعترفت أمه : « لقد قرأته في نفس واحد .. ولا  
عجب اذا بعث منه الكثير .. بما يعوضنا شيئا مما  
خسرنا » ..

ورضخ والده لقراءته ، ثم قال : « لا بأس بحدثك  
في الحب .. ولكن .. فكر يا ولدي فيما اقترحت  
عليك : « كتاب عن الزواج » !.. »

ففكر فعلا . وكان ، عندما كان طابعا ، قد وضع  
الصفحات الاولى منه ، وجمعت ، تم أعاد قراءتها ، ولم  
ينشرها . فقال في نفسه : « سأذهب لأحدث الى أبي  
في هذا الموضوع .. فأراؤه عن النساء مدهشة ..  
ولكن في الوقت متسعا .. » . ولم يكن قد مضى على  
ظهور كتابه شهران ، حتى جاءه في مساء يوم من شهر  
يونية نعي أبيه . وكان الرجل شيخا هرما في الثمانين



من عمره . فهو مصاب طبيعى . ولكن كذلك حزن  
الولد على والده طبيعى . وكان حزنه شديدا صامتا ،  
رغم قلة ما نبودل بينهما من الحنان فى خلال الثلاثين  
عاما . . وفى الساعة التى اختفى فيها أبوه عن سطح  
الأرض ، شعر بأن حكمة أبيه الضاحكة قد جاءت لتسكن  
فيه . ذلك أن الحداد العظيم الذى جعلنا نتأمل فى  
مسيرنا يدكى فينا أعز ماورثناه . . وهكذا أحس أن نوريه  
فى جدوة حزنه جدوة أخرى عهد بها إليه أبوه ، تنتظم  
فيه ، وتخدمه ، وتعينه . . بحيث بدا له أن أسلافه  
القريبين والبعيدى قد احتشدوا فى ضميره ليساعدوه ،  
ويجعلوه يقول ، كما قال يوما وهو صبى على ضفة  
اللوآر : « سأكون رجلا عظيما ! . . » وتبع نعش أبيه  
هامسا من خلال الدموع : « نم مطمئنا . ولا تخف ،  
ولا تحزن على مصير اسمك ! . . » . ولما عاد من  
المدفن ، جلس يكتب ، قبل أى كتاب آخر ، ذلك  
الكتاب الذى أوصاه به أبوه عن الزواج . .

ومر الصيف والخريف ، وهو يعيش خلالهما على  
كثب من أفكار أبيه . وكان يرهف أذنه ، ظانا أنه يسمع  
الشيخ يتكلم ضاحكا عن النساء ، وعن الزنا ، وعن  
الفضيلة . وكان لا يتم فصلا حتى يقرأه على صاحبه  
مدام دى برنى ، فتوجهه الى حقائق نسوية أخرى  
تعرفها المرأة الحصيفة . وكانت النتيجة أن خرج هذا  
الكتاب ساخرا من الزواج ، أى من حياة الرجال التى  
تتنازعها النساء ، ويتقاسمنها ، أى أنه جعل الرجال  
مسئولين عن جميع أخطاء النساء .

وظهر كتاب الزواج : تأملات عن الهناء أو الشقاء  
الورجى ، فى شهر ديسمبر . وكان ذلك هو الفوز العظيم  
الثانى . وجرت بذكر صاحبه الركبان . وكان موضع



حديث الصالونات ، وفي كثير منها أرادوا أن يروه .  
فلماذا يتمنع ويحتجب ؟.. انه لم يكن برجو الالحاح  
عليه في الرجاء غير انه لم يكن لديه اللباس المناسب .  
وكان قد أوصى على توب راهب آخر يلبسه في البيت ،  
ليعمل ، ولا يستطيع أن يرتديه للذهاب عند السيدة  
« صوفي جاي » . ومع ذلك ذهب . كما كان ملبيا ،  
شيئا ما ، شيطان الزهو ، الذي وسوس له : « ان  
كساءك هو شهرتك . وهذا أولى بك وأخلق ! » .  
ولسوء الطالع ، كانت في حذائه مسامير ، فتركت في  
البساط أثرا . ولاحظ ذلك من ركن الصالون أديب  
يدعى « فيلاريت شاسل » ، وندد بذلك .. ولكن مدام  
« دبورد فالور » أعجبت بعينيه ، وسألت صاحبة البيت  
عما اذا كانت ثمة امرأة تشغل قلب هذا الفتى !..

وبعد ذلك بقليل ، زار مدام « دابرانسس » ، التي  
تستحم أياما في دير « آباي - أو - بوا » ، والتي كانت  
قد كتبت اليه بعد ظهور كتابه تقول « انك الشيطان  
شاخصا في رجل ! . وانت تعرف اننى أحببت الشيطان  
دائما .. فما أشد سرورى بلقائك ! . » .. فزارها .  
وسألها عن الذين يقضون مثلها فترة للراحة في الدير ،  
فذكرت له اسم « مدام ركاميه » أجمل نساء عصرها .  
وكان ذلك الاسم من الاسماء التي يحلم بها بلزاك ،  
المفتون دائما بالعظمة ، فقد كانت أجمل النساء ، وكانت  
حياتها مأساة ، أى مأساه !.. وسألته مدام دابرانسس :  
- هل أرسلت اليها كتابك عن الزواج ؟..

- لا .. اننى ما كنت أجرو ..

- أسرع بارساله .. وعد بعد ثمانية أيام ، فنجتاز  
هذه الحديقة ، ونصعد اليها ، فأقدمك ..



فقبل ، وقواده يخفق .. ولما عاد ، بعد أسبوع ،  
قالت له :

— لقد لمحت المسيو دى شاتوبريان ، صاحبها ! ..  
ثم جهرت بالضحك من شعره المنكوش :  
— هذه النؤابة ! .. انه حتى لم يقص شعره ليلقى  
الجميلة جوليت ! .. على انه هكذا شبيه بالاسد ! ..  
وكانت مدام ركاميه تسكن غرفتين جميلتين من غرف  
الدير .. فصعدا سلما خشنا .. وبلزاك ملازم الصمت  
ودخلا غرفة صبفتها الشمس بالذهب .. وهناك  
بيانو ، وعود ، وصورة كبيرة للكاتبة مدام دى ستايل  
وكانت هناك تلك العبودة ، فى ثوب رائق ، بكل ما فى  
ماضيها وحياتها من شعر وفوسيقى ، جعلها لها شبابا  
أبديا .. فأنحنى بلزاك بارتباك .. فكانت أول كلمة  
قالتها لمدام دابرانس :

— لشد ما تفيض طيبة قلبه ! ..

فقال المسيو دى شاتوبريان ، الاديب العظيم ، فجأة .  
— وليس هذا شأن أهل الادب عادة .. اليس كذلك  
ياسيدتى ! ..

وكان بلزاك لم يره قط من قبل . فجعل ينظر اليه  
وهو يرد على الاسئلة الموجهة اليه من الحاضرين الذين  
التفوا حوله . وقال أحدهم ، مسيو بلانش :

— ان كتاب الزواج هو دفاع عن النساء .. وأعترف  
بأنى شككت فى جنس المؤلف ! ..

فقالت مدام ركاميه بصوت رقيق :

— ان النساء بحاجة شديدة الى الدفاع عنهن ..  
وقد أحسنت ياسيدى عملا بكتابك القيم الممتع !

فقال بلزاك : « أحقا انك قرأته ياسيدتى ؟ » .

— بالتأكيد قد فعلت ! ..



ثم التفتت الى المسيو دى شاتوبريان ، قائلة له ،  
وكان يبدو عليه انه لا يسمع :

- لا بد من ان اعطيك الكتاب يا صديقى العزيز ..  
وكانت يده فى صدريته ، كالامبراطور . وكان وقورا  
يبدو عليه الاستغراق فى عالم الاحلام . وكانت خصل  
شعره تتدلى على جبينه ..

وشعر بلزأك بالسعادة . فاتجه الى النافذة . وكان  
الشتاء قد جرد الحديقة من أوراقها ، والهواء يهز  
أغصانها الرشيقة .. وتصاعدت اليه أصوات فتيات ..  
فضحك ، وحده ، بلا سبب .. وسمعوه .. فقال  
المسيو بلانش بصوت منخفض :

- ماذا أصابه ؟ .. انه مجنون ، هذا المحامى عن  
النساء !

فاعترضت مدام ركاميه. قائلة وهى تخاطب  
شاتوبريان :

- كلا كلا .. ثق بأنه موهوب .. يا صديقى ..  
- ولكن ما أبشع منظر جواربه الزرقاء ! ..  
- اسكت اذن ! .. وانت ، يامسيو بلزأك ، تعال  
واجلس قليلا الى جانبي .. لديك مشروعات أدبية  
عظيمة ؟ ..

- آه ! .. أجل ياسيدتى !

- هل من الفضول أن ..

- أوه ! .. لا ياسيدتى ! انى لا أريد أن أكون رواية  
فحسب .. بل .. مؤرخا ، مؤرخ أخلاق وعادات ..  
و .. كذلك فيلسوفا يقود العقول ..

فأصفت اليه بجد ، ملهمة اياه بمحياها الجميل ،  
المطبوع بطابع النبيل والألم .  
ولما خرج مع مدام دابرانتنس قال بحمية :



- لله ما أطيبها !.. وما أجملها !.. وما أوجهها !  
ان هذه الزيارة لامرأة تحمل اسما من أعظم الاسماء  
في الحياة الفرنسية قد زادته اطمئنانا على مصيره . ان  
النور يشع على هذا المصير من كل جانب ، ومع ذلك ،  
فان الفنى لم يأت بعد . وان كان لم يقنط من مجيئه  
يوما ، رغم ديونه . بيد ان طبول الشهرة لم تدق بعد  
باسمه في أربعة أركان المعمورة .. غير انه كان يحس  
القوة على بلوغ الشهرة . ولكنه لم يتذوق بعد حب  
امرأة شابة تهبه جمالها ومستقبلها . على ان ملكا  
كريما قد بسط عليه حمايته ، وساعده ، وسما به ..  
وان كان لم يعرف الشباب حقا لانه عاش عشرين عاما  
بغير هناء .. ولكنه لا يأسف على ذلك في ساعة ازدهاره  
هذه .. ان كل ما لاحظته عليها انها تأخرت ، ليس الا ..  
وليس عدد السنين بالذى يستحق الذكر مادما لا ندرى  
متى نموت . وفكر في ابيه الذى نام الى الابد ، دون  
داء عياء ، في سن متقدمة .. وقال لنفسه : ان ذات  
المصير ينتظره ، فيكون لديه من الوقت ما يمكنه من  
وضع مؤلفات شائقة ..

ولما وصل الى حديقة اللكسمبورج ليجتازها في  
طريقه الى بيته بشوارع كاسيني سمع شخصا ، يمر  
بعربته ، يهيب به ، وكان هو « جوسلان » ناشر كتبه ..  
فقال له بلزأك وعينه تلمع ووجنتاه متوردتان :  
- لشد منا انا مسرور برؤيتك ! .. انى خارج الساعة  
من عند مدام ركاميهه !  
- آه ! .. آه !

- وهى لم تقرأ قط كتابا أعجبها بمقدار كتابى « فى  
الزواج » ! ..  
- مرحى ! مرحى ! ..



— وبعد ، فهل تعرف انى أعد لك قصة ساسميهها  
La Peau de chagrin ؟ ..

— وهل تمت ؟

— كلا .. واعلم — واستخدم عليك كما تشاء لمصلحة  
البيع والشراء — أن مدام ركاميه قد وعدتني بالاستماع  
الى المخطوط قبل طبعه ..  
— زه ؟ زه ! ..

وهنا جوسلان .. وافترقا ..

ودخل بلزاك الى اللكسمبورج ، ومر تحت الاشجار  
التي سمعته ، في فصول أخرى ، يضع مشروعات  
متحمسة متطرفة ، وقال لنفسه ، في مرح ، وهو يلوح  
بعضاه ويدورها في الهواء :

— أرى يابنى العزيز ، اونوريه ، اننا نسير الآن على  
الدرب ، ومن سار على الدرب وصل ! ...



## الجزء الثانى :

### انتصار العبقريّة

- ١ -

أى شىء يؤثر فى النفس ، فى مدينة كبيرة ، مثل الشىء لم تعد تتوقعه : ركن من الريف ، يهب منه هواء الخلاء فى مدينة كباريس يستغرق شراء عشرة أمتار من الأرض ما ادخرته أسرة متوسطة فى زمن طويل .. فكيف اذا وجد كاتب أو شاعر أو فنان ، فى صميم العاصمة ، واحة مزهرة ، يلقي عندها عصاه ، وتستقر به النوى ؟ .. أترأه على بعد مئة فرسخ من باريس ؟ كلا ، انه فى صميمها . وهذا حى الأويسرفتوار ( المرصد ) ، حيث كان يسكن بلزاك فى ربيع ١٨٣١ . وهو لا يتجه أبدا نحو بيته هذا ، فى شارع كاسيتى ، الا وتغمره موجة من الفكر فهو يدع : الجماهير ، والفراغ ، والغرور .. ويسترد وحدته الملائى بالذكريات ، الفنية بالدروس والعبر .

انه يخرج من حديقة اللكسمبورج مستديرا قصر المديسيس ، حيث عز ملوك وذل ملوك ، ويلمح قبة « الفال دى جراس » التى كالتاج ، فيحى من أعماق قواده ذكرى « حنه دوتريتش » ذات الذوق المصفى .. هناك ، حيث الشيوخ المطمئنون المسالمون يلعبون بالمضارب والكرات الخشبية .. وهناك ، على هذا الحائط الأغبر قد سقط المارشال « نى » أشجع شجعان فرنسا ،

- ٢ -



الذى قتل بأيدي جنوده ! .. وكان بلزاك مفتونا بهذا البطل ومأساته ..

وهذا ركن متواضع من الحديقة ، كفيل بأن يهذب من سعار الكبرياء والبلدخ .. وهذا بناء ضخيم على السقوف ، هو بيت الأمومة ومستشفى الولادة .. وعلى الجانبين أديرة يتأملون فيها حكمة الموت ..

وكان بلزاك يسمع من مكتبه أجراس الكنائس .. وكان هذا النداء يدفعه الى كتابة أشياء نبيلة ، حتى يكون : الرجل الذى يقود العقول ، ويوجه النفوس ، فى حين كان النساء يبتهلن الى الله ..

وهذا الحى هو حى الأطفال اللقطاء ، ومعاهد الصبيان الصم البكم ..

ما أبشع مدى الرذيلة ، وما أشنع مدى الشفاء ! .. ملاجئ تتزاحم بالعذابات ، ومعابد تتجاوب بالتوسلات ، ثم معاهد العلم والبحث ، الى جانب معابد الدين والرجاء فيها هو ذا بلزاك بين : مسوح الرهينة ، وطبالس العلم ، ومقاصل الاجرام .. ولم يكن بعيدا من ذلك أيضا غياهب السجن التى تسقط بين جدرانها السوداء رؤوس المجرمين ..

ولا مشاحة فى أنه كان فى ربيع عمره . كل شيء ينبت ويزدهر . وكانت الافكار تغمره ، كما لو كانت طوفانا يفرقه .. وقد أحس بهذه الغزارة ، وأشفق من هذا الفرق ، من هذا الفيض الفكرى .. وكان كل شيء يلقى نار الهامه ، سواء أكان : حديثا ، أم مطالعة ، أم شوطا فى باريس .

ولم يكن يفريه قول صديق له : « عندى موضوع شائق لك ! .. » .. ولكنه كان ينظر كيف يعيش الناس وكانت لمحة منه تبسدى له عالما .. وكان ذلك بمثابة



المصباح الذى يسلطه على أشد الحيوانات ظلمة، فتتكشف له ، وتقدم أمامه كل مآسيها الخفية ، وكل محاسنها المحتجبة . وفى تسع حالات من عشر كان ، وهو يبنكر ذلك ، يكتشف ..

زد على هذا أن عقله قد رأى . وكان واثقا . فلا حاجة به الى انتظار ما تراه العينان ، أو تسمعه الأذنان ، على ما يتوقف على الرؤية من الحظ ، وعلى السمع من الاختلاس .. والشاعر الحق هو الذى يحرز ويلهم ، وعقله من القوة بحيث يبدع ما ينبغى إبداعه تماما . وكان هو ذلك الشاعر . وكانت البيوت ، وكانت الشوارع ، تبدو له من الوضوح والجلاء كالوجوه سواء بسواء : فبعضها خير كريم ، وبعضها مقرف بشع كالرذيلة . فالأشياء لها ما للناس من أمراض ..

وكان يعبر باريس، كما لو كان طبيبا ، يشخص ما فى الأحياء والجهات من أدواء .. وكانت مخيلته وحدها تسفقه بمعلومات أفضل مما يحصل عليه شرطى . وكان فى ذلك الحى من باريس ، حول بيته ، يرى ما يشر تطلعه ويجتذبه : يرى الشيوخ الذين ختموا حياتهم ، والطلاب الذين يبدأون الحياة .. والعمال يتكدسون ، فى عائلات، فى عناقيد ، بمساكن حقيرة .. فما أشبههم عنده بفصائل الحيوان المعروضة ، مصبرة فى المتحف ، أو جواله فى الأقفاص ، وقد وضع على كل منها بطاقة بجنسه واسمه ! ..

وفكر بلزاك ، قائلا فيما بينه وبين نفسه : « وهذه أيضا فصائل بشرية ، يحسن أيضا ترتيبها وتنظيم أنواعها ! ..

وفى ذات مساء عاد مهتاجا ، فقد اكتشف فى شارع سانت جنيفاف بيتا كئيبا موحشا ، بدا له مسرح دراما



انتظمت فصولها في ذهنه . فدار من حوله ، مبهورا ..  
فهو منذ أكثر من شهر يبحث عن ذلك البنسيون العائلي  
المرذول ، الذي نرى فيه شخصية في انحطاط خلقى  
مروع ، وهى مع ذلك في الوقت نفسه فريسة ضيق  
مادى ، مما يؤثر في القارىء ، ويهزه هزا ، كمشاهدة الدم  
يسيل في الروايات التمثيلية على خشبة المسرح ...

أجل ! .. لقد وجدته ! وها هو ذا ماثل أمامه ! ..  
ولا ضير اذا لم يكن على واجهة هذا البيت يافطة :  
Pension de Famille « نزل عائلى » ! .. فهى غلطة من  
القدر سيصلحها هو .. فالتهم بعينيه : الشارع ،  
والحيطان ، والحديقة .. وسيكون اسم صاحب البيت :  
« الأب جوريو » ! ..

وتراجع وهو يتأمل اكتشافه .. فكاد يدوس بائعة  
ملابس قديمة ( روبابيكيا ) .. فأهابت به بلهجتها البلدية  
القحة :

هولا ! .. على رسلك ! .. ولا تدس الناس ! ..  
فالتفت اليها ، وضحك ، ضحكة العزم الرشيد ..  
ففى سرعة البرق ، أسحفتة مخيلته بكنز جديد ..  
فضحك سرورا ، وتمتم :  
- انها هى ..

أجل .. صاحبة البنسيون ! .. انها هى أمامه ،  
سيصورها على نحو هذه الثرثرة ذات الشرب ، وبدأ  
في الحال يحدثها ، حتى يلتقط من هذا الفم الشعبى  
لهجة الحديث ، وسياقه ، وأسلوبه ، بحيث لا يعود  
أمامه الا أن يتم خلق الشخصية المرسومة أمامه ..  
وكانت المرأة لا تترك مجالا لقائل ، فتدقت .. فنال منها  
فوق ماتمنى ..

ثم جاس بعد ذلك خلال الشوارع المحيطة ، ليرسم



الخريطة . ووضع في ذاكرته كل ما رآه من : أرصفة ،  
وبيوت ، وحوائيت ، وسكان ..

ثم تذكر أن الكاتبة « جورج صاند » ستعيشي عنده  
مع بعض الصحاب . فأسرع ، والوقت صحو . وقد  
جف وحل الطريق .. وكان خفيف الخطا ، لأنه قد ملأ  
وطابه مما أغدقته عليه حساسيته الفنية . ان نورا خفيا  
داخليا يضيئه الآن . ان شخصيات قصصه قد حفت  
به ، وسارت من حوله في مواكب حافل . انها الآن طول  
بنائه ، تلبى رغباته نداءه .. انها تسير وتقف ثم تتحرك  
بارادته . على جبين كل منها سمته ، وعلى لسانه كلمته !  
انه سيرسم الأب جوريو هذا ، رب البيت العائلي ،  
رجلا قد قتلته بناته ، وقتله جحود أولاده ، الذين  
أعطاهم حياتهم ، ثم يعطيهم حياته .. انه رجل من الشعب  
الفقر ، هذا الأب .. وبناته قد رفعهن جمالهن الى  
الى الطبقات الراقية من المجتمع .. والأب الغبي ، له  
عقل حيوان ، ولكن قلبه حتى موته فياضا بالحب الابوي  
.. اما الفتيات ، الفائنات الأجسام ، المنمقات الأذهان ،  
فليس فيهن ظل نفس ، أو ظل حس وشعور ..

آه لو استطاع أن يبدأ منذ الغد هذه القصة الرائعة !  
ولكن ما زال أمامه على قصة

خمسون صفحة .. فاذا كتب عشرا في اليوم ، خلص بعد  
خمسة أيام الى صاحبه الأب جوريو ! ..

غير أن الأصحاب لا يقدرّون عمل الأدب ، فيجيئون  
الى زيارته ليعطلوا الهامه ، في حين أنه في غنى عن  
الهامهم ! .. انها لحريمة ان يوقف هذا الالهام أو يعطل  
انه ميراث تنتظره الانسانية متلهفة ، لتضيفه الى  
تراثها الخالد ! ..

ووصل الى بيت شارع كاسيني . وصعد الى غرفته،



وفتح النافذة ، واتجه الى دير الكارمليت ، وصاح فى راهباته :

— أيتها النساء القديسات ، تضرعن الى الله حتى يصبح أونوريه دى بلزاك عبقرىا ! ..

وكان قد احتر من شوطه الطويل ، ومن كل هذه الافكار المثيرة التى هزته ، فنزع سترته « الردنجات » وارتنى مسوح راهب سوداء .. وربطها حول وسطه بزئار أحمر ! .. اعلان همة قعساء ! ..

ثم نادى خادمته « روز » .. وكانت فتاة بسيطة ، سليمة النية ، شديدة الجلد على العمل .. وقال :

— ماذا أعددت ياروز للعشاء ؟

— ما طلبه سيدى ! ..

— وما طلب سيدك ؟

— مرقا ! ..

— مرق ؟ .. سبحان الله ! .. ثم ماذا ! ..

— وسلالة ! ..

— محار ..

— يا للشيطان ! .. وبعد ؟

— تقديمه أولا ؟

— لا .. ان سيدى قال لى هذا الصباح ان أقدمه

فى آخر الطعام ! ..

— ياروز ! .. انت مذهشة ! .. هل عملت قهوة

ثقيلة ؟ ! ..

— أجل باسبدى !

— قدميها اذن مع الحلوى .. ولكن اعملى أثقل منها

كثرا لى .. تضعينها على مكتبى ، فتنتظرنى ، لاننى

بحاجة اليها هذه الليلة ، عندما ينصرف مدعوى ..

والآن ، ها هو ذا الجرس يدق ، فاذهبى وافتحى ..



ولا تدعيهم يدخلون ، فسأزل الى الحديقة ..  
انها كانت « الهة الشعر La Muse » كما كان يطلق  
عليها . كانت « جورج صاند » فخرت من لباسه ، وان  
كانت قد راته بديعا . وكان بلزاك يراها للمرة الثالثة .  
وان كانا ، في المرتين الاوليين ، قد تخاصما وتصالحا ! ..  
وعلى رغم اعتزازه بنفسه واطهار سلطانه ، فقد كان محيا  
هذه المرأة الشابة العاجي ، وعيناها اللتان بلون البرنز  
اللامع ، وفيها الاحمر الفتان ، تأسره الى ابد حد ..  
فكان مرتاحا الى استقبالها . ثم انه كان يشعر بانها  
تعبد . او انها تحسده . وكانت تناديه بـ « يا أستاذي » !  
وكان يهيمه ألا ينقطع حبل أفكاره .. فلم يسألها عن  
قصتها « انديانا » ، التي ظهرت حديثا ، فهو لم  
يقرأها . ( وهل عنده وقت ؟ ! ) .. ومضى يحلم بصوت  
مرتفع في بنسيونه العائلي بشارع سانت جنيفاف ..  
وراح يتخيل نزلاءه .. فتفككت بذلك .. وقالت :  
- وهل رأيت كل هؤلاء الناس ؟  
فأجابها :

سوماذا تفضلين : ان أقول لك : « نعم » ، أم ان  
أقول لك : « لا » ؟ .. فاذا أجبت بالاجاب قلت في  
نفسك : « انه ليست له القدرة على الخلق والابتكار ! »  
واذا أجبت بالنفي قلت : « انه يخدعني » ..  
فابتسمت ابتسامتها الحزينة ، الفامضة ، الساحرة ،  
وأقالت من الاجابة على سؤالها ، وطلبت اليه المضي في  
حديثه ..

وأتى « توماس » ، صديقه الروحي ، الذي صار  
عنده البنسيون العائلي ، برجاله ونسائه جميعا ..  
وجلسوا الى المائدة يأكلون ويشربون .. وهو مالك  
ناصية الحديث .. حتى فكتور هيجو لا يعجبه ! انه



يراه يخلط بين دواوين الشعر ، مثل : « ليثورينتال »  
Les orientales ، ومسرحية « هرناني » Hernani  
والروايات القصصية كقصة : « نوتردام دي بارى »  
Notre-Dame de Paris فقالت جورج صاند :

— لعل هذه ليست إلا تعبيرات مختلفة عن فكر  
واحد ! ..  
وهو يعارضها :

— انها تعبيرات غامضة ، حتى ان هيجو لم يصدر  
كتابا واحدا الا وله مقدمة توضيحا لفكرته ! .. وانه  
يبدأ بتوضيح الكتاب ، ووظيفة الكاتب هي البساطة  
ليستثير الناس ! .. والزمان قلما يجود في جيل واحد  
بأكثر من عشرة رجال ، اذا جاد ! ..

ولما سألوه عن أعظم شاعر في عصره ، وتنازعوا على  
موسيه أو لامارتين أو هيجو ، قال :

— بل هو كوفيه curvier ! .. فهو جبار القصيد !  
وقد ملأ الدنيا ، وأعاد خلق عدة أجيال ! وهو الرجل  
العظيم الذى ينبغى شرب نخبه ! ..

ورفع كأسه .. وأجاب على سؤال من مدام جورج  
صاند ، وجهته اليه بلطف ، ردا على ما قاله من أن البلاد  
بحاجة الى زعيم ! ..

— اذن فأنت ستدخل ميدان السياسة .. و ..  
وتترك الأدب ؟ ! ..

فhez كتفيه ، وفتح رقبة ثوبه الرهبانى :

— الأدب ؟ ! .. ولكن الأدب يأسيدتى لا وجود له ! ..  
ان هناك الحياة التى تعد السياسة . والفن جزء منها .  
وأنا رجل يحيا . وهذا كل شيء ! .. رجل يصنع حياته ،  
ويكتبها ! .. وفى رأسى موضوعان أو ثلاثة مواضيع



لكتب .. تصل الى قلوب لا عداد لها ! ..  
- كالبنسيون العائلى الذى ذكرته لى بشارع سانت  
جنيفاف ؟! ..

- كلا مطلقا ! .. وانما اريد ان اضع قصة اسمها  
« المعركة La Bataille » وستكون هائلة ! .. هي  
خلاصة جميع الحروف ! .. وستبدأ بدوى مدفع ..  
وسينتشر بارودها من السطر الأول .. ولا تنتهى الا  
بصيحة النصر ! .. وسيؤخذ القارىء فى تضاعيف  
العراك كالجندى .. وان كان الجندى يحار ولا يرى  
شيئا .. اما القارىء فسوف يرى .. وسيكون فيها  
الجهاد كله ، من : عناء ، وضنى ، ودم .. وسيكون  
فيها : الموتى : والجرحى ، والقواد ، والأبطال ، والجبناء  
.. وستكون فيها : المهزلة فى المأساة ، والتفاصيل ،  
والنظرة الاجمالية .. وفوق هذا كله : نابليون بلوح  
بقبعته فى الأفق ، مشرق الطلعة فى الشمس الساطعة !  
.. ثم اضع بعد ذلك « ملحق المعركة » .. ساجعله  
عن الجندى الذى زعموه قد مات ، وتزوجت زوجته  
برجل آخر ، وهو يعود ، فلا يريد أحد أن يعرفه ، أو  
يعترف به (١) ! ..

وصاحت مدام جورج صائد ، وقد نظرت الى ساعتها  
على شعاع من القمر :

- رباه ! .. بقى على نصف الليل عشر دقائق ! ..  
ستفوتنى المركبة الى الأوديون ! ..

---

(١) لعل هذه الفكرة نفسها هى التى اقتبسها من بلراك . بعد  
مئة عام . الكاتبان المشهوران .  
« مارسيل نانيول » و « ب . تيفوا » . ووضعنا فيها قصتهما  
التمثيلية الخالدة : « تجار المجد » . التى نشرنا ملخصها فى كتابنا :  
« الموجة العذراء » ! ..  
« ص »



— كلا ! لن تفوتك ! .. ياروز ، هانى الشمعدانات  
الفضية ! .. وانت يا سيدتى .. لقد تشرفت بزيارتك  
لى ، وبمحادثتنا ، وما وصلنا من نتائج .. انك معى ..  
الست معى فى أن المهمة كبيرة جدا ؟ .. فعلينا أن نحس  
بأن الله يظاھرنا ، وأن نستسلم لله .. تفضلى ! ..  
سأضىء لكم بعض الطريق ...

ثم عاد ليعمل ، بعد أن استودعهم الله فى آخر الشارع  
وكانت الشموع قد سالت على كل ثوبه .. فخلعه ،  
وألقيه فى ركن ، قائلا :

— يا مسيو بروسون ( الترزى ) سترجى أن تزيل  
دهنه ! ..

ثم لبس ثوبا آخر ، أبيض ، بزئار أسود ٤٤ وشرب  
فنجانا كبيرا من القهوة ، ونادى :

— روز ! .. انها ليست قهوة قوية ! .. روز ! لقد  
نامت ، فهى تنام دائما ! .. ولا يمكن للانسانية أن تتقدم  
ما دام النوم حليفها .. وورائى عشر مقالات مطلوبة لهذا  
الأسبوع ! .. ثم واجب الذهاب لحضور قران .. يوم  
آخر ضائع .. لابد لى من شراء عربة ! .. ستكون لى ..  
فسأكسب فى الشهر القادم مبالغ طائلة .. وبعد عشرة  
أشهر قد أستطيع سداد أكبر جانب من ديونى ..

وصب فنجانا آخر من القهوة :

— لا طعم مطلقا ! .. لابد لى من أن أشتري البن ،  
وأن أضع القهوة بنفسى ! ..

وأدنى المشعل من تمثال صغير لنابليون فوق المدفأة ،  
وتأمله ، كأنه يلتمس نظرتة ، وكأنما يقيس نفسه به ..  
وقال :

— يا له من رجل منيف فى الرجال ! .. لقد صنع  
كل شيء ... ومازالوا يمثلونه مكتوب الذراعين ! ..



ثم جلس الى مكتبه ، وخط سطرين سريعين على  
قطعة من الكرتون الأبيض ، وعلقها في حمالة سيف  
الأمبراطور .. ثم ضحك من صميم قلبه ، ضحكة  
الظافر .

لقد كتب على الورقة :

« ان ما بدأه نابليون بحد السيف ، سآتمه ، اننا ،  
بسنان القلم ! .. »



لم يدهشه ، وهو في هذه الحالة من العبقرية المؤاتية والفكر الظافر ، أن يجد ، ذات يوم من أيام سبتمبر ، عند ناشره « جوسلان » ، خطابا من سيدة عظيمة ، تعبر له فيه عن اعجابها . خطابا غفلا من الامضاء ، وان كان الورق ، والخط ، والأسلوب ، كلها تدل على مصدر نبيل . ففكر : « هذا طبيعي . وكان حتما حدوثه . أولا لأنى استحقه . ثم اذا رعتنى العناية ، افسحت لى الى صالونات الطبقات الراقية سبيلا ! ..

ولما كان لا يستطيع الهناء المنفرد الآخرس ، فقد تحدث عن هذا الخطيب الى مدام دى برنى ، ملكه الحارس ! .. فقالت :

- آه ؟ .. أحقا ؟ .. أرنى إياه !

- اننى لا أحمله معى لآتنزه به ! ..  
فتنهدت ، وقالت :

- أو أنت تخفيه عنى ! .. لا تفعل ذلك يا حبيبى ! ..

ولا تنس ما أنت مدين به لقلبى المعنى ! .. لماذا ياربى حيل بيننا وبين أن نعيش معا ، بعيدين عن العالم ؟ ..  
ان حنانى كان عندئذ يكفيك .. فلا تتهافت لتفتح فى السر خطابات هؤلاء النساء الفارغات ...

- ولماذا هن فارغات ؟ .. اذلك لآتنهن يقرآن رواياتى ؟



ـ بل لاتهن يكتبن اليك ! .. آه لو رأيت هؤلاء  
النسوة ! ..

ـ وعلى ذلك ، فانت في تسامحك أو في غيرتك ..  
ـ قل في حبي ! .. واقنع بالكلمة الحققة ..  
ـ وعلى ذلك ، فانت لا تسلمين بأن فيهن من تستحق  
النظر ! ..

ـ وهل كتبت اليك أنا ؟ .. استمع الى قلبك ، لا الى  
غرورك . ان قلبك ، عندما تريد ، هو اكبر واعظم !  
وانى ، اذ احدثك هكذا ، لا اذافع حتى عن حبنا .. وانما  
انظر الى ما هو اسمى من ذلك . وأفكر في مواهبك .  
فهن سيفسدها عليك . وكلهن يردن الاتصال برجل  
شهير . فحذار ، اذا كنت تحب مجدك .. حذار من  
الفتنة بالنساء : متاع الفرور ! ..

فلما مضى عنها ، وقد اغرورقت عيناها بالدمع ، نظرت  
الى مرآتها ، وقالت : « ان المستقبل لا يمكن أن يكون  
لى . فلم أعد الا شيئا قديما ضعيفا .. ولكننى قد  
تمسكت من مجامع قلبه ، ولن تمتد يد الى اختلاس  
الماضى .. » !

أما هو ، فى عودته الى بيته بشارع كاسينى ، فكان  
يفكر هكذا : « انها لا تذكر كيف نالت بالأمس كل شيء ..  
فهى تتحدث عن كفايتى ومواهبى ! .. ولكننى فى حاجة  
الى انعاش هذه الكفاية ، وتغذية هذه المواهب ! .. فلا  
يجوز أن نحول الاحتياجات الفنية البسيطة الى خيانة  
مؤلة ! .. » ومع ذلك فقد ظل ضميره يحاسبه . فترك  
خطاب المرأة المجهولة بضعة أسابيع بلا جواب .. وبعد  
لاى كتب :

( سيدنى . اتوسل اليك ان تذكرى لى اسمك ! .. )  
فجاءه ردها :



( المركزة دى كاسترى - شارع دوباك )

فبهر : « صدق ما خمنتہ ! .. أهذا هو ما تطلق عليه لور : « امرأة فارغة » ؟ .. الأولى ألا أحدثها بعد هذا هذا الذى يقدمنى فى مجتمع باريس .. ولكنها صدقت فى توصيتها لى بالحذر .. ان مركزى يقضى بذلك فاذا كانت سيدة كبيرة تعجب بى ، وتعطينى عنوانها ، فلن يكون ذلك سببا للجري الى لقائاتها .. يجب أن أنتظر ، حتى نسألنى هى ماذا أنتظر .. »

وكان من القوة بحيث أنتظر فعلا . صبر وظفر .. ولم يقصد قصر شارع دوباك الا فى ٢٨ فبراير ١٨٣٢ ، بعد ما وجهت اليه الدعوة . على أنه كان يذوب شوقا لرؤيتها . وقد سأل عشرين شخصا عنها . وكان يعلم أنها سيدة عريقة ، تعيش منفصلة عن زوجها ، وأنها على جمال عظيم ، وأنهى قد عرفت الحب عن غير طريق الزواج ، باتصالها بالامير فيكتور دى ميترنخ ، ورزقت منه ولدا .. ولم يكن هذا كله الا ليزيد نار بلزاك اشتعالا ! ..

وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم الثامن والعشرين، كان قد استأجر مركبة لتوصله ، ولم تكن قد جاءت بعد ، فهو ساخط .. وسلموه خطابا .. فاستعاذ بالله من أن يكون تغييرا للموعد ! .. ولكن طابع البريد كان من بولونيا . مدهش ! .. ألكون هناك معجبة بعيدة ؟! كان الأمر كذلك فعلا ! وكان الخطاب من امرأة ، امرأة قراته ، وقراته بعناية ، وتحمست لكتبه الأولى ، ووقعت خطابها بامضاء « الأجنبية » .. وكان خطها أنيقا ، دقيقا .. وكان أسلوبها رقيقا ، شاعرى اللهجة كانت فيه نفس تحس ، وتشعر .. فابتسم ، قائلا لنفسه : « اذن فأوربا كلها تقرأنى ! .. فسأروى ذلك



فى قصر شارع دوباك.. وكل محبوب يغار فىسهل ! ..»  
وجاءت العربية أخيراً ، فألقى نظرة أخيرة على سترنه  
الجديدة الخضراء ، وصدريته الكشمير ، وأهاب بالسائق  
أن يسرع .. وصار يمنى النفس ، فى الطريق ، بعقد  
محالفة بين المجتمع الراقى الأرستقراطى وبين أفكار  
أونوريه دى بلزاك ! .. فكلتا القوتين بحاجة الى  
الأخرى ! .. حتى اذا ما وصل ، راقه ذلك الحى ،  
الصامت ، النبيل ..

نم دخل الفصر متحدياً ! .. فأدخلوه الى خدر  
المركيزة ، حيث كانت معتكفة ، متمددة على ديوان ، فى  
ثوب بيتى ( بنوار ) من الكشمير البنى .. فرأى ، من  
أول نظرة ، أن شعرها الأشقر يتألق كالذهب البندقى ،  
وأن محياها شبيه بوجه دمية صغيرة .. فانحنى ..  
فقال :

— ما أشد سرورى بمعرفتك يا مسيو بلزاك ! ..  
ولكننى آسفة لأنك تجدنى اليوم مريضة ! ..  
وكان أمامها ، على مقعد كبير ، سيد فى بذلة سوداء ،  
فقال بلزاك :

— سيدتى ، تجنبى الأطباء ، وأنت تشقين ! ..  
فقالت المركيزة ، مخاطبة الرجل ذا البذلة السوداء :  
— أسامع يا دكتور ؟ ..  
— أسامع يا دكتور ؟ ..

فتمتم بلزاك محاولاً أن يعتذر بأنها دعاية بريئة ..  
ولكن الرجل نهض ، وحيا المركيزة ، وانصرف ، دون أن  
يعير بلزاك نظرة ... وكان كل ما حول المركيزة ينطق  
بالثراء الطائل ، والذوق المصفى : هذه التحف ،  
والنحائف ، والمراوح ، واللعب ، وقواوير العطر ،  
والطرف : لوازم المرأة الأتيقة التى تهيم بها ، واثاث



القرن الثامن عشر النادر ، وبساط هو متعة للعينين ،  
ولذة للقدمين .. وما الى ذلك مما ينطق عن : اليسر  
الموفور ، والجاه العريض ، والعز الطويل ... قيات  
المرکيزة :

— والآن تخلو لتحدث ...

وعندئذ تجلى له حسنها العجيب ، ومحياها الوردى  
النضر ، وجبينها الفاتن ، الذى كان لا ينقصه الا التاج !  
وكان شسعرها مزيجاً من الذهب والحمرة ، فهي  
شقراء ، غير أن فى شقرتها نارا تتلظى ! .. وكان ثغرها  
بريئاً ، وعيناها فاجرتين ! .. قالت له :

— لقد كدت أياس من رؤيتك ! ..

فأجاب بلهجة الصدق :

— سيدتى ، ان حياتى عمل شاق متواصل .. والعمل  
هو كل شىء عندى . فأنا لا أخرج أبدا ! ..

فقد كنت منذ خمسة عشر يوماً عند البارون جيران ،

— آه ! .. يا مسيو بلزاك ! .. بالله لا تبالغ ! ..

ويوم الثلاثاء عند صديقتى المركةزة دى لابوردونيه ! ..

— اننى لم أمكث الا ساعة ! ..

— اننى لا أعتب عليك شىئاً .. ولكن .. لقد

غرت ! ..

وحدثته عن بطلة احدى قصصه . وسألته : هل

لها وجود فى حياته ؟ .. فتركها تفهم ، من طرف خفى ،

ان لها فى حياته وجوداً ! ..

لقد كان للمركةزة ماضيها .. فحرصت على ان

تشعره ، للوهلة الاولى ، بأن له ماضيه .. غير انه كان

من دونها الغبور ! .. وتسائل :

— ما اعظم فضلك بدعوتى اليك ! .. فأين لنا ، نحن

الفنانين ، العماد المخلص ؟ .. أين الاصدقاء الحق ؟ ..



انى لمن كان مثلى ان يلقاهم ؟ فانى انام فى الساعة السادسة ، فى الوقت الذى تستعدون فيه للذهاب الى المراقص ، والسهرات .. وقد حالت تلك المشاغل طويلا بينى وبين الحضور لرؤيتك .. فقد كنت منطويا على ذات نفسى ، أتأمل ما يدور فى دماغى ، وأدونه ، وكأننى لم أعد انسانا من هذا العالم !..

فبدا عليها الاصغاء له بشغف . فقد بدأ يتكلم ، ولا يتوقف .. ولما دقت الساعة الخامسة نهضت معتذرة اليه بأنها مضطرة الى الخروج :

ولكننى سعيدة بزيارتك . واعلم انك تجدنى دائما فى المساء ، حتى العاشرة ..

فخرج مفتونا . وحدث نفسه ، وهو ينزل شوارع دوباك ، متجها الى طريق سيفر : « سوف أحبها !.. سأحبها !.. انى أحبها !.. أخيرا ، قد وجدت امرأة جميلة ، دونها أهوال !.. هذه هى نشوة الحياة والحب !.. انى أذوب شوقا اليها .. وانى أريدها قبل أن تطلع شمس الغد !.. وانى ، ولاشك ، قد عرفت من قبل امرأة هى ملك .. امرأة فعلا .. ولكن هذه هى أنثى بكل معانى الانوثة !.. هذه امرأة ، ليست أما ، ولبست صديقة ، ولكنها خلية !.. »

وسار مسرعا ، حتى تصيب عرقا : « انى أسمن .. وهذا فظيع ! » . ونادى مركبة .. وبدل ان يعطى السائق المندهش عنوانه قال : « لا بد من خلية ، آية فى الجمال ، تتحدى كل النساء والعذار .. أما مابقى من الحب فليس الا خبا » !..

وبعد يومين ، فى الساعة العاشرة مساء ، كان عندها . وكانت المركيزة فى ثوب الرقص ، وفى زهوة الحسن .



وكانت واقفة أمام المصطفى ، تدفء قدميها الصغيرتين ..  
فبادرها بقوله :

- انت ! .. انك جديرة بالآلهة والارباب .. ولشد  
ما انا آسف ، لأننى لست الا بشرا ! ..  
فابتسمت ابتسامة فاتنة ، وقالت :

صديقة وافرة الجمال .. تحبك ؟  
- وافرحنا ! .. اسرعى فاذكرى لى اسمها ! ..  
فتمنعت :

- يستحيل على ذلك ! ..  
وكان دلالها يزاحم جمالها . فكاد قلب بلزاك يقفز  
من ضلوعه ، وهتف به صوت داخلى : « يا ويلنا من الا  
سبيل الى القول على الفور لامرأة كهذه : اننا نحبها ،  
واننا نعبدھا ، واننا نريد العيش دائما معها ! .. فهكذا  
هكذا تكون الحياة جميلة ، وبطيب العيش ! .. »

ولاحظ عليها انها ان لم تكن مفتونة به ، فعلى الاقل  
بشهرته البادئة ، وانها ، على الضد من كثيرات من  
النساء اللواتى يفتحن صالوناتهن فى باريس لمشاهير  
الرجال ، كانت تريده لنفسها ، لا لتعرضه على  
صاحباتها .. فيالها من امرأة عزيزة ! .. وراحت تقرأ  
عليه مقالا فى احدى الصحف عن كتبه ، انكر اطلاعه  
عليه ، فقالت :

- اذن فاسمع : « ان كتب بلزاك سببت الارق  
والسهاد فى قصور الاغنياء ، وفى اكواخ الفقراء ،  
وصوامع الشعراء ، على السواء .. »

وكان هو الذى كتبه ! .. فعادت تقول بحرارة :  
- ليت شعرى ماذا يصيب النساء اللواتى يهمن  
بك ، لو اننى اخذتك معى فى الربيع الى قصر فينيسيا  
- انى لا ارى بك بأسا كرجل .. اتعرف ان لى



( البندقية ) .. وهناك نغلق على انفسنا بابا ، أنت وأنا ، فلا تكتب عندئذ الا لى !..

فينيسيا !.. قصر !.. أنا وانت !.. لقد أصيب بالدوار من هذه الكلمات .. ماذا تعنى بها ؟.. أهو منها غرور ؟ أم هو حب ؟.. أم هو حلم ؟.. أم هو حق ؟..

فلم يجيبها .. وانما ارتمى على كوفيتها ، وقبلها كالمخبول .. فقالت فجأة :

- رباه !.. قد انتصف الليل !.. انى قد تأخرت الى حد فظيع !.. اتحب ساعة الحائط الصغيرة هذه ؟ انها كانت للملكة مارى انطوانيت .. وفى فرساي كانت تعد لها ساعات هنائها الاخيرة ..

فقال بلزأك : « رباه !.. انها لاتدلى أنا الا على الدقائق المولمة التى ينبغى لى عندها الرحيل !.. »

ويالها من ليلة قضاها !.. ويا للأيام التى تبعثها !.. ان الحب الآن يجيش فى صدره ، ويلعب برأسه !.. ولما عاد اليها ، بادرها ، قبل التحية ، بقوله :

- انى أعبدك !.. انى لا أستطيع العيش محروما منك !.. اننى لم أشعر قط بالحب قبلك !.. انك أنت التى تعلمنى الحب !.. انك امرأة هبسطت على من السماء !..

فنظرت اليه برعب ، وابتعدت ، وتشاغلته عنه .. ودقت الجرس لخدام لتكلفه بأى شىء .. وتغير الجو .. ثم قالت بصوتها الذى لا طابع فيه من التأثر ، قالت لذلك الرجل الذى عبر لها بفقلة المجنون عن العاصفة التى تهب على قلبه :

- هذا خبر جديد .. من ذا الذى كان يخطر له مثل هذا ؟ !..



وكانت تلك المركيزة دى كاسترى امرأة لاتعرف  
الحب . كانت امرأة صالون ، ومظهر ، ووجاهة .. كانت  
تريد أن يتهالك عليها هذا العبقري الفذ ، والنجم البارع  
في سماء الأدب ، حتى تستغله في أهوائها الشخصية ،  
ونزعاتها السياسية ! .. فسخرته في الدفاع عن  
« الدوقة دى برى » .. وبذلك أقحمته في الحزبية ،  
هو ، الكاتب الروائي ، الذي كان يجب أن يبقى بنجوة  
عن الأحزاب .. فانقاد ، مغمض العينين ، واستسلم  
لهذه الأهواء كالطفل ، زاعما ان هذا هو الحب ! ..

وتورط في المظاهر . لا بد من ان يصبح في نيابه ،  
وهيئته ، وفي عيشه ، ومسكنه : منسجما مع ذلك  
الحزب السياسى الوجيه ، الذى بنطق بلسانه ، ويدين  
بمذهبه ! .. فهو يوصى خائطه « بويسون » ، بشارع  
ريشليو ، بأن يتخير له ألوانا وأشكالاً معينة من  
الردينجوت . والصدريات الكشمير ، وغيرها وغيرها  
وكان هذا « الترزى » رجلاً متسامحاً ، ساذجاً ،  
يعد حبال الحساب لهذا الكاتب الشهير ، وبضعف  
للفصاحة ، وبتأثر بالبلاغة ، ولا يستطيع ان يقاوم خلافة  
عميله القصصى الجذاب ، فدخوله عنده ، وحدثه  
معه ، وتوصيته إياه ، تساوى لديه ما تساويه النقود  
مئة مرة ! ..

ويقرر أونوريه شراء مركبة بحصانين انجليزيين  
مطهين ! .. ويصر على ان يكونا أنيقين ، يتطاير من  
خوافرهما الشرر ، ويتصاعد من شدقيهما الزبد ! ..  
ثم لا يلبث ان يشكو كثرة أكلهما ، ويقول : « يا للملعونين !  
ان حساب الأسطبل ليس له آخر ! .. انهما لا يتفديان  
بالأشعار ! .. » ولكنه لم يكن يدفع حساب  
الترزى ، ولا حساب الأسطبل ! .. انه كان يمنى النفس



بالدفع السريع .. أو ليست لديه مع ناشري كتبه عقود  
عظيمة ؟ .. وعليه ان يمضي في العمل ، العمل المجهد  
الذى سوف يتمخض عن آيات بينات ؟ .. ويمكن لدائنيه  
ان يناموا ملء الجفون ، فهو لا يلبث ان يلعب بالذهب ،  
ويقوم المآدب الفخمة ، والاستقبالات المشهورة ، ويدعو  
الى الاوبرا ، والمطاعم الشهيرة ، والشانزليزيه ، ويفتح  
الصالونات ، ويشهد المراقص والحفلات ..

وفي أثناء ذلك الهوس بالحب الارستقراطي ،  
وبأرستقراطية الحب ، تكتب اليه مدام دي برنى ، من  
ضيعتها بقرب « نيمور » ، تقول :

( تعال ، لترانى ، يا معبودى ! .. ستكون هنا ، الى جانب عزيزك ،  
أسعد ما نكون حالا ، وأخلى بالا ، فنكتب كبرا ، ونكتب طويلا ..  
وسأساعدك ، وسألهمك ! ان الحب خلاق عظيم ! )

فيجيبها :

( ليتنى أستطيع يا صديقتى المسكنة ! فانى فى صدد المفاوضة فى  
عملية نسر قد تحول حياتى وبديلها ، وبعائى ضرورى . ثم لابد من  
الكتابة أيضا ، والكتابة دائما ! .. عشر ملازم فى اليوم ! وأنا أشتغل  
الآن سواد الليل . فالى اللقاء أيتها العزيرة .. فكرى فى قبيل  
المنام . فهو الوقت الذى نرتاح فيه جميع الكائنات ، أما أنا فأدا فيه  
العمل ، وأدأب ! .. )

ولم يكن فى هذا كاذبا الا بعض الكذب . فان الحياة  
المترفة التى دخل فيها تتطلب نفقات طائلة . يريد ان  
يمثل الحب ، ويمثل الحزب . فهو يفرق الآن غرفته  
بالزهور : « لم يعد لى الحق فى أن أستنشق كفلاح ،  
كما لم يعد لى الحق فى أن أفكر كخفير ! »

وهو يفكر ، ويتنفس ، ويكتب ، ويجرى ، كعاشق  
واله مفتون . فيقضى ما بعد الظهر كله مع المركيزة . وفى  
المساء ، يجلس الى جانبها فى مقصورتها بدارالتمثيل .  
ثم يقودها الى قصرها . وفى المركبة يتناول يديها ،



وذراعيها ، وبقبل ركبتيها .. وهى تدعه يلهو ويعبث ،  
حتى اذا ما كانت زاوية شارع دى فارن وشارع دوباك ،  
اصلحت من شأنها ، وزينتها ، وشعرها ، واستردت  
جمود الوجاهة ، وقالت له ، أمام خدما وحشما ،  
على عتبة القصر : « وداعا يامسيو دى بلزاك ! » ..  
وهذا ما يصعق له العاشق المشدوه !..

فيهرب فى صميم الليل ، لا يلوى على شيء ..  
من تكون هذه المرأة ؟ هل هى ملك كريم ؟ هل هى  
وحش ضار ؟ .. لماذا تتركه يتناول منها القيسلات  
المجنونة ؟ .. لماذا تهمس بكلمات مستعرة ؟ .. لماذا  
تستسلم للأهواء والبدوات ، ماعدا : الهوى الاعظم ؟ !  
ماذا تريد ؟ .. ماذا تنتظر منه سوى أن يطلب ما يطلبه  
بالحاح المجانين ؟ .. فاذا كانت لا تحبه ، فكيف تعطيه  
يديها : ووجهها ، وشفتيها ؟ .. فضلا عن نظرتها  
وكلمتها ، وقبلتها ؟ ! .. ثم هى تندفع اليه فى هوس ،  
كاندفاعه اليها .. ثم لا تلبث أن تتمالك ، وتتماسك ،  
وتمتنع دائما ! .. فهل امتلاكها أمرها ، وسيادتها  
على نفسها ، وتحكمها فى عاطفتها ، هو مزاجها وشهوتها ،  
وليس لها غير ذلك شهوة ومزاج ؟ ! .. اذن فهو شيطان  
الكبرياء قد تمثل امرأة ! .. فى حين انه ، هو ، الكاتب  
الشاب ، يتكسر ضلوعا ، ويتقطع أنفاسا ، وبموت  
اشتفاء !..

وكان كلما زعم انها أصبحت له أبعد ما تكون عنه ..  
كانت تحاوره ، وتداوره .. كانت امرأة من ذلك النوع  
الوصولى ، الذى يريد أن يبلغ أغراضه فى الجاه  
والسلطان ، ولو على أشلاء الرجال .. ولو داس ، فى  
كل خطوة ، القلوب ، والعقول ، والأجسام !..  
وجاءها ، ذات يوم ، وهو يشتعل ، ويتلظى كالجمر



الحبيس في الموقد ، معتزما كل شيء ، بعدما كان قد غادرها في الساعة الثانية صباحا ، وقد أنهكته ألوان من الملاطفة المضنية ، والملاعبة المهلكة .. فوجدها في حديث مجدى وقور مع رجل من كبار رجال الدين ، تعترف له ، وتفضى اليه .. فعرفتُهما بعضهما ببعض ، قائلة :

— لقد كنا في انتظـسـارك ، يامسيو دى بلزاك ، « المنسونيور » وأنا ، لنسمع من فمك القول بضرورة رد عظمة الدين السابقة اليه ، واعادة جلاله .. أو ليس واجبا على فرنسا ان تعيد الى الاساقفة مقاعدهم في مجالس السلطان ؟

فبهت بلزاك ، وكاد ينفجر .. وأحس بأن في داخله أسدا غاضبا يزأر .. فنظر اليها بعينين ناريتين ، لم تلبث ان خبت نارهما ، وحل محلها نورهما .. فقد كانت امرأة شائقة ، ناصعة ، في ثوب أزرق ، تتدلى أكمامه ، ويتساقط الهناء من أناملها ، أنامل تلك اليد الناعمة ، البضة ، ذات الاظافر العنابية ، التي طالما أمسك بها ، وضغط عليها ، وطالما لثمها ، وقبلها .. ربه ان الاسد قد ارتد نعامة ! ..

وانصرف القس بعد ساعة لاحت دهرًا .. فتمتم بلزاك والدموع في العينين :

— أكون لك اذن قلب مجرمة ، ليحمل كل هذه التعدييات ؟ أفلا تشعرين بأنى أتألم ، وأنى أموت ، وأنى سأذهب ، وأنى سأنتقم ؟ ..

فرفعت كتفيها الصغيرتين ، وأضافت الى النسار خشبا ، وقالت :

— عندما يكون المرء نبيل المنبت ، فعليه أن يقوم بتكاليف النيل . أما وأنت نبيل ، مادمت توقع باسم



اونوريه دى بلزاك ، منذ سن السابعة والعشرين ، ولم  
تترك لقب الشرف هذا الا عندما اشتغلت بالطباعة ..  
اليس كذلك ؟ ..

فأحس بأنها تتعمد ان تجرحه .. وبدا له ان يرتدى  
عليها .. وان يصرخ فيها : « أى حيوان هو أنت ؟ ! .. »  
لقد خدعت فيك ! .. »

ولكنه ما كان ليأتى بحركة غير موجهة من مخيلته ،  
تابعة لنزعات قلبه الكريم .. فتوقف ، وجلس ، وأخذ  
رأسه بين يديه ، وزفر : « رباه ! . رباه ! . »

وأعلن الخادم حضور أحد الناس . وارتجف الاسد  
على ساقيه . وانسحب ، وهو يلقي على ربة صبايته  
نظرات التائه الضائع المحروم .

ووجد في ذلك المساء رسالة من سديقة كريمة ، هي  
مدام زولماكارو Zulmacarraud .. وكانت في سن  
أخته لور ، وكانت رفيقتها في المدرسة . وقد رآها  
عندما تزوجت من كابتن في المدفعية ، وسكنت فرساي ،  
ثم سان سير ، وقد زعم عندئذ انه بحاجة الى وثائق  
تلزم قصته المشهورة « المعركة » ، فتقرب من الحربيين  
ثم صار الكابتن قومنداناً . وانتقل وأسرتة الى  
« انجولم » مع مدفعيته . وكانت مدام كارو امرأة  
رقيقة ، ذات قلب رشيد ، وذكاء حاد ، وفكر أنيق .  
تذوقت فن بلزاك الرفيع في قصته : chouans ، و « المرأة  
في الثلاثين » .. وكانت مفتونة باستقبال مؤلفهما في  
دارها ، فكتبت اليه :

( تعال اذن . يابلزاك العزيز . فالقومندان ينتظرك . ولن نرءجك  
فتسطيع أن تعمل هنا خيراً مما تعمل في باريس . قاتلة الرجال ! .. )

ولم يكن على استعداد للشعور بالصدقة الكريمة  
الخالصة في مثل هذا الخطاب . فكتب مبدياً أسفه لأنه



ليس حرا . فهو مشدد الى مكتبه كالمحكوم عليه  
بالاشغال الشاقة ، المقيد بالاصفاد ! ويستحيل عليه ان  
يضيع يومين في الرحلة . ولا يجوز له التفكير في الخروج  
من فرقته . بل انه لا يكاد يستطيع الرد بخطاب طويل .  
فيالها من حياة ! وما دامت أسرة كارو تظهر له المحبة ،  
فهو يعتمد على صفحتها وعطفها .

واستغرق منه هذا الخطاب خمس دقائق . ثم مضى  
من جديد ، جسما وروحا ، الى جنونه العزيز . . فزعم  
نفسه عند المركيزة دي كاسترى . فهو يراها ، ويدنو  
منها ، ويلمسها . ربما كانت المرأة صانعة زائفة . ربما  
كان قلبها ملونا كوجهها . ببسدها ، مع ذلك ، في  
زيفها . . يالها من امرأة ! . . ويا للنبيل ! . . ليس فيه  
من التبذل لمحة

وهو اذ يفكر فيها ، يراها معينا للقوة ، ومصدرا  
للالهام ، مادامت مخلوقة كريمة العنصر ، نبيلة المنبت :  
« اننى لا أعبدتها عبثا ، ان عملى مرسوم ، وجهدى  
مرقام . . انى اراها تخفق بين يدي . . وأملى فيها  
قوى عريض . . وسأجعل منها امرأة حقيقية ! . .

وظل في هذا الجحيم ثلاثة أشهر . وهو معتزم ان  
يحول الجحيم نعيما . وقد كف عن التهديد ، كما كف  
عن التوسل . فشكرته بأن أرسلت اليه يوم عيده ، في  
١٦ مايو ، زهورا . وقد وجدها من الجمال بحيث  
جفف بعضها ووضعها في كتبه . ثم بدا عليه انه منذئذ  
يعرف المستقبل ، ولم يعد بشك فيه ، وراح يتسلف  
الابتسام له . والترحيب به . .

وانحنى على كتفها وهو يقول :

— لشد ماتكون سعيدين باسيدتى . . عندما

تصبحين خليلتى ! . .



— وبعد !.. اذا انا سلمت لرغباتك المبتذلة الشنيعة؟  
فقبل يديها بصباية :

— يالك من معبودة !

— ثم تخوننى بعد ذلك .. فأى ضمان لى ؟

— أقسم أن أقتل نفسى اذا خسك !..

— اذن فأنت رجل محكوم عليه بالموت !..

— يا لهذا الغرام !.. وآه من لذاته !.. قال بلزأك :

— هاتى الجبين الذى يفكر فى مثل هذه الامور، وهاتى  
الفم الذى يعبر عنها !.. هاتى !..

فتبيح له من جديد ألوانا من العبث والغزل أشد  
ماتكون جرأة .. تبيحها بعدم اكتراث يحير العقول ..  
أو تبيحها ببراعة رذيلتها الفائقة !..

تم حدث يوما — بعد كل هذه الإباحة المتكررة ، التى  
جعلته يتوقع الهناء المرموق بين عشية وضحاها — ان  
رآها تصدر الاوامر المستعجلة فى بيت يلف فيه الخدم  
السجاجيد والبسط ، ويضعون البياضات على الاثاث  
لحفظه من التراب .. فدهش :

— ماذا يجرى ؟..

— يجرى ما أعلنتك به منذ اكثر من ثمانية أيام ،  
ولكنك لم تكن تسمع الا ذات أقوالك .. فانى مسافر  
الى « اكس لوبان » لأستريح .. وعندما يطيب لك ان  
تجىء لترانى ..

— انا ؟.. آه !.. ابدأ !.. ابدأ !..

وهكذا ارتد من جديد أسدا غضنفرا ، ينفث فمه  
نارا ، وترسل عيناه برقاً :

— ولكن أية امرأة أنت ؟ !..

ولم يرها بعد . بل تركها ترحل وهو يترقرق فى بيته  
لاعنا الحب ، اذ أحس بنفسه يتحول رجلا شريرا ،



حقودا ، مذنباً .. آه ! ما أحوجه الى نفس لطيفة ،  
تعزيه ، وتشفيه ، وتجعل منه رجلاً متزناً ، كريماً  
ففكر في مدام دي برنى . ولكنه لا يستطيع أن يلقاها  
في هذه الآونة . وان يعانى أسئلتها ، وان يعترف لها ،  
لها هى « الملك » ، بأنه - على رغم كل شناعات هذه  
المرأة التى لا روح لها - مازال بها صبا مدنفاً ! .. فظل  
بضعة أيام حيران يتخبط : يستقبل أصحاباً ، ويشرب  
خمراً ، ويشترى ، ويفوه بأقوال شرسة ، ويوصى بملابس  
جديدة ، لأنه لا يستطيع ارتداء تلك التى كانت تقول  
المركيزة انها تحبها ! .. وحبس نفسه ، يحاول الكتابة .  
فلم تتمخض خلوته الا عن صفحات شريرة تسب الحبا  
وأخيراً ، بينا كان يرتب أوراقه ، وجد خطاب مدام  
كارو ، ذلك الخطاب الرقيق الكريم من صديقة مخلصه  
معجبة : « تعال ، أيها العزيز بلزأك ، فلن نزعجك ..  
وستعمل هنا خيراً مما تعمل فى باريس قاتلة الرجال »  
فراى ، من خلال ذلك : الراحة ، والهدوء ، والبوح  
قرب امرأة لها قلب ، تسعى اليه ، وتترك مابه . فأسرع  
بالكتابة :

( انى لات .. اذا كنتم مازلتُم ترهبون فى )

ولقد كانوا فيه من الراغبين . فتهافت الزوج  
والزوجة وولدهما « ايفان » على قارعة الطريق ،  
ينتظرون عربة البريد التى تحمله .. وقد وضعوا  
زهورا فى غرفته . فصاح ، اذ رأهم ، بصوت يتهدج  
تأثراً :

- الآن أعرف ما هو الهناء اذ أراكم ! ، أيتها الوجوه  
العزيزة ، يا للطمانينة التى تشيعونها فى نفسى ! .. انكم  
تنقذوننى من حياتى الشاقة ! .. وأحس انكم تحبوننى  
.. وانى آت اليكم كما لو كنت اقصد طبيباً معالجا ! .



وقد نبذت أعدائي ، وأشغالي ، وأوراقى ، وكل شيء !  
وجئتكم بقلبي وحده . قولوا لى فى أية ساعة نتعنى ،  
ومتى ننام ، وبم يلعب الولد ، انى اليوم طفلكم فى اجازته .  
أعدوا لى خبزا مدهونا بالزبدة .. هل على أن «أرش»  
الحديقة ؟ وأريد أن أربى الارانب !.. أيتها الصديقة  
العزيرة ، انى أرى على وجهك نضره .. وكذلك  
القومندان ، لولا بعض التكرش !.. ماذا يقول ؟. ان لى  
كرشا مثله ؟ أتعرفون انى أحب هذا الحوش ، وهذا  
البيت ، وهذا الزيزفون ؟.. هل حصدتم زهرا ؟.. آه  
ما أنقى هذا الهواء الذى نستنشقه !.. انى الى جانبكم  
أضع نفسى المعذبة ، لتستجم ، وتستروح !..

ونرى زولماكارو مشفقة من أن يجدها قد أصبحت  
فلاحة ، معتمدة على الصداقة لتمحو عندهما صبغها به  
الريف .. فما أكثر ما قرأوه فى الصحف عن بلزاك ..  
وانه لا يتبع « الموضة » فحسب ، بل يبدعها !. وان  
النساء يتبعنه تارة ، وانه يتبعهن تارة أخرى !.

وهو ينكر ذلك بتراخ .. وكان البيت بسيطا ،  
منيرا . فالصالون وقاعة الطعام فى الدور الارضى ،  
والغرف فوقها . وكانت غرفة بلزاك منفصلة بمخدع  
صغير عن غرف كارو .

ويستأذن القومندان ليهب الى عمله . ويخلو بلزاك  
بمدام كارو ، فتقول له :

— سأتركك الآن لتستريح ..

— ماذا ؟.. تتركيننى وحدى !.. لكى أهلك من  
الضجر !.. اننى لا أرتاح الا مع الحديث .. أين تذهب  
لنتحدث ؟.. هنا ؟ أم فى الحديقة ؟ أم على شاطئ  
النهر ؟..

— هنا .. لنرعى ايفان ..



وكان كل ماحول بلزاك عندئذ : عشبا ، وزهرا ،  
ونسима عليلا ، وعصافير صادحة .. وامرأة شائفة ،  
يحن القلب لما طبعت عليه من بساطة صريحة . هي  
واحدة من أولئك اللواتي يحس المرء أنهن ، طول العمر ،  
فتيات طاهرات . ولم يكن الوجه باهر الحسن ، غير  
ان النفس المتزنة تغدو عليه حسنا يتفجر كالماء الزلال ،  
من فم نقى . وعينين هادئتين ، تريان ، وتحكمان ،  
بنزاهه وعدالة . وكان بها عرج خفيف . وكانت تدوب  
مرارة من عاهتها هذه في سن العشرين . وقد بشت  
بلزاك ، يوما ما ، حزنها لما أصابها به القدر . فعزاها  
صادقا بقوله :

— قد تطلع قدمك ، أما عقلك فهو رصين مكين ..  
وستكونين زوجة عظيمة ، وأما لا مثيل لها ..  
لم تنس ، فيما بعد ، هذه الكلمات الرقيقة . كما  
كانت قد ذكرت في يوم زواجها ، رغم انها كانت سعيدة  
مرحة ، اونوريه بلزاك ، شقيق احدى صاحباتها ، الذي  
كان دائما رقيقا ظريفا ، تلمع عيناه فطنة ، ولا ينطق  
الا بما يوحيه اليه الفؤاد .. ذكرته في لحظات نأثرها ،  
وحلمت به ! ..

ولم يكد يمضي عليهما معا ربع ساعة ، حتى كان  
روحاهما المتحابان يتناقشان بحدة .. قالت :

— انك تعلم يا صديقي العزيز اعجابى بك ، وحرصى  
على مكانتك ، وما أنتظره من مواهبك ، وشغفى بكتبك  
أتطلع كأخنك الى ما سوف تصدره لنا منها غدا !  
ولسكنى قلقة عليك .. لأنك بدلا من أن تدخر قواك ،  
التي أنت في أشد الحاجة اليها ، لهذا العمل ، الذى هو  
عمل مقدس ، توزعها ، وتبذر فيها ، فى مشاغل تحولك  
عن طبيعتك .. فى حين ان هذه الطبيعة هى التى عليك



ان تتعهدا ، وترعاها ، وتتعمق فيها ، لتكون صيحاتها  
يوما صيحات العبقريّة ، التي ينتظرها أولئك الذين  
يحبونك .. ولشد ما تألمت ، وأقسم لك ، من قراءة  
تلك السـخافات عنك .. كحفلانك ..  
ودعواتك .. وزينتك ، وهندامك .. و .. غرامياتك !  
- غرامياتي ؟ ..

- بلى ! .. مادمت تسمح بأن ينشروا عنك ان كل  
قارئائك يتفزلن فيك .

- هذه غباوات يا صديقتي العزيزة !

- أعرف ذلك ، ولكن هل هناك دخان بلا نار ؟  
أحقا ان لديك فيتونا ومركبة ، وخيولا انجليزية مطهمة ،  
وحوذيا في حلة الامراء ؟ .. وانك تنزه فيها مدام دي  
جيراردان ؟

- هذه تكاد تكون رفيقة الصبا ! ..

- حسنا ! .. لا أرى في هذا ضيرا .. اذا كانت العربية  
عربتها ! .. ولكن من الذي يدفع تكاليف عربتك ؟ ..  
- اننى أدفعها كلها ، حتى آخر دائق ! ..

- متى؟ كيف؟ ثم بأى جهد ، وأى ثمن من دم القلب  
وعرق الجبين !

- أى صديقتي العزيزة ، صديقتي الطيبة . ان  
المستقبل لله . فهو الذى يوجه خطانا . ولكن ليس لى  
ان أعيش ، فى حاضرى ، عيشا ذليلا خاملا . وآه لو  
عرفت كم فكرت فى هذا كله ، واننى لا أصدر فى  
تصرفاتى عن نزق وطيش ! .. ففيم اذن الحضارة ، اذا  
كان خيارنا لا ينتقمون بها ؟ .. انها النفوس المرهفة  
الحس ، الخليقة بأن تستمتع بطيبات الحياة .. فلماذا  
لا تؤمنين بأن الترف لازم لى لزوم الخبر الفليـظ  
للآخرين ؟ .. هناك عميان لا يفرقون بين زوج من الاحذية ،



ذى الجلد اللامع كالبللور ، وآخر ذى جلد مشقق مرقع  
كالبثور !.. أما انا ، فمتى نظرت ، رأيت ، و فرقت ،  
ولم أعد أستطيع ان أضع فى قدمى الزوج العنيق ..  
استحالة مادية ، وعملية حسابية !.. ولا ينبغي ان  
تؤاخذ و تلام على ذلك عيناي ، وذوفى ، وروحي ،  
ومزاجى ، وشعرى !.. فالحاجة الى تغيير نيسابى  
وأزيائى ، قد لا تكون الا قصيدة من الشعر !.. ولكننى  
فى حاجة الى هذا الشعر المنظوم فى خيوط واللوان ..  
وليست تهمنى تكاليف ذلك .. وانى أبعث معها الى  
الشیطان بدفاتر الحساب !.. انى أبدا ، أولا ، فأشترى  
ما لاغنى لى عنه للعيش .. ثم أدفع فيما بعد ، كيفما  
استطعت .. ونظرة الى ميسرة !.

— عفوا يا عزيزى اونوريه اذا قلت لك اننى لا أفهم  
هذه القاعدة فى الحياة .. قد اكون جاهلة .. على اننى  
لا أرى قط بيتا صغيرا مكونا من حجرتين ، وحديقة  
ضيقة ، يتبعها حقل ضئيل من البطاطس ، الا غبطت  
المصير المتواضع الذى صار اليه سكانه .. فكيف يمكن  
ان نرغب فى الفنى والثراء ، مع كل ما يمثله الفنى من  
غرور ، وضجر ، وحمى ، ومظالم ؟ !.. ان الانسان  
ليطفى ، ان رآه استغنى !..

— آه !.. انك امرأة !.. فيا أيتها الصديقة العزيزة  
الحنون .. هل ننكرين اذن كل ما له شأن فى المجتمع !  
— ان ما له شأن ، ووزن ، هو الروح !..

— لكن الروح يشيد ، ويشترى ، ويحب القصور ،  
واللوحات الجميلة ، والحلى ، والجواهر ، والخيسول  
الاصيلة !..

— ليس للروح ان يسعى الى التلف !..  
— فضلا عن هذا ، فليس لنا جميعا ذات المصير .



وما كنت لاستطيع المجيء هنا لأستريح في هذه الحديقة الصغيرة كالفرديوس ، مع امرأة فائقة مثلك ، إلا إذا كنت أضنيت نفسي في مكان آخر ..

— انك تضنني النفس في غير عملك ، وفي غير ما خلقت له .. الست تجرى وراء نساء الطبقة الراقية ، وتتهافت عليهن ؟ .. السب للدوقة « دى برى » الفارس التابع ؟ انت ! انت ! .. تكون لسان حالها ، وخادم سياستها وأهوائها ؟ .. انت ، بلزاك ، يا من خلقت لتسير الشعب ، ولتعطيه فكرا حرا ، كريما ، طليقا ، واسعا .. انت ، بما أوتيت من ذكاء ، هو من أجمل ما في عصرنا من ذكاء .. انت تنزل ، وتصل — ففر ، لتقوم بدور « المحسوب » ! ..

— ولكن كيف ؟ .. ولكن كيف ؟ ! ..

— محسوب طبقة ارسقراطية ، مجردة من العقل ، ضعيفة القوى ، فقيرة النفس ، بليدة الحس ، تعمه في جهالتها ، ازاء كل الاحتياطات التى تنوء بها طبقاتنا الفقيرة ، تلك التى لا تنتظر الا فرصة لتنتقم لنفسها مرة أخرى ! ..

فقال بلزاك ، وهو يشبك يديه ، ويعجب بها ، قبل ان يتابع النقاش :

— يا الهى ! يا الهى ! ما أشد اندفاعها ! ..

— أجل .. هذا حق .. وانى حمقاء اذ أقول كل ما أعتقد .. ولكنى أومن به الى حد لا أستطيع معه السكوت عليه ..

— يا صديقتى ، انت صديقة مدهشة ! .. ولقد لمست بحديثك شفاف قلبى .. ولكن .. دعينى أفسر لك .. وأقسم — وهذه يمنى ! — اننى عاجز عن بيع نفسى ، سياسيا ، لكائن من كان ..



فنظرت اليه ، ولم ترد عليه .. فأضاف :  
- حتى ولا لامراه .. لأنه من المحتمل أن تكون امرأة  
قد سافقتنى .. قد .. أحببتنى ..  
فلم تتحرك زولما كارو .. فعاد يقول :  
- أو زعمت أنها أحببتنى ! ..  
- ليس لى يا عزيزى اوبوريه أن أحكم على هذا  
على هذا الجانب من حياتك .. وها هو ذا القومندان  
قد عاد من مكتبه .. فلندع هذا الحديث الذى لا يهمه ،  
حيث نستأنفه غدا ..



وفى اليوم التالى : أرادت أن تعود فتستمتع بروحه  
وفكره .. فأثارته من جديد بالتنديد بأرستقراطيته ..  
فصاح :  
- آه ! كارا ! كارا ! .. أتمقتين اذن كل الذين  
ينتسبون الى الطبقة النبيلة ؟  
فقاطعته :

- أترعمنى اذن بلهاء الى هذا الحد ؟  
واسترد الحديث حرارة الأمس .. تلك الحرارة التى  
لا غنى عنها للأفاضة بسرائر القلب .. فراح يروى لها  
كل شيء ، حكاية تلك المركيزة القاسية المترفعة ، الروحية ،  
العاشقة ، الفندورة .. وما كان أبدع وصفه لها :  
- تصورى أنها كانت نريد أن تصحبنى معها الى  
البندقية ! .. وتنزلنى فى قصر ! حيث لا يكون فيه الا  
هى وأنا ! ..

وكانت تلك ساعات غريبة مثيرة لزولما كارو ، التى  
كانت معتادة حياة عاقلة ، تسير على وتيرة واحدة ، بلا  
شفف ، ولا هوس ! .. بل ان الاضطراب قد نال منها ،  
لسماعها قصة هذه المغامرة الملهبة ، المؤلمة ، حتى جاء



القومئـدان يحمل البريد الذى وصل .. ففتح بلزأك  
رسائله ، وتجهم وجهه .. وصعد غرفته ... وعلى  
مائدة الغداء قال :

- كاربة ! .. وداعا للاجازة ! .. فلا مفر من العمل !  
.. فقد وصلتني مئة صفحة من البروفات . وهناك ناشر  
يطلب أقصوصة لهذا الاسبوع . طبقا لعقد بيننا . والويل  
لى من الدين اذا لم أفعل . فضلا عن أن أمى المقيمة منذ  
ثلاثة أيام فى بيتى بشارع كاسينى نكتب لتفول لى أن  
الرياح تاتى بما لا تستهى السفن !

انتهت الاحاديث الطيبات ! .. فأغلق على نفسه غرفته  
يدأب ويكتب .. وكذلك لم تعد زولما كارو تفادر غرفتها  
من تلك اللحظة أيضا .. فأخذت فى النسيج ، حتى اذا  
دعاها صغيرها ايفان أرسلته الى الحديقة يلعب .. وظلت  
فى صمت ، أمام منسجها ، تلقى بأذنيها وقلبها جميعا لأدنى  
حركة يمكن أن تصدر عن مخدع أونوريه الساحر .. فهى  
منذ ما عرفت تفاصيل حياته المثقلة بالعمل والمغامرات .  
منذ ما أدركت كيف يلهب حياته بلا اكتراث ، ويحرقها  
غير مقتصد فيها ، ولا منشد ، بهرت ، وهنئت ، بحواره  
السعيد ، ولو لأيام .. ما أدهشه ، وما أبدعه ! ..  
ويالادراكه المحيط بقلوب النساء ! .. انها لا تعرف رجلا  
آخر يدرك ويحترق كل شئ مثله ! .. وتساءلت ، ووجها  
يحمر خجلا ، فى عفة كاملة ، عما اذا لم يكن أدرك التقدير  
المفتون الذى تحسه لخلقه وفكره .. وهما هو ذا الآن وراء  
النافذة المقابلة ، أمام منضدته ، ازاء أشجار الزيزفون  
نفسها ، التى هى ، كذلك ، أمامها .. لعله يكتب سطورا  
علوية ، قد لا يستطيع الشبان والنساء ، بعد مئتين  
أو ثلاثمئة عام - عندما لا يكون له أو لها وجود - أن  
يقراوها الا وقلوبهم تخفق ، ودموعهم تسبق ! .. وان



أحدا ، ان أحدا لن يعرف أبدا ان أول رعشة قد أصابتها هي — وبالله ! — في اللحظة التي أمسك فيها بقلمه ! .. فما السبب ؟ .. السبب في ذلك أنها كانت تدعى : « مدام كارو » وليست : « مدام بلزا .. » .. آه ! ..

ما كان أوجه وأروع هذا الاسم « دى بلزاك » الذي خلق للمجد ! .. أونوريه دى بلزاك ! .. أسفا لأحكام القضاء والقدر ! ومع ذلك فحبذا لو أتيح لها أن تسند رجلا عظيما ، حتى يؤدي رسالته السامية ! .. أفلم تخلق هي لتكون هذا السند والعضد ؟ .. أو لم تكن تصلح امرأة نافعة ، قديرة على أن تفهم ، وأن تنمحي ، وأن تلزم الى جواره جانب الحب الصامت الصميم ؟ .. رباه ! .. ما هذا الذي تجرؤ على التفكير فيه !؟ .. لقد نهضت ، ووضعت يدها على فؤادها ، وسألت ربها عفوا وغفرانا .. ونزلت الى الحديقة لترى في ماذا يلعب ولدها ..

هذه هي المرأة العظيمة ، التي كانت تأثم في العقل ، وتعجز عن أن تنطق أمام بلزاك بكلمة لا تشف عن غير الصداقة النقية الخالصة . وكان هو قد ظل حبيس غرفته ، لا يخرج منها حتى لتناول الطعام .. وضاق بذلك صدرها ، فظلت تنسج ، وتطرز بابرتها ، حالة بعينيه ، يخيل اليها أنها تسمعه يقول لها : « كارا ، كارا ، أنت من القلوب النادرة التي لها على قلبي سلطان وسرعان ما ينسى ! .. ولكن .. ولكن لا .. انه حق .. عظيم ! » .. اكان ذلك حقا ؟ .. انه سرعان ما يحمي أو لم يطلعها في ثقة على رسالة من مدام دى برنى ؟ .. فلم تشعر بالغيرة من هذه .. هذا الملك الكريم .. بل شعرت نحوها بالمحبة .. فقد كانت زولما دونها في العمر



بخمسة عشر عاما .. وان تقاربت افكارهما .. وكانت رسالة مدام دي برنى تحذره من المركيزة ، ورسائلها ، وتقول :

انها اذا كتبت اليك غدا « لتسافر الى « اكس » فانك سرعان ما تسافر ! .. فاحذر يا حبيبى ! .. ان هؤلاء الناس طيعوا على الجمود )

وأحست زولما كارو بزهوة النصر لهذه العبارة .. فقال أونوريه :

- انها مخطئة .. فلن اذهب بأية حجة كانت .. فما أطيب مقامى للعمل هنا !

وكان من طيب المقام والعمل بحيث اتم جزءا كبيرا من قصة « لويس لامبير » .. ولم يكن يجد وقتا للطعام والشراب . وفى ذات ليلة ، لم ينم . وكان قد طلب خمس شموعات .. فلم تعد زولما كارو تنام هى أيضا .. وظلت تسمعه ، وهو يحرك القهوة ، وينهض ، ويمشى ، وتسقط ريشته .. ثم صب ماء فى منتصف الليل ليشرب : « ان رأسه يشتعل حتما .. يا الهى ! .. فهو يتردد . يا لعمله المضنى ! .. ويا للحياة المجاهدة ! .. » .. وطلع الفجر . فزعمته سينام .. ولكنه عاد يحرك فنجان القهوة .. فمنت نفسها بأنه يرسم فى قصته صورة امرأة .. ولعل هذه المرأة تكون هى .. لعلها هى المهمة ! ..

وفى ذات صباح ، حمل اليه البريد رسالة عليها طابع « اكس - لو - بان » .. وسافر بلزاك فى اليوم التالى معذرا لهم ، قائلا لنفسه : « انها تنتظرنى .. فقد ندمت .. وأرادت الآن أن تكون لى .. وليس فى كل الطبقة الباريسية الأرستقراطية امرأة تعادلها ! » .. وبلغ من هيجته ، وسرعته فى تسلق درجات المركبة ،



ان جرحت فخذة جرحا عميقا ، فاضطر الى قضاء يومين  
في مدينة ليون ، ووصل « اكس » وهو يعرج ! ولكنه  
ماكاد يراها ، حتى نسي مجرد الاشارة الى الحادث ! ..  
ونسي متاعبه منها وشكاواه . ولم يعد يذكر الا انه الفاها:  
جميلة ، رقيقة ، طيبة .. وصدرت منه كلمة تدل على  
مدى ما تألم .. ثم استلرك : « ما من شيء عظيم بغير  
الآلم » .. فوافقت ، وبسطت له برنامجها ، وعبرت له  
عن سرورها بحضوره ، وان كانت لا تستطيع أن تراه  
كل يوم قبل الساعة الخامسة ، لحاجتها الى الراحة  
النامة .. فقال ان لديه قلمه ! وسيفنى في العمل .. ثم  
يكون كله لها .. أى كله للحب ! .. وفي الفداة وصل في  
الساعة الخامسة ، الخامسة الا ربعا .. لم يطق صبرا  
على دق الساعة .. فتركته بقربها يتفدى ويشتعل  
بالآمال والوعود .. حتى جاء ذات مساء يلح ويلحف  
بصراحة ، فعارضته بصراحة أيضا محتجة بواجبها ..  
فصاح :

— يا الهى ! .. انك تنسين دائما أن اول الواجبات  
هو حبك اياى ! .. فمتى تكونين لى ؟ ..  
— أرى ان مقامك فى انجو لم يفدك شيئا ! .. فانت  
تعود بأفكار صغيرة وضيعة ، لعلها صدى أحاديث النساء  
هناك ! ..

— سيدتى ، لا تحاولى أن تجرحينى فى أعز ما عندى ،  
وهو صداقتى !  
— أرايت أننى لا أملا حياتك ، وانك ممثـل كوميدى  
كسائر الرجال ؟ ! ..

فلم يجب . وعاد قانطا ، يحدث نفسه بصوت عال :  
« أيها المسكين أوتوريه ! .. ان الترف ، والمساكن الجميلة ،  
والنساء العظيمات ، والفراشيات السامية ، أن هذا كله



حرام عليك ! .. اما ان تكتب وتنسخ للناشرين الشرهين ،  
في غرفة حقيرة ، أجرها فرنكان في اليوم ، فهذا هو  
مصريك ، فلا تبحث عن مصر سواه ! » .. ولكنه وجد  
في انظاره خطابين . أحدهما من مدام دي برنى ، والثاني  
من زولما كارو . آه لهاتين المرأتين القديستين ! .. آه  
لهذين العمسادين في حياته : الحب الحق ، والصداقة  
الصافية ! .. فقبل الفلافين .. وكانت رسالة زولما كارو  
تنضح بالمرارة . ولكنها مست شفاف قلبه . فهي تحذره  
من التهور في الحزبية ، حيث لا يفكرون الا في استغلاله .  
فتمتم : « هذا صحيح ! .. وقد بدأت أشعر به ! » ..  
وهي تتخلى عنه لغرامياته الخطرة ، قائلة :

( ... وليست هي أم أسرة ضعيفة التي يمكن أن يهك ، ليس  
هي امرأة يفهم حقيقة الحياة ومدلتها .. انك بحاجة الى أشكال شاردة ،  
ومظاهر باهرة ولا يهك ، أو يعنك ما وراءها من ذكاء وحس ونفس ..  
فلبعضك الله في « اكس » ما يروق لك ! )

فقال بقوة : « لا ! .. انى أرى جليا ما يصيبنى هنا ..  
سأهرب ، وأنجو ، وأعود لأعمل ، وأتحدث ، بعقل ،  
في أنجولم » ..

وفتح خطاب مدام دي برنى ، وهو يفكر : « انهما  
تشابهان ، لا بالوجوه ، وانما بالنفوس .. كلتاهما  
حكيمه ، خيره ، كريمة .. » .. ثم قرأ :

( ... يا صديقى لست غرى ، ولكنى ملقة . اذن فقد حملوك  
على الذهاب الى اكس ! .. فاحذر ، يا حبيبى ، فهؤلاء الناس ، جميعا ،  
يمقنون الذن لسوا من لحمهم ودمهم .. فامستخدمهم ما استطعت .  
ولكن أقسم لى الا تكون لهم عبدا )

فقال بلزأك بصوت منخفض : « أقسم يا حبيبتى ! ..  
وكتب اليها في الحال يقول :

( لماذا أقاومك .. أنت التى هزت ببلها مهد أحلامي الأولى .. والتى  
سيكون قلبها قبراً لكل أخطائى ؟ .. انك تنادينى .. وأنا البيك .



فانظري مركبات المسافرين على طريق قوتنبلو .. فساصل في بضعة أيام .. في نضج ساعات ٠٠٠ )

وبعث بمن حمل هذه الكلمة الى البريد ، فدق الباب ، واذا بالمركيزة دي كاستري قد بعثت بخادم يسأل : « هل يستطيع المسيو دي بلزاك ان يحضر حالا ؟ » .. فاشفق أن تكون مريضة .. وهروول اليها ! .. فبأى شباب آمن بالهناء بعد ساعة واحدة ! .. أو لم يقبل السفر الى ايطاليا معها ، ومع الدوق « فترز - جمس » أخى زوجها ؟! وكانا سيأخذانه شبه ملحق في عربتهما ؟! ولكنها قبلت أن يدفع نصيبه في مصاريف الطريق ، حتى لاتجرح عزته . أن يرى روما ، المدينة الخالدة ، التى مر بها نصف تاريخ العالم ، وأن يشاهد ذلك كله معها ، تنظر عيناه مع عينها ، وأن يسمعها تصدر أحكامها ، الدقيقة ، الصادقة ، على مافيه من بعض الجفاء ! .. بالسعادة ينهلها قلبه المفتوح ! .. يا لصفحة النور المشرقة في حياته ! ..

وبادر بالكتابة الى ناشريه ، ومدبرى المجلات ، وأمه .. وتعهده بمواعيد محددة .. وسألهم مالا ، واعداد مقابله بقصص ! .. ثم سافر مع « مركيزته المعبودة » ، وشقيق الزوج ، الذى كان فى نظره مثالا لامجاد فرنسا القديمة العريقة .

وغادر المسافرون الشلالة « اكس » ، فوصلوا مدينة جنيف فى المساء .. وحاول أن يتخيل الايام التى سوف يعيشها وهو يتذكر الذ تفاصيل الايام التى عاشها . وخرج معها يتنزهان ، فعاد نشوان .. هناك ، بقرب غدير ماء ، وراء طاحون مكسورة ، قالت له أقسوالا من الهول والاشتعال بحيث لم يعد بإمكانها التراجع عمسا قالت .. وكانت تبسم له .. وكانا يتنهدان ..



ثم قصد الدوق الى مكتب الفندق .. فاختلى بلزاک  
بالمركيزة ، وكان عليها توب شفاف ، ناصع ، مجنح ،  
يجعلها كملك طائر . لا يلبث أن يحلق في السماوات ..  
فسبح بحمد جمالها .. ثم لم يلبث أن قال لها بلهجة  
الطفل : « يخيل الى أنك الآن قد نزلت من السماء  
لتمنحيني الهناء ! » .. فلم تجب بغير ابتسامة .  
فاستطرد : « أعطيني الهناء ؟ » .. ثم خفض من صوته :  
« وبعد ، أتهين نفسك ؟ ! » .. فهزت كتفيها ، ثم تغير  
وجهها ، وتجهم ، فجأة : « أتحدث هكذا ، الى امرأة ذات  
اسم عظيم ، في حان ، على قارعة الطريق ؟ ! » .. قال :  
« كيف ، في حان ! » .. ثم ضاق ذرعاً : « مرة أخرى ،  
أخرى ، أخيرة ، أتريدين مبادلتى الحب ؟ » .. وبدأت  
جفوته : « انى لن أستطيع على هذا صبراً ! » .. وبفتة ،  
نحول الى شدة خارقة .. فأعلن اليها : أن الكأس قد  
طفحت ، وأنه فكر في هذا كله ، وأن الدور الوحيد لامرأة  
تدعى الحب هو التفانى ، أى هبة نفسها ، ولكن أسفا على  
أنها عنده عاجزة عن الحب ! .. وصاح بها :

— اذن فالمركيزات يسلفن نفسهن ، ولا يهبنها ! ..  
هذا حسن ! .. اذن ، انى لأوثر النساء البسيطات ،  
المجردات من النفاق والمراعاة ، الخاليات من هذا الحشو  
الاجتماعى ، هذا « العفش والنفش » الذى ليس الا من  
الرذيلة ! .. وانى أدعك ، وسأنتقم لنفسى ..

ووصل الى الباب ، ثم عاد اليها ، وضفط على  
ذراعها :

— انت لاحجة لك من الشرع ، ولا من الدين ..  
فقد استبحت الاول ، وسخرت من الثانى .. ما دمت  
يوما ما قد كنت خليفة البرنس دى ميترن ...  
فدفعته عنها :



— كفى !

فزأر ، وقال لها ، وعيناه في عينيها :

— نعم ، أم لا ؟ . ستكونين ، في إيطاليا ، لى . . ؟  
فظلت مصرة على أسنانها ، ترتعش طاقتا انفها ،  
ممتعة اللون ، تكاد تكون دميمة ، لشدة ما عبر  
وجهها عن الكراهية والنفور . . ولم تقل شيئا . .  
فعاد يقول :

— أفلا تريدن الرد ؟ . .

فظلت ممعنة في صمت عنيد . .

وعندئذ أحس في نفسه عيوب نار الهديان من الحى  
.. فألقى بمعطفه « الكاب » على كتفيه ، تاركا إياه  
يدور تحت وجه المركيزة ، كما لو كان يضربها بالسوط  
.. وخرج . وأغلق الباب بشدة . وأخذ حقائبه ،  
وقفز في أول عربة للمسافرين الى ديجون ، وقبع فيها .  
ولما صارت العربة عند بيوت جنيف الأخيرة ، قال  
جاره الفتى بصوت مرتفع : « الوداع أيتها المدينة  
العزيزة ! . . آه ، ما أجمل جنيف ياسيدى ! . . »  
فأجاب بلزак : « اننى أمقتها ! . . فقد عرفت فيها  
ياسيدى أشنع مذلة في حياتى ، وأقسم ألا أعود إليها  
أبدا ! . . »

ووصل بعد يومين الى بولونير ، حيث عربة مدام دى  
برنى ، فكانت في انتظاره مع كلبها ، على قارعة الطريق  
.. انها كانت تنتظر هكذا منذ ثمانية أيام ، باحثة في  
جميع مركبات المسافرين ! . . « يارجلى العزيز العظيم ،  
لم يطل انتظارى اياك ، مادمت قد جئت . . فليت نفسك  
تكون متفتحة لى ! . . ولست شعرى ماذا يدور فى خلدك ؟  
وكيف أنت ؟ وهل تحبنى ؟ . . » فكان رده الوحيد  
عليها : ان ضم اليه خصرها اللين ، ونظر الى وجهها



«عزيز ، الذى نالت منه عشر سنوات حب .. تم قبلها،  
قائلا فى نفسه : « ما هو الشباب ، وما هو الجمال .  
اذا كانا يختفيان وراءهما نفسا جاحدة كحجارة  
الطريق ؟ » .. تم قال لها :

— اننى مضنى ياملكى ، مضنى الى حد أخشى معه  
الا اكون بخير ..

— ليس من ذنبى انك منقول بمجنونات مفتونات ،  
دار برأسك فبهن لونهن الناصع كالصينى .. فاستنشق .  
ياحبيبى ، شذى أشجار الصنوبر .. وتعالى انظر معي .  
حظيرة الدجاج الذى يعطينى البيض الطيب الطازج ..  
ولا يلبث ان يستجم ، ويشفى ، بقرب هذه المرأة  
التي تعرف كيف تسعده ، وتبدد غياهب حزنه ..  
وبراجعان معا رسائل المعجبات المتهافتات عليه .. وهى  
تحللها :

— ياسيدى الكاتب الخصب ، انهن كلهن عند  
قدميك .. اقرأ هذه : انها فتاة عانس مستهامة ! ..  
وهذه تقول لك : « أريد ان أعرف هل شكلك يتفق مع  
الفكرة التى أوحى بها الى كتبك » .. وهذه تسنفهم  
« أريد ان أعرف ما اذا كانت بدائعك الرائعة صادرة  
من قلبك أم من رأسك .. »

ويتضحكان .. وتعرف منه انه يعد كتابا اسمه  
« طبيب الريف » .. فاذا خلص منه . وضع كتابا  
مروعا .. كتاب حب .. فتسأله : أبكون عنها ؟ ..  
فيقول :

— كلا ! .. لأنه كتاب ألم .. كتاب فظيع صادق ..  
اسمه Netouchez ه Pas à la hache يعانى فيه  
البطل من الحب والحقد أهوالا ! ..  
فترثى له :



— يامعبودي المسكين !.. لاشك في انك تحس ما  
احس البطل !..

فيطمئنها الى انه بقربها ، يسمع كلامها ، ويستمتع  
بحبها ، قد خلق رجلا جديدا .. وانحنى عليها ناظرا  
بعينه الذهبيتين .. فخيل اليه انها ترى اشراق مجده  
.. فقالت بصوت يختلج في حلقها من الهناء :

— يا حبيبي !.. انك لى اعز من الهواء الطائر ، ومن  
الماء للسماك ، ومن الشمس للارض ، ومن الطبيعة  
للنفس !.. ان هنائي يصدر منك ، كما تتضوع العطور  
من الزهور .. ان مواهبك لا حد لعظمتها ، وانى لفخور  
بان افهمها ، وامجدها ، واعزها !..



عندما كان بلزاك ينجز فسته Netouchez pas à la hache أحس بالفرح لأنه غلب في الحب على أمره . فقد أخرج من غابة ضعفه : آية قوته . واسـنـنـبـط من حكاية بؤسه : إحدى روائعه الباقيات . . وهذا التناقض هو على شاكلة الحياة وصورتها : ذل وعز . وقد أظهرت له هذه التجربة القاسية مصيره على هذه الأرض : أن يكون على هامش الآخرين . . فواجبه الأول يقضى بالآلا يعيش إلا ليكتب ، ويسجل صورة العيش . فلا حق له في الحب ، أو في الألم ، أو في السعادة ، إلا لكيما يبدع من وراء هذا كله قيس النور الذي يبدد ظلمـمـات الانسانية ! . . فالكتاب والشعراء هم الذين ينجدون البشر في محنتهم ، ويقدمون لهم آيات العزاء والتجـلـد ، أشبه ما يكونون في ذلك بالانبياء !

وكان بلزاك مازال يعتمد في وحدته على صداقته لامرأتين ، أحدهما لور دي برنى خليلته العزيزة ، والآخرى مدام زولماكارو صديقتها الروحية . . ثم تلك « الأجنبية » البولونية المعجبة به ، التي تلقى رسالتها الأولى قبيل زيارته الأولى للمركيزة الفاجرة المتكبرة ، بربع ساعة فقط ، وهي لا تزال تكتب له ، وقد أفضت إليه باسمها : « الكونتيس إيف دي هانسكا » ، وعبرت



له ، فى رسائل شعريّة ، عن نزعات قلب معنى ، أثرت فيه كتب بلزاك ، وأوحت إليه بالثقة .. وكانت سيّدة عظيمة جدا ، نبيلة ، مثريّة ، ومن ذوات المسكّانة الرفيعة ، والضياغ الواسعة فى فيرزشونيا بقرب مدينة « كيف » .

عمل نير ، أفاء عليه نوره منبت كريم وثقافة ، ونفس هى بلا شك من أنبل وأصفى النفوس المختارة فى عصرها . وقد هرعت الى بلزاك فى رسائلها . وكان فى رسائله يطير اليها ! . وما كانت المسافات الشاسعة بينهما لتفرق فى غير جسديهما ، فى حين كان العقلان ، والقلبان . قد بادرا الى العناق والتقبيل ! . اذ كيف يهمل مثل هذه الأمية التى تحدته بلهجة لا عهد له بها . ان صاحبته لور لا نظير لها فى حنانها .. وقد ساقها القدر اليه ليلطف من مصيره المستعر .. ولكن هذه « الأجنبية » العلوية تظهر من ادراكها الفن ، واحاطتها بدور الفنان ، ما يجعله يصرخ سرورا واشتياقا ، ويبسط ذراعيه نحو بولونيا البعيدة . قائلا من صميم فؤاده : « ايف دى هانسكا ! .. ان حياتى لك .. لأنك وحدك التى أدركت ماهيتها ، وتغلغلت فى آلامها ، وواجباتها ، وطموحها ! » .. لقد كان ذكورها المعجب به يشرق عليه عونا له وساعدا .. وكان كلما طالع رسائلها لم يشك فى انها ترى فيه موسى الكلّيم على جبل سيناء ، فى الوادى المقدس : طوى ..

أجل ، ستكون مهمته ان يرسم هذا المجتمع بحذافيره ، وان يلقى عليه ضوءا يكشف ضوء الشمس ! أليست هذه المرأة برهانا على امتداد رسالته وراء حدود بلاده ؟ . أليست طيبة المنبت ، عريقة الاصل ، رقيقة الحاشية ، نبيلة الطبع ، تتفق مع ذوقه فى الارومة



العالية الحسب ، وفي المكانة والوجاهة ؟..

أما زولماكارو ، ذات الاسم المنواضع ، والحياة الى جانب موظف ( ولو كان فومندان مدفعيه ! ) ، فليسب الا صديقة ، وكاتمة سر .. وأما لور دى برنى، فحنانها أعظم من نبلها ، وهى تؤسر الحب على العظمة .. وأما المركيزة دى كاسرى الشنيعة ، فهى من ذلك النبل البائد ، الذى لم يبق منه الا شذله !.. مسكن جميل ، ونياب جميلة ، وجسم جميل ، بلا قلب ، ولا عقل .. قصر بلا ملك !.. وأما النبل الاصيل ، والروح ، والفؤاد ، فقد اجتمعت جميعا فى الكونتس دى هانسكا هذه ، الاوربية المأجدة ، بألقابها ، وأملاكها ، وفطنتها ، وذكائها ، ودقنها ، وشعرها . فهى هى المرأة الموعودة حقا بأن تؤنر فى بلزاك ، الاثر الذى ستحمده لها آداب الاجيال كلها ، وتهبه تلك القوة الروحية الهائلة ، التى لا تلبث ان تتبلور فى مجموعة فريدة من الافكار الشائقة، والبدائع الروائع ، التى ستتوالد تباعا ، لا حد لها ولا عد ، من ذلك العقل العبقري الجبار .. فهى المهمة .. وهى الساحرة .. هذه البولونية المدهشة ، قد ألهمت بالسوط مخيلته . فراح ، فى نشوة النمنى والرجاء فى الهناء ، يحقق آياته الكبرى ، فوصل دون كبير عناء الى قمة الفكر ، وقمة المجد ..

أبتها الأجنبية العزيزة ، أين أنت ؟.. كيف أنت ؟.. انه لايعرف بعد صورة محياك ، وهو يعيش على ثمانمئة فرسخ منك ! ؟..

وظل يكتب اليها ؟ !.. انه يريد الآن ان يضع عينيه فى عينيها !..

وهو يريد ان يقضى بذات نفسه لامرأة .. أماصاحبه لور دى برنى ، ففى عزبتها .. وأما زولماكارو ، ففى



بلدة انجولم .. ولكن اخنه لور في باريس !.. وهى  
النى شهدت بزوغ فجر مطامعه .. اذن فليهرع اليها .  
ويمسك بيديها ، صائحا : « اختاه العزيزة ، أتذكرين  
المستقبل الجميل ، الذى تخيلناه ونحن نشرف من سطح  
بيتنا فى تور ؟.. أتذكرين ؟.. ان أخاك سعيد ، وقد  
جاء يقول لك : ان هناك الرجل ينطوى كله فى أحلام  
الطفل !.. » .. وهو فى طريقه اليها يشتري زهرا ..  
ويدخل حديقة اللكسمبورج ، ويتغفل بين الانسجار ،  
حيث يحلم الطلاب والشيوخ .. أولئك فى المستقبل ،  
وهؤلاء فى الماضى .. فينظر اليهم كما لو كان يريد ان  
يرسم لهم جمال الحاضر !.. ثم يعرج فى ساحة سان  
ميشيل على بائع البن والشمع .. فبوصيه بأن يخاطب  
له البن البوربونى بالبن المرتكى بالبن اليمنى !.. فلا  
طعم للقهوة الا بهذا المزيج !.. « كيف ترسل الى ربطة  
من الشمع فوق ما أبغى ، وكيسا من البن دون ما أرغب  
.. اعكس الآية ياسيدى !.. فأننى بالقهوة أرى جليا  
ولو فى دياجى الظلام !.. » .. فتضحك « زبونة » ،  
نشتري مثله ، لخفة روحه ، فيجيبها .. ويوصى  
التاجر : « لا تعاملنى كزبون عادى .. انى أحب دكانك  
الذى هو ينبوع للحياة .. أحب حباتى ، فقد تكون  
غدا ينبوعا لدكانك !.. »

ووصل الى سوق الخضر ( الهال ) ، فقد كان يطيب  
له دائما الاحتكاك بسواد الشعب . فرأى فى زاوية  
زحاما ، فاقرب ، فاذا بامرأة فقيرة تنهرها الشرطة ،  
وهى تبكى وتشكو : « ماذا تريدون منا ؟.. انا لا نبغى  
اكثر من ان نبيع « جرجيرنا » ، دون ان يلحظ أحد ،  
او نلحظ أحدا !.. » .. فابتعد بلزأك وهو يقول :  
« رباه !.. هذا هو الدليل على اننا لم نجبل جميعا من



طينة واحدة !.. والمجد ، يا أيتها العجوز الطيبة .  
والمجد !.. » ..

ان هواء باريس هو السذى يحس بالحاجة الى  
استنشاقه ، دون أى هواء سواه .. فهو يعبر بولفار  
بواسونير ، ضاحكا ، ساخرا من الاطباء ، قصيرى  
النظر ، الذين يقولون بأن المرء لا يشم فى باريس هواء !  
وها هو ذا يفتح خياشيمه ، ويملا رثيته منه !..  
سبحان الله !.. ان هواء هذه المدينة السنية مشبع  
بتيار الحبوية ، الذى لا مثيل له فى الدنيا .. فهو  
للأعصاب عفاء ، وللقلوب غذاء !..



بلزالك الآن فى الرابعة والثلاثين . اتخذ من الادب ديرا  
يسكنه ، يتأمل فيه ، ويتبتل !.. ولم يكن فى حياته  
كلها ربيع أشهى وأجدى من ربيع ١٨٣٣ .. لا لأنه أنتج  
فيه أعظم عمل أدبى فى الجبل وحسب ، بل لأنه كان  
يكتب أيضا الى الكونتس دى هانسكا .. وفى انتظارها  
وفى تمنيتها ، وفى التحدث عنها وحده مع نفسه ، زاعما  
انه يمسك بالحب بين يديه كما لو كان طائرا غردا ،  
ويضمهما معا على قلبه ، مخاطبا أوراقه ، أوحديته :  
« انى أحبك !.. أحبك !.. انى أعبدك !.. » .. ثم  
يضيق ذرعا بوحشته ، ولا يصبر عن التحدث عنها ..  
فيأخذ عربة المسافرين الى انجولم ، ليلقى زولماكاروا ..  
فنسأله عما اذا كان لا يزال يحب حديقته الضيقة ،  
وحباتها البسيطة ، وصغيرها الذى يكبر .. والقومندان  
الذى يبذل جهده فى خدمة الدولة .. وامرأة مثلها  
هادئة ، لا تبحث الا عن بقائها عاقلة !..

— وأنا ، فى هذه الانشاء ، يا صديقتى الطيبة ، اشتغل  
واعمل كحصان مربوط الى عربة !..

فتأملته .. وقالت :

— انك الشباب والقوة . وانى سعيدة برؤيتك فى  
هذه الآونة ..



وعبرت له عن فرحها بأنه يعمل مستقلا عن تلك  
« الطبقة الراقية » الزائفة ، لا ينفانى في سידاها ، ولا  
يلقى أحذية ساداتها !.. فمد إليها يديه :

— أيتها المراه التى لا مثيل لها !.. انك جمعت بين  
الشعر والفكر !.. فاعلمى انى سوف أنتصر ، يا صديقتى  
العزیزة ولم يعد لى الآن شك .. وانى مدين بذلك  
لامراه !.. وأنت تعلمين ، اكثر من أى انسان ، ان المراه  
كانت دائما هى دينى الارضى الوحيد الذى اؤمن به !..  
وانى اذن لسعيد !.. فسيسهل عملى ، وأبلغ أملى !..

فظننت انه يقصد بالمرأة « لور دى برنى » ، « الملك »  
الذى حرس سبابه ، وجمل حياته ، وغذى خياله !..  
ولكنها كانت وأهمة .. فأخرج بلزاک .. وسعل ..  
وقام .. ثم عاد فجلس .. وطفق يفسر .. حقيقة ان  
مدام دى برنى الحنون كانت له تكاد تكون اكثر من ام ..  
ولكنه يعنى هنا بالكلام : امراه .. شقيقة روحه ..  
امراه قصده من أقصاء أوربا .. تقدم اليه كل شىء :  
الحب ، والاسم العظيم ، والثروة !.. آه !.. هذه  
المراه !.. انه لم يلق قط لها مثالا !.. وهو لم « يلقها »  
بعد فعلا ، لانه لم يرها بعد .. ولكن أية رسائل !..  
انه يحملها معه .. ويلج على زولماكارو ان تقرأها :

— اقريئها ، واحكى على .. كما سوف يحكم مدام  
دى برنى .. فانكما لى الناصحتان : هى القلب ، وانت  
العقل .. انى أريد ان تكون حياتى عظيمة ، غير انى  
أسكن بيتا من زجاج . أقسمت عليك الا ما قرأت !..  
هذه هى رسالتها الاولى ، تتضوع بشذا ألهاء والرجاء !  
اقريئها ، وقولى : هل ثمة امراه ، خلاك ، فهمنى خيرا  
منها أبدا !.. ثم هى أجنبية ، ولكن تربيتها فرنسية ،  
تغذت بلبان أفكارنا ، ودواوين شعرائنا .. واليسك



الرسائل الأخرى . رباه ! هذا الأسلوب الشائق الرقيق !  
انى لا أستطيع له دفعا . هذا قلبى ، يا صديقتى الطيبة ،  
فتحسى قلبى ! فلا شيء مطبوع فيه إلا خطها الدقيق ،  
دليل اليد التى كُنت لى ، المشتاقة لمصافحة يدي . .  
ولشد ما حذرت منها ، وكنت فاترا معها ، بأدىء ذى  
بدء . . فقد كان قلبى محطما من تلك المركبة التى  
جفت روحى بأحصائها المروع . . أف لها . . وعاملت  
« الأجنبية » كقاضى التحقيق الذى يقول لنفسه :  
« فلندعها تجيء حتى ترى ماتقدمه الينا » . . يا للصغيرة  
الكريمة ! . . انها لا تقدم شيئا ، بل تهب كل شيء ! . .  
فشعرت بالخزى منها ، فأسلمت إليها فؤادى . آه ! . .  
وقامت لها كل شيء . . انى لها . . لبس عليها إلا أن  
تشير ، ومنى السمع والطاعة . وهأنذا يا صديقتى ،  
سعيد ، سعيد الى حد البكاء سعادة ، إذ عدت ، بعد  
كل ما لقيت من آلام ، سليما معافى ! .

فأحست زولماكارو ، ازاء هذا الاعتراف ، بقلبها  
بنقبض أوعية عليه ، وأمسكت حتى لا تصبح : « لله  
ما أعظمك ! . . وما أشد إعجابى بك ! . . » وارتسم  
ألها على محباها ، فلم تزد على أن تقول بكآبة :  
- أسألك ، يا أونوريه العزيز ، أن تحذر من تبذير  
حباتك . . فلا تنفق كنوزها أبدا أدراج الرياح ! . .

ولما عاد الى بارس ، فكر فى هذه النصيحة ، وقال  
لنفسه : « ان زولما صديقة شديدة الذكاء ، بيد أنها  
تعيش فى محيط ضيق ، تأثرت به أفكارها . وهذا  
لا علاج له ! . . أما امرأة مثل أف دى هانسكا ، فتدرك  
كل شيء ، وتحذر كل شيء ! . . امرأة عظيمة . . وهذا  
بكفى ! . . خمسون تابعا . . وأراض تبلغ نحو مقاطعة  
من مقاطعات فرنسا . . فهى لا يمكن أن تكون محدودة



الافق . ان لها في الحياة المجال الفسيح الذي أريده في  
كنبي .. وهو مجال سهل على البولونيين .. فكلهم  
أبطال ! .. ويا له من شعب مدهش ! .. ويا لها من مخالفة  
بين بولونيا واونوريه دي بلزاك ! .. قطبان يجنمعان في  
روح واحد ! .. »

ووجد في بيته البريد يحمل رسالة من مدام دي برنى  
تشكو اشتداد المرض عليها حتى بلغ قلبها . فقال :  
« يا للعزيزة المسكينة ! سأهرع اليها ! .. » ولكنه  
وجد أيضا خطابا من مدام دي برانتس ، وخطابا من  
الركيزة دي كاسترى ! فبا للجرأة ! .. ولم يجرؤ على  
فض الغلاف ، وتزاحمت على ذاكرته الساعات القاسية  
والساعات اللذيذة التي مرت عليه واياها . ولكن هذه  
اللذة لم تكن إلا خدعة ! اذن ، فماذا تحمل اليه أيضا  
من الكذب في رسالتها ؟ .. اما وان عينيها لم تعكسا  
قط صورة نفسها ، فهل يمكن لقطرات من الحبر على  
قصاصة ورق ان تعبر عما يجول في فكر هذه المخلوقة  
التي وجدت في الدنيا لتبذر الألم ؟ .. فترك رسالتها .  
وفتح خطاب مدام دي برانتس .. فوجدها تريد ان  
تراه .. فتنهد قائلا : « ما اكثر مراتنى ! .. » وكتب  
اليها :

( ان الناس الذين هم في حومة الوغى لبسوا ، يا سيدتى ، أحرارا  
كما تعلمين ليتحدثوا أو يخبروا أصدقاءهم : هل هم أحياء أم موى ..  
هذا ، وأنا .. ميت من الشغل )

ووقع خطابه ، وختمه . وأمسك برجفة وعنف خطاب  
الركيزة . ومزق غلافه ، وقراه في نفس واحد ، ثم  
خطا ثلاث خطوات في غرفته ، ثم جلس ، وأغمض  
عينيهِ ، وتمتم : « لله ما أعجب الحياة من لفز  
معمى ! .. »



وكانت رسالة المركيزة : نداء مؤلما محرقا ، وصرحة  
لوعة وأسى ، وتوسلا ، وهديانا .. فأثارت تذكارات  
تمزق الفؤاد ، وهمست برجاء الضائع المحموم المشدوه  
وزفرت زفرات العليـسـل المـضـنى !.. ووقعت :  
« صديقتك » ..

فأحس بلزأك بادئا أن قلبه يختنق في صدره :  
« آه ! لو أن ذلك كان حقا ، أيتها السماء ! » ..  
ثم .. مرت بذهنه رسالة من الكونتس دي هانسك،  
فاستظهرها سطرًا سطرًا ، وكأنه يفنى بها في روحه ..  
ولم يلبث أن استرد وقاره ورصانته ، وأمسك القلم  
بجهد ، وكتب إلى المركيزة بيد متأثرة ، بحيث لم يستطع  
أن يخط من الحروف إلا بعضها :

( سيدتى ، هاذا مغرق فى أعمال تتطلب منى بلا شفقة أشبه  
الاعتكاف .. فانا الآن فى خلوة دبر .. وقد دفى النافوس .. ولبيت  
الصلاة .. ولم أعد أستطيع الخروج الى صالون .. مهما يكون الصالون  
شائفا )

وأعاد قراءة ماكتب ، وبعث به .. وخف إلى مدام  
دى برنى ، فوجدها حزينة ، وقد وهن العظم منها ،  
وتخونت جسمها الأوجاع .. فقرأ لها مخطوطه الذى  
وصف فيه ما لقيه من حب المركيزة دى كاسترى ..  
وفيه إشارة إليها ، هى وتمجيد للمرأة التى نال من  
جمالها الزمن ، وإن ظل قلبها للحنان كنزا لا يفنى على  
الأيام .. فقالت له ، وهو منصرف ، بعد مطالعة أربع  
ساعات :

— يا حبيبى !.. أنك أول كتابنا . ولست أدري ماذا  
أفضل فيك : أعبقريتك ، أم طيبتك !..

وارتاح لهذه الكلمات من فمها .. ومع ذلك قضى  
الصيف ولم يعد إليها ، كان يعمل ، وكان منصرفا بكليته



للكونتس دى هانسكا .. فهو على أمل مفر بلقائه .  
وتشيككا . اذ تقوم برحلة حتى «نيوشاتل» ، مع زوجها  
ومع طفلتها الوحيدة التى بقيت لها من خمسة أطفال ،  
ومربية هذه الطفلة .

لقد كان يحبها قبل ان يعرفها . والآ سيعرف من  
أحبها . فبأى عينين سوف يراها ؟.. هل يكون أثرها  
الاول محققا لآماله ؟..

وتوالى عليه الفرح والحدرد ..!

ثم آن له ان يستقل عربة المسافرين ، فسافر كما  
كان يفعل كل مرة فى سفره ، ليس لغير الفرع عليه  
سلطان .. وكانت العربة مكتظة ، فأضحك رفاق السفر  
جميعا .. ووصل نيوشاتل ، ولم يكن قد نام منذ أربع  
ليال ، فسقط على سريره اعياء .. ولم ير الكونتس  
الا فى اليوم التالى . فقصد فندقها ، فقبل له : انها  
خرجت .. فأسرع الى طريق المتنزه الكبير .. فلمحها ..  
وعرفها .. وصعدت حرارة قلبه الى مخه . فلم يشك  
لحظة ..

وكان بيدها كتاب .. ولما رأت بأية عينين ينظر اليها  
هذا الرجل الشاب الضخم أفلتت كتابها .. فهرع اليه  
فاذا به قصته : « المرأة فى الثلاثين » . فنزع قبعته ،  
وجثا بركبته على الارض ، وقال بصوت يختلج حرارة :  
— ايف !. ايفا !.. أهذه أنت ؟ !..

فصرخت ، ومدت اليه يديها :

— اونوريه !.. ( وكادت تختنق ) اونوريه .. دى  
بلزاك !.

فنظر اليها ، دون ان يستطيع أن ينبس بكلمة .  
ياالله !.. يااللطف !.. يالها من علوية الحسن !..



بالنعمة !.. لقد ارتعش اذ ألفى جمالها لا يعدله الا  
جلالها !.

وكانت الفتنة في قمها ، الصغير ، العنابي ، وفي  
العينين السوداوين ، المتلئين احلاما ، وفي . اليسدين  
البضتين ، الناصعتين ، اللتين كأنهما تشفقان من القبض  
على كل هذا الهناء !..

واقتربت منهما صبية صغيرة في معطف ابيض وردى  
.. وكانت « انا » . طفلتها . فقبلها . وكلمها ..

وأخرجت الكونتس دى هانسكا في تلك الاثناء نظارة  
يدها المرصعة ، لترداد فيه تفرسا وتمعنا .. فوجدته  
قصيرا ، سمينا ، مستديرا .. وأنفه « كالاستبكة ! » .  
وبعد ذلك رأت العينين ، عيني النسر المحلق ، ترسلان  
النار التي يرسلها قلمه !.. فابتسمت عندئذ ، ولاح  
سعداها .. أنه هو بعينه !..

واقبل سيد طويل ، في ردنجات اخضر ، هو الكونت  
دى هانسكا ، زوجها . فقدمتهما الى بعضهما . فالتهم  
بلزاك الكونت بعينه ، ولكن هذا كان منصرفا الى  
البحيرة الجميلة يتأملها بالنظارة المعظمة .. لم يكن يعنيه  
ما بهما . لم يكن من أهل الادب او هواته ، فمنذ أجيال ،  
ورجال الطبقة الراقية في بولونيا يألمون من السلطات  
المتحكمة فيهم ، الما أشد مما يعرفه نساؤهم . وكان  
النساء يتشققن بالمطالعة ، والمحادثة فيما بينهن ، في حين  
ينصرف الرجال الى الاعمال . ولم يكن الكونت دى هانسكا  
قد قرأ من بلزاك سسطرا . كان مشغولا : بضياعه  
الواسعة ، وغلاله الوفيرة ، وغابات صيده وقنصه .  
فلم يكن لديه وقت للروايات والروائيين . وعلى ذلك  
ترك في نيوشاتل زوجته تعنى ببلزاك ، ومن ثمة بدأت  
لصاحبنا سلسلة أيام ستظل ذكرها ترن في قوادح حتى



المات . فقد ثبت له الآن ، وتحقق ، ووثق وثوقه من  
مطلع الشمس في شهر يولييه : بأن قد بدأ في حياته الحب  
الاعظم . فاندفع نحو الكونتس دى هانسكا ، يكاد  
يردد الكلمات التي قالها مندفعاً للمركيزة دى كاسترى  
- لقد تبينت اننى لم أحب قط من قبل !.. انك  
انت التي علمتني الحب .. انك المرأة التي وعدني  
الله !.. انت يا ايف !.. يامعبودتي حواء !..

ثم أمسك بذراعيها ، أو بيديها ، بعد ساعتين اثنتين  
من لقاء المتنزه .. فدهشت بداءة !.. ثم دفعهما  
باعترافاته المتملقة :

- ان رسائلك أخبرتني بكل شيء !.. ان أحدا لم  
يكتب مثلها قط !.. وقد رأيتك وأنا أقرأك .. فلا  
تخافي .. سأجعل لك الحياة المدهشة الجديرة بنفسك  
الشاعرة !..

وكان قد مضى عليهما ستة أشهر يتكاثبان بمثل هذه  
الاقوال الشعرية الجنونية !.. فهل كان يستطيع ان  
يلقاها دون ان يصيح : « يا حبيبتي !.. » ؟. أما وهما  
قد خلقا للحب .. وكانت واثقة من ذلك مثله .. ووقد  
كتباه لبعضهما عشرين مرة .. فقد قال لها ، وهو  
بوصلها في المساء الأول الى فندقها . بصوت تغني  
نفسه فيه وتصدح ، وتهتز فيه كذلك رغبات جسمه :  
- ايف !.. الآن اكملت . اذ وجدتكَ ، بعدما كنت  
ناقصا .. يا انثاى !

ويعود فيغني لو عاش معها في جوها النبيل :  
- اننى هناك ، في فرنسا ، أختنق .. فليس حولنا  
بعد نبل ولا نبلاء .. ان النبلاء الذين بقوا لنا قد جففهم  
الحقد على كل ما ليس نبيلًا . ومضت على سنوات  
أضرع فيها سرا : « رب اجعلني أروح فأستنشق هواء



آخر.. في بولونيا مهد أحلامي !.. « . ايف !.. انك  
انت المراه النبيلة حقا ، التي انتظرها وأتمناها !..

وكانت عاطفتها المتأججة ، واسنسلاتها على طول  
الخط ، وتنهداتها التي لا عداد لها .. هذه كلها كانت  
تعنى : « هيت لك » !.. ولكنه لم يطلب اليها ان  
تجىء عنده . فقد كان فندقه صغيرا ، وكانت غرفته  
حفيرة . فأخر ساعة ذلك الهناء ، الذي كان أحرص  
مايكون عليه ، حتى يكون أجمل مما هو الآن وأكمل .  
وتركها في نبوشاتل .. ومازالت وفية لزوجها ، وان  
كان العشق قد طاح برأسها ..

وجاءت تودعه ، بصحبة الكونت ، عند سفره ،  
وكانت مشيتها من الرخاوة بحيث لم يملك لرؤيتها إلا  
ان يحس النار في عروقه .. فقال للكونت دى هانسكا :  
— ما أرق خضورك لوداعى أنها الكونت !..

ثم التفت نحوها فجأة :

— الى الملتقى يا ضياء أيامى ، ونور ليالى !..

ثم نظر الى الزوج :

— أرجو ان يطيب لكم المقام ..

ثم انحنى على المرأة :

— الى الملتقى يارجائى !.. يا حبيب الوحيى !..

ياغرامى وحدى !..

ثم عطف على الكونت :

— اظن ان الجو سيروق ويصحو ..

ثم اجتذب عينى ايف بعينه العسلبنين :

— الى الملتقى .. يازوجتى !..

وكان الفراق على مثل هذه الفتنة المضرة كفيلا بأن  
يجعل كلا منهما يذهب ليعيش من جانبه أيا ما محرقة ،



يتصلان فيها بالرسائل ، ويصلان الى ما لم يلفاه  
بالوصال :

( هاك قبلة ، يا اعلى ، على شعبيك العزيزين .. قبلة تذهب  
راسا الى قلبك ، وتشمل كل شخصك .. ستريين كيف أن الوصال  
سيزيد اشتعالا )

هذه هي عبارات المراسلات الاولى بعد اللقاء .  
ولا يلبثان ان يلتقيا ثانية ، بعد اسابيع .. ويمهر  
العهد .. ويكون كل منهما للآخر . ولا يعود الكوننت  
دى هانسكا شيئا مذكورا ..

وتجن ايف جوى وصباية .. وتصبح لا تطيق البقاء  
مع زوجها . وتصير رسائلها صرخات .. فهو بلزاك ،  
الابون ، الذي يصبرها ، ويهدئها :

( يا ملاكي ! .. دعى الامر الى حن ! .. ولا تغادري الدار ، ونكسري  
للقيد .. أبنيها السجننة المعبودة .. ان حبيبك سوف يلبي نداءك ..  
فلا تخيفي حبيبك ! .. )

وعرضت له ، مرة أخرى ، صورة تلك المركيزة دى  
كاسترى ، المرأة العجيبة ، المرأة المريعة ، التي تبدو  
كأنها قدت من جليد ، امرأة شقية ، ولاريب ، جافة  
القلب ، لن تتذوق يوما لذات الحياة العليا .. ولم يعد  
بلزاك يفكر في الانتقام منها ، بل في الاشفاق عليها ..  
لذلك لما التمسست منه أن يزورها ، لشدة مرضها ، ذهب  
.. فاستقبلته باكبة :

— بالله لا تسيء تفسير زفرائي ، يا اونوربه العزيز ..  
فاني أعرف حياتك .. وثق انني لا أموت ألما ولا غيرة ،  
وانما أموت فحسب .. فالموت خاتمة محتومة ، لا تكاد  
نضع في الحباة أقدامنا ، ونجمع بعض الخير حولنا ،  
حتى نضطر الى حمل أنفسنا متهالكين راحلين ..  
ولكن اذا كنت أبكى فذلك لأنى سأفقدك ، ولا أدري



مدى ذلك الحرمان ، لأن كل ما وراء هذه الدنيا خفاء  
في خفاء .. ولشد ما أحبتك يا أونوريه ! .. وما أقسى  
الموت على الحب ! وأنا الآن في الساعة النى لا يكذب  
فيها الإنسان . وانت تحس ذلك في أنفاسى التى تحرق  
شفتى . وعلى رغم حزنى لمفادرة هذه الدنيا ، فعزائى  
ان الله حفظك للمصير العظيم ، المقدر لك ، وللحربة  
التي ترفع فيها ، وللمرأة التى ستحبها ، لأننى واثقة  
من انها ستكون حقا امرانك ! ..

وكان لابد لبلازاك ، بعد هذه الزيارة ، من ان يتهالك  
فى العمل ، ليخفف من الشجن الذى سببته له عينا  
المريضة العزيزة .. فجرد قامه .. وصار يعمل فى  
ساعة ما كان يعمل فى يوم . وكانت فكرة سفره للقاء  
« ايف » قد قلبته جبارا ، لا يعرف التعب والنصب ،  
قد منحه أعصابا وعضلات ، ودما ، وحراره .. لأنه  
لابد من هذا كله لكتابة قصة من قصصه الخالدة ..  
كان لابد له من الوصف ، والتأمل ، والسر ، والافضاء ،  
والحديث .. كان لابد له من ان يكون مصورا ، وتاجرا ،  
وراهبا ، ومؤلفا مسرحيا ! .. اىكون هذا كثيرا على  
ايف لتوحى به اليه ؟ ! انه انتهى ، أو كاد ، من آيته  
الكبرى : Eugénie Grandet . وتوسل فى انائها  
بعينى ايف ، وبما يعرفه من روحها ونفسها ! ..

انها الآن فى « جنيف » بسويسرا .. وليس أمامه  
غير خمسين صفحة ليختم قصته ، ويكون له من المال  
ما يريد .. فقد وقع الآن عقدا مدهشا مع الارملة بيشيه  
ناشرة الكتب . فكل ما حوله يحمل على الطمأنينة  
والثقة .

وهى تحبه .. وهى فى انتظاره ! ..



وفي يناير ١٨٣٤ سافر الى جنيف ، وحمل في حقيبته  
نوبا فاخرا ، أزراره الذهبية الخالصة من صياغة الفنان  
« جوسلان » ، الجوهري الاول في باريس . وحجز في  
« بنسيون ميرابو » الفخم شقة صغيرة أنيقة ، جديره  
بأن ترتدى فيها صاحبتة بين ذراعيه ! .

يبد انه ألفاها هادئة ، تريد أولا ان تتحدث . فقال .  
— مابك يا حوائى العزيزة ؟ .. نحدث ؟ .. اننا لم  
نعد ظامئين للكلام ! .. نحن ..

فقلت بهدوء ، وهى تحقق فيه من وراء نظارته  
يدها ، محاولة الابتسام :

— أريد أن أعرف كم من النساء تشركهن معى في  
الحب في وقت واحد ؟ ..

— ماذا نقولين ؟ هذا فظيع ! .. هل أصفيت الى  
الاشاعات والاقاويل ؟ .. أنت نعرفين أن كل نى  
نعمة فى الناس محسود .. فدوسى ما حولى من  
الاحترات ! ..

— ومن تلك اذن : المركيزة دى كاسترى ؟ ..

— امرأة امقتها ! ..

— ومقتك اياها لم يحل دون هداياك لها ! ؟ ..

— يا حبيبتى ، انى أحمل اليك قصة شنيعة رسمت  
فيها الشاذة ، انها امرأة زعمت انى احبها ، ولم احبها  
.. ولم تحرك فى الا سواكن الشر والبغضاء ! .. وأقسم  
لك يا ايف اننى ما تمنيت أبدا امرأة كما أتمناك فى الهناء  
الذى يقدق الطيبة والحنان . لسنا عدوين ، وانمسا  
نحن جزءان فى روح واحد ، يتساذيان ، ويريدان أن  
يتصلا ، ويتعانقا ! وانى انتظرك فى « بنسيون ميرابو »  
.. فمتى تجيئين عندى ، لتحقيقى آية ارتباط مخلوقين،  
خلق كل منهما للآخر ؟ ..



- ومدام دى برنى .. كيف حالها ؟  
- انها تختصر يا ايف ! .. انها تموت وهى تباركنا !  
.. انها قديسة ! .. ولا يجوز النطق باسمها الا جثوا  
.. يا صديقنى ، انها لا تعرفك ، ولكنها تحبك . مدام  
دى برنى ، هى امى ! ..

فمدت اليه ذراعيها ، وتعانقا طويلا .. ثم قال :  
- سألتك الا ما نبذت التفكير فيما يسوء . فلا  
تصدقنى ، ايها الملك العزيز ، الا ما تسمعيه منى رأسا  
.. ان حياتى الماضية كلها ، سأسطها لك بنفسى ، فلا  
تخافى ، ولا تحزننى .. لقد كنت دائما أقشعر جزعا من  
الغراميات المبتذلة . انها انت ، اجل انت ، المرأة  
النبيلة ، السامية الروح ، التى انتظرتها ، و تمنيتها منذ  
خمس عشرة عاما . ولا أعرف فى بلادى امرأة يمكن ان  
تقارن بك الا مدام دو ستايل .. وقد جعلتنى صديقتاى :  
مدام دى برنى ، ومدام كارو ، أكثر ما أكون تشددا  
فى شئون الروح .. وليس من حب عندى عن غير طريق  
الروح ! .. أما المجد ، فى الواقع ، فانى أسخر منه ..  
فما أردته الا لالفت نظرك انت ، الموعودة بأن تكونى لى ..  
بيد أنى أعيش فيك ، ومنك ، ولك ! .. وأنت نجمتى  
الهادية ! ..

- وأنت ! .. انك تمثل لى فرنسا .. فرنسا  
العاطفية ، بمثالها الأعلى : كل شيء ، أو لا شيء ! ..  
فماذا يسعنى أن أقول لك الا انى أحبك ، بكل جوانح  
صدرى ، بكل مشاعر نفسى ، بكل مجامع قلبى ! ..  
- بكل جوارح بدنك .. اليس كذلك .. يا ايفا ؟ ..  
تعالى غدا ! تعالى غدا ! ..

فجاءت ...

ياله من يوم : بحران ، وهذيان ، وفوران ... لن



يتطرق اليه النسيان ! .. سيظل هذا اليوم مطبوعا في ذاكرتهما ، كما لو كان يوم عواصف ، وورود فعواصف ، يرى الرائي ، في الليل ، على برقه ، أبواب الأبدية ! ..

وكانت الكونتس ايف دي هانسكا في ثوب من الجوح الرمادي ، فتن به ، فأعطته من قماشه قطعة .. وأقسم لها أغلظ الإيمان . وقطعت على نفسها العهود والمواثيق . ولم يعد للكونت دي هانسكا ، الزوج ، وجود ! ..

وكان الرجل في هذه الساعة ، التي يتعبدان فيها لبعضهما ، يحضر مأدبة رواد جبال الألب ، وهذا الرجل المسن سوف يموت ويرحل .. وستزيح الطبيعة عن طريقها مايعوقها . وتصبح مدام دي هانسكا : « مدام أونوريه دي بلزاك » ! . وعند هذه الفكرة ، صاح بها : « يا عزيزتي الحبيبة ! .. اني احبك كما كانوا يعشقون في القرون الوسطى ! .. »

فانظر ، وأعجب من مشهد هذا الحب العجيب ، يجري في مدينة جنيف نفسها ، التي شهدت مذلة الكاتب ، وانكسار فؤاده ، عندما وصدت عنه المركيزة دي كاستري ، ونبذته وهو كظيم !

وكانت الكونتس دي هانسكا نموذجا فذا للحسن الأنثوي وهي في « الروب دي شامبر » ، الذي حملته معها لتلبسه في بنسيون ميرابو ، حيث كانت تجيء كل يوم ، وكل يوم مرتين ، مدى خمسة عشر يوما ، في زوبعة عاطفية مثيرة ! .. رغم ماسببه لهما أحيانا الكونت دي هانسكا من الرعب ، لأنه لم يكن دائما في مآدب ! ..

وكانا ، بعد ساعات الهوى ، يأكلان ويشربان على مائدة صغيرة في غرفتهما ، ويمزحان .. وهي ، بين قبلة وعناق ، تتوسل اليه :

« لشد ما أعبدك ! .. أنت الطيب القلب .. الرجل



العظيم .. ولكن .. بربك ، يا صديق قلبى ، أسعدنى  
بألا تضع السكين فى فمك ! ..

وهو يضحك :

— أيسوءك ذلك يا حبيبتى ؟

فترد بتيء من الجفوة :

— ان نساءك : كارو ، ودى برنى ، كانتا تستطيعان أن

تقولا لك ذلك قبلى .

أهى عجرفة ؟ أهى غيرة ؟ أهى برودة قلب ؟ .. لقد

وجه هذه الأسئلة الى نفسه لحظة ، غضبان أسفا ! ..

ولكن كان جناحاه من القوة بحيث لا يستطيع إلا أن يطير

.. والطائر الذى يحلق فى أسباب السموات لا يعود يرى

تراب الأرض .

ولم يلبث أن اكتشف من طباعها فى جنيف ما لم يره

فى نيوشاتل .. فقد كانت تغلب دائما عقلها الجبار على

قلبها ، فيسوده .. ويصطدم بلزأك بهذه السيادة ، حتى

صاح يوما : « آه منكن أيتها النساء ! .. أيتها النساء ،

ما أكثر ما فى طبيعتكن من ظلم ! .. » .. وكان أحيانا

يرد عليهما ردودا جارحة ، أقرب الى الحق منها الى

الطيبة ، حتى أحسست هزيمتها ، فكانت آخر كلمة لها

أن نهرته لما فى صوته من خشونة ! ..

فعاد الى باريس ، متألما ، مقتنعا بأن المرأة دون

الرجل .

وعلى رغم المفاجأة التى كانت تنتظره من بيع كتابه

« دراسات فى أخلاق القرن الثامن عشر » بسبعة وعشرين

الف فرنك ( ألف جنيه مصرى ) ، مما عده ثمنا مدهشا

لا يصدق ، فقد مضى فى عمله دون فرح أو مرح .

وكان بحاجة الى التسلية .. وباريس بلد السبوى ..

فقصد خائطه المشهور بويسون ، يوصى ببذل عديدة ، لن



يدفع لها ثمننا ، وان أقسم على الدفع :

- يا عزيزي بويسون ، ان الناشرين وحوش ضوار ! ..  
( انهم لم يكونوا كذلك الا بالنسبة لنفقاته وبذخه ) .. في  
حين ان رجلا مثلي لا يمكنه الا ان يتفق ، يا عزيزي  
بويسون ! .. ومنذ ظهور قصتي « أوجيني جرانديه » ،  
وعيون الدنيا كلها على بلزاك ! .. فلا بد اذن من ان تكون  
بدلتى القادمة آية باهرة ! ..

ومع انه قد تكرر ، وصار جسمه لا ينسجم مع  
التفصيل الاثيق ، فقد تفانى بويسون في خدمته ، لانه  
كان يحبه . كان يحبه الى درجة ان قدم اليه غرفة فوق  
محله ، في ركن شارع ريشليو والبولفارات الكبيرة ، ولم  
يكن بلزاك راغبا حقا في ان يعمل بها ليكون في قلب باريس  
كما ادعى ، وانما لرغبته الملحة في الاختفاء والهرب من  
الدائنين ، المتربصين دائما ببابه ، يدقون جرس شارع  
كاسيني ليل نهار ، مما جعل مقامه فيه لا يطاق ، رغم  
حدائق ساحة الأبرفتوار ! ..

وانضم الى الدائنين رجال الحرس الوطنى ، الذين  
يبحثون أيضا عن بلزاك ، ليعلنوه بأداء واجبه في الخدمة ،  
أو يلقي السجن جزاء وفاقا ! .. وكانت اعلاناتهم يعقبها  
عادة التنفيذ فورا ، وقد نجا حتى الآن من مطاردتهم اياه ،  
بفضل تنقلاته وأسفاره ، غير ان جيرانه وخدمه قد أندروه  
بما ينتظره ! .. فسب حكومة لويس فيليب ، وأقسم  
الا يخدم في الحرس الوطنى أبدا ! أبدا .. الميس بلزاك  
« القايش » ، و « الجبخانة » ؟ لماذا اذن لا يعلق أيضا  
طبله ؟ ! وياله من عهد مرذول ! .. ولكنه سيقاومهم  
وينتصر عليهم .. بأن ينسأهم أولا ! .. والآن .. الى  
العمل ! ..

قال لنفسه : « ان ديونى لا تعد شيئا مذكورا ، اذا



قورنت بالمبالغ الطائلة التى ستنتج عن الموضوعات التى تدور فى رأسى .. ولن يكون فى هذا الجيل الا أربعة رجال حقا : نابليون سيد الحرب ، وكوفيه العالم النباتى الذى تزوج الارض، وأوكونول النائب الايرلندى الذى تغمص فيه شعب بأسره ، وبلزاك الذى يحمل مجتمعا كاملا فى رأسه ! ..

ولم يكن يقف فى بذخه وسرفه عند حد . كان يكرر لخائطه بويسون : ان رجلا مثله لابد من ان يكون فى الحياة ، كما هو فى تأليفه ، سابقا لزمانه ! .. فيبدع هنا ، ويبدع هناك .. أى يخلق « الموضة » ولا يتبعها ! .. وكان بلزاك يترك شعره ينمو ويطول حتى يروه ، ويتناقشوا فيه ، فلا يلبث اهل الأتاقاة أن يتبعوه، ويرسلوا شعرهم ! ..

وكان نسيج وحسذه ، بلون ثيابه ، وبنظارته التى صنعها له صانع نظارات المرصد ، وبعضاه .. هذه العصا التى كانت فريدة فى باريس ، وكانت من وحي العشيق .. فقد سأل مرة الكونتس دى هانسكا أن تعطيه شريطا أو منديلا تذكارا منها ، فأعطته سلسلة صغيرة من الذهب ، مرصعة بالفيروز ، ومنتهية بشرابة ذهبية كالسبحة ! ..

ولم يلبث أن أراد أن يظهر ذلك فى باريس ، وأن يحمله على رؤوس الاشهاد ، كعلامة بديهية على أنه يعيش تحت شارة الحب ! .. فقصد الجوهري « ليكوانت » المشهور، وأغدق عليه الاوصاف والامجاد ، وجعله يخرج له من عصاه وسلسلتها وشرابتها الذهبيتين صولجانا ، يرفعه فتتجه اليه جميع النظارات الكبيرة فى دار الاوبرا عندما يدخل ! ..

وكان النساء يتهافتن عليه فى دهاليز التياترو ، ويكتبن



اليه الرسائل .. وكان يقيم المآدب في المطاعم ، ويقدم من ألوان الطعام ما يزرى بموائد الملوك والأمراء .

وظهرت قصته النى رسم فيها المركيزة دى كاسترى ، المرأة التى لا قلب لها . فدهش من ذات نفسه . وبهر من روعة هذا الأسلوب وجراته وعمفه ! .. ان احدا لم يعالج الحب قبله هكذا . انه لا يخاف الألفاظ ، ولا الأشياء ، وقد حل تلك المركيزة ذات القلب المعنى كاللفز ، تلك المرأة التى هو مدين لها بالحزن الذى قبض رجاءه ، ولكنه صقل ذكائه .. فتساءل : ماذا يكون لو انه ذهب فقرا لتلك المرأة كتابه ؟ ! أجل ، أجل .. حتما ! .. لا بد للمرأة التى سببت كل هذه الوجيعة ، والتى زعمت أنها اتخذت تابعا لها من رجل عبقرى ، من أن تعرف كيف يتحرر منها وهو يحسن اليها .. لأن الكتاب العظيم هو أحسان عظيم ! ..

وهرول الى قصر شارع دوباك ، فوصل والساعة الرابعة . كم من مرة وصل فيها فى نحو هذه الساعة والقلب يدوب صباية ! .. فلما سأل عما اذا كانت المركيزة تستطيع مقابلته ، توائبت عليه ألوف الذكريات .. وكاد يحس ضعف الأيام الخالدة ! ..

أذنت له .. فدخل . فلم تصح صيحة الفرح ، وله تلق بنفسها بين ذراعيه . وهو مع ذلك يذكر رسالتها التى كانت كل جملة زفرة ولوعة .. وها هى ذى الآن معصومة من الألم ، ثابتة الجنان ، تكاد تصبح منهسا الفطرسية والدلال ! ..

فقدر بطيبة قلبه : « لعلها بكت طويلا ! أولعها قد جفت من عينيها الدموع ! ايه أيتها المرأة ! .. أيتها المرأة الرهيبة ، المجهولة أبدا ! .. من ذا الرجل الذى لا يكون ، أمامها ، شقيا ؟ .. » ..



ولكن لا ! .. انه ، هو ، لن يكون بعد كذلك ..  
لا يريد ..

وأفضى اليها بلهجة الجندي الذى سيفامر فى معركة  
بالسبب الذى جاء من أجله .. وأنه يريد أن يقرأ لها :  
هذه .. هذه الأوراق .. كتابه الاخير .

فتبتسم وتقبل . تلك الابتسامة التى ليست وراءها  
ابتسامة . سيقراً عليها قصته ، أى قصتها ، وينتصر  
عليها ، ويخزيها ..

فتستمع ، بينما تهز مروحتها ، وتشير برأسها الى انه  
قد أحسن معالجة الموضوع .. انها ترى فيه نفسها ،  
وتسمع نفسها ، وتعرف نفسها .. فتبتسم أيضا ..  
وكان يقرأ بحدة ، حتى اشتد تأثره .. وسألها :  
- أليس هذا جميلاً ؟ ..

فتقول بصوت نحيف :

- نعم .. ومكتوب جيداً جداً .. وانى لأسفة حقاً  
اذ ضربت موعداً لبضعة أصدقاء .. فها هو ذا مونسنيير ،  
الذى يتلقى اعترافى .. وكذلك طبيبى .. والمركيزة دى  
لابوردونيه ، قد وصلوا معا ! ..

فيقف بلزاًك . ويلم أوراقه بعجلة ، ويخفيها ، وقد  
احتقن وجهه غضباً ، وتلهب غيظاً .. ويبحث عن باب  
فى الأرض أو فى السقف ! .. وبوده لو ألقى بنفسه فى  
النار ! .. أو بذبح هؤلاء الناس جميعاً ! .. ثم .. لا يلبث  
قلبه الكريم أن يخفق فى صدره ، مشيراً عليه بأن العفو  
من شيم الكرام .. وأن قراءه سينتقمون له ، بحكمهم  
الصارم على هذه المرأة ...

فيودع وينصرف . ويجرى الى شارع دنفير ، حيث  
صاحبتة مدام دى برنى طريحة الفراش ، وقد دخل  
الليل ، فيجدها فى الساعة التى تشتد فيها آلام المرضى ..



فيحاول أن يرد الحرارة الى جسمها الفاتر ، وقلبهما العائر ، بيديه الساحرتين .. ولكنهما تقفه ، وتفتصب الابتسام .. « انها لا تريد أن يرى ألها .. وكان ألها لا حد له ، وكانت تعرف أنه قضى أسبوعين في جنيف . ونبأها قلبها بما جرى خلالهما .. ولكنها أخفت عنه غيرتها . فان عقلها يبرر عملها ، أما قلبها ...

وحاول هو من جانبه أن يخفى ألها لرؤيتها ذاهبة . فلم يعد ثمة شك في انها هالكة . يا للحبيبة المسكينة ! .. لقد قام أمام عينيه بيت ضاحية فيلباريزيس ، عندما دخلت الصالون ، مع بنتيها ، في ١١ يونيه ١٨٢١ .. وأحس بفؤاده يتمزق .. وصعدت زفرة الى حلقه . ولكنه نظر اليها ، وطمأنها بأنها خير مما كانت .. وأنه لا تلبث أن تسترد مزاج الحياة .. ووعداها بالعود لزيارتها بعد أيام ..

وخرج .. وكأنه يسير والى جانبه الحب والموت .. فتشلىج جسده . وفطن فجأة الى أنه يحمل شيئاً . وكان هذا الشيء مخطوطا يريد تجليده لعزیزته أيف ، مخطوطا يعجبها ، ويجلده في قطعة القماش من الجوخ الرمادى ، من الثوب الذى أحبه عليها .. وانتصبت أمام ناظرية الكونتس دى هانسكا تمشى مشيتها الأخاذة ، التى لا تكاد تمس الأرض ! ..

بنسيون ميرابو ! .. يا للأيام المجنونة ! .. ويا للذكريات السكرى ! ..

« أيف ! .. يا حوائى المعبودة ! .. »

ونطق بهذه الكلمات بصوت مرتفع .. لم يلتفت الى من يدفعهم من حوله من المارة .. فقد كان مخبولا حبا ! ..



## الجزء الثالث :

### النضال مع الموت

- ١ -

أرأيت الى المسافر في الجبل صعدا، يبلغ القمة، فيشعر  
بفرح قوى قصير .. فها هو ذا في غاية جهده . لقد بلغ  
الهدف ، ولكن بلفت الروح التراقي .. وفي الطبيعة  
المجردة يستنشق هواء من النقاوة بحيث يجعله يترنح ..  
ولا تحول هذه النشوة دون شعوره برعد البرد .. فيرى  
أن مصيره ليس معلقا بالبقاء في هذا المقام الشامخ ..  
فينزل تانيا ..

وهذه هي صورة الحياة . فسنوات الوحي والفيض  
قصيرة . وبعد ما يناضل الرجل الناجح في سبيل العيش  
طويلا ، ويبلغ ذروة الخصب الوفير ، لا يبقى هكذا الا  
يوما ، ثم يعود فيهبط ، ثم يهبط .. ومنذئذ ، لا بد له  
من النضال حتى لا يموت ...

ولم يستطع بلزاك أن يملك ناصية القدر الا عامين او  
ثلاثة .. وفي خلال هذه الأعوام لم يحس الحاجة الى  
المال ، ولا بالام الحب ، ولا بمشاق العمل ومتاعب الجهاد  
.. ونسى في غيبوبة الهوى ديونه .. ومن شجن الهيام  
بامرأة جافية وضع كتابا عنيفا .. فهل كان الحكم عليه  
قاسيا؟! .. اذن فهو بهرع نحو حب آخر ، بسوقه الى  
ديون أخرى .. وان كان يبتدع فيه قصة جديدة! ..  
لقد كان يحارب على طول الجبهة ، وكان يعاند كل



شيء حتى القدر ، وكان يحيا حياتين أو ثلاثا ، ويجسد بفضل قهوة البن الى عدم النوم سبيلا ، ويملا هذوء الليالى بعمل مضمّن كالعبيد .. ولم تظفر عبقريته وتزدهر الا بما أوتيته من صحة وقوة ، أشبه بالثيران ، لا بنى الانسان ..

ولكن حدث فجأة ، فى هذا الجسد القوى ، أن اختل التوازن . ففي نوفمبر ١٨٣٤ أصيب بشيء كاحتقان خفيف فى المخ . على أنه شفى منه سريعا ، ولم يلق اليه بعد بالا . وكان ذلك انذارا بما يهدد الهناء .

وكانت سنة ١٨٣٥ من أمر السنين . أما سنة ١٨٣٦ فكانت بلاء . فقد صارت الكتابة ضربا من الأشغال الشاقة . لم يعد لديه سبب الى الراحة . فكم من العمر أمامه ؟ انه يخشى أن يجيء الموت فيقطع عليه عمله . ولكيما يتم هذا العمل سريعا مات قبل الأوان .

وكانت أمه ، مثل كثيرات من النساء عندما تتقدم بهن السن ، لا ترى مطلقا وجهها للتفلؤل ، وترى وجوها عدة للتشؤم ، فهي تراكم : العقبات ، والمشاكل ، والمشاكل .. وكان أمامها يذوب بأسا . فاذا كان ما ازل حتى سنة ١٨٣٥ مدينا ب ١٥٠٠٠٠ فرنك ( ستة آلاف جنيه ) فهذه غلطة القدر وحده ! .. وكان يقدر أن يكسب من الناشرين عشر آلاف فرنك فى السنة ، مدى ثلاث سنوات ، يسدد منها ستة آلاف ، أرباح ديونه ، ويعيش بالباقي ! .. ولكن أين يجد الوقت المسادى لذلك ؟ وهو يسعى لدى المرابين الذين يتقاضونه عشرين فى المئة نقدا ، ويتقاضونه خمسين فى المئة من وقته الغالى ! .. ما أصعب الانتاج الأدبى ، وما أشد استحالاته ، على دماغ معذب على هذه الصورة ! زد على ذلك ما اشتراه من عربات ، بفكرة توفير الوقت ، الوقت الذى هو لديه أثمن من كل شيء !



.. واذا كان بحاجة الى النور في الليل ، فذلك لكى يظل  
ساهرا ، واذا كان بحاجة الى القهوة والنار ، فذلك لكى  
يعمل فى دفاء ، ويحاول أن يدفع ! ..

وتخيل نفسه ، لحظة ، يعيش ، ويتنفس ، فى جو  
مقاطعة تور الهادئة الجميلة ، والى جانبه عزيزته «ايف» ،

التي ستغادر بولونيا لتشاركه هناءه .. آه ! .. هناك ،  
لن يكون بعد بحاجة الى المرايين ! .. هناك ، لا يتكلف  
العيش شيئا .. فيطعم الخضر التي يزرعها ! .. هناك ،  
يسخر المرء من الناشرين ، ومن المجلات ، ومن الجماهير ،  
ومن الصالونات ، ومن الحرس الوطنى ، جميعا ! ..

وكانت ادارة « الحرس الوطنى » (١) قد أصبحت من  
أشد أعدائه تكاية به ، واضطهادا له ! .. فلم يكن يروعه  
شيء ، ويملأه بالغضب والاشمئزاز ، مثل اضطرابه يوما  
الى الوقوف موقف الجارس ! .. ففي ابريل ١٨٣٢ سلم ،  
واشترى لنفسه سيفا وجبخانه ، لا أكثر ولا أقل ! ..  
فلم يلبث قط دعوة وجهت اليه . ومرت شهور ، وشهور ،  
وهو يهرب من السلطات . فتلقى الانذارات ، ثم اعلانا  
بحكمين صادرين ضده . يقضى كل منهما عليه بالحبس  
يومين . وأخطأوا القبض عليه مرتين ، ثم أمسكوا به  
الثالثة .. فكانت مأساة من مآسى حياته . فأودعوه  
فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٧ ابريل ١٨٣٦ المنزل  
المجاور لسوق الخضر المسمى « دار اللوبيا »

L'Hotel des Haricots نسبة الى صحن اللوبيا الرئيسى  
الذى يقدمونه لكل قادم أسوة بالثكنات ، وأشبه ما يكون  
بطبق العدس الذى يقدم فى مصر . فتراكمت عليه السامة

(١) هى خدمة الرامية لفترات محدودة . واعمال معنة . فرضت  
لظروف قومية استثنائية . خلال السنوات : ١٨٣٠ - ١٨٤٨ و ١٨٧٠ -  
١٨٧١ .



والسخط . وكان البرد تقشعر منه الذئاب . وهرول  
اليه ناشر كتبه الشاب « فردت » .. ولما أغلقت عليهما  
« الزنزانة » ، هاج بلزأك هيجة الوحش الضارى ، حتى  
لكأنه سيهم بالتهام فردت ، أو تهشيم رأسه فى الجدار ،  
أيلقى هؤلاء الأشرار بأونوريه دى بلزأك فى هذه الزنزانة  
الكريهة ، ليموت فيها من البرد ؟ .. أتريد حكومة الملك  
لويس فيليب أن يقضى فيها نحبه ؟ .. أليست هذه  
مؤامرة وضيعة ؟ . ولكن لا ! .. انه لن يموت من ذلك ،  
بل يرفع الرأس ، ويقـادم ، ويبصق باحتقار على :  
هذا البلاط ، وهذا الحكم ، وهذه « البورجوازية » التى  
تسندهما ، هؤلاء البقالين جميعا ، المبهورين بذهابهم  
فى موكب لعرض بطونهم أمام بلاط التويلرى ! .. وانهم  
وربى ليؤعمون أنفسهم جنـودا ، هؤلاء « الحراس  
الوطنيون » ! .. ويتصورون أنفسهم على غرار نابليون !  
.. وهؤلاء هم نوع المواطنين الذين يعنى بهم جلالته ! ..  
أما الكتاب ! .. فاذا قام الدوق دورليان وزوجته  
باقامة سهرات أدبية لهم ، فان الملك لا يلبث أن يشعرهما  
بأنها سهرات فى غير موضعها ! .. اذن فالتجارة والصناعة  
فوق كل شىء ! .. واذن فهو الجهل المطلق بما هو أهم  
وأعظم ، أى : بالفكر ! .. أكون بلزأك طريح « دار  
اللوبيا » ؟ ! .. ان هذا المشهد ، فى القرن التاسع عشر ،  
يدعو الى الاستشاشة ، والبكاء غضبا وسخطا ! .. هل  
قام الشعب بثورته من أجل هذا ؟ ! .. أيفرح الحمقى  
بأن يكتب على أزرار ملابسهم العسكرية ، ملابس  
الحرس الوطنى : « نظام وحرية » ، كأن أحدهما ليس  
مضادا للآخر ؟ .. فما هى هذه الحرية التى تمكن أى  
سوقى من أن يطرح فى غياهب السجن كاتبا كبيرا ؟ ..  
وتجعله يخسر : عشرة آلاف فرنك .. أنه سيطالب بها



فيما بعد ! .. بل انه سيخسر ( بعد احصاء ! ) ١٤٥٠٠ فرنك ! ..

تم خائنه شجاعته فجأة ، فرثى لسوء طالعهِ الذي أدى به الى هذا .. ثم طفق : يسعل ، ويهدد ، ويتوعد ، بأن له مجلة *Chronique de Paris* يفضح فيها من يضطهدونه ، ويتحدى من ينتقدونه .. وأنحى على هؤلاء وهؤلاء باللائمة :

— أما الصحفيون ، في هذا كله ، فهم لا يفرقون .. يرون وفرة انتاجي ، فيقولون اننى اكثر القصصين خصبا ، وحسب ! .. فياعزبزي فردت ، ان هناك امرأة حدثتك عنها من قبل ، امرأة مثقفة ، وهى لى صديقة شائقة ، مدام كارو ، قالت لى يوما : « ان المحترفين من اهل الادب لا يمكن ان يفهموك .. فأنت تضيفى من روحك ونفسك على كتاباتك أكثر كثيرا مما بدركون ! » .. وهذا حق . واضف اليه الغيرة والحسد ، فهم يروننى أحلق فى السموات ، بينما هم يتخبطون فى الأوحال ! .. أسفا على ان الوقت يضيع فى هذه الحروب الدنيئة ، الظاهرة والخفية .. فعندما أفكر فى اننى سأبلغ ، بعد خمسة عشر يوما ، السابعة والثلاثين من العمر ، أرانى قد انتهيت ، فلم أعد شابا . شعر أبيض ، وبطن أكرش ! فقال فردت :

— حسبك ، حسبك ! .. أرى هذا التعلل منك دليل الجوع .. فهل اذهب فأتى لك من المقصف ما ألقى ؟ .. — ما فى مقصف هذا السجن تتقزز منه نفسى تقززها بهذا العهد .. فاذهب يا عزيزى فردت الى مطعم « فيفور » واطلب لى وجبة ملك ! ..

— ماذا تقصد بوجبة ملك ...

— وجبة سمع بها ويدهش لها لوبس فيليب ، الذى



يعلم الناس طرا أنه ليس ملكا ! ..  
وجاءت الوجبة الفاخرة بعد ساعتين . وأحضر فردت  
معه خدم بلزاك ، فقاموا على خدمته ، أثناء تناوله الطعام ،  
في قاعة الأكل ، أمام أعين المعتقلين الآخرين المبهوتين ..  
ولما انتهى عاد الى غرفته . وكان فردت قد حصل على  
اذن بإيقاد النار فيها للاصطلاء . فاسترد بلزاك بعض  
الثقة بالنفس .. وحملوا اليه « من قارئة معجبة علمت  
باعتقاله المشين » : طاقة زهر ، وفطائر محشوة بالطيور  
ومربي المشمش .. فتهد قائلا :

- لا شك في وجود نساء ظربفات . ولا مرأى في أننى  
عملت من أجلهن الكثير ! .. ولو أن لنا يا عزيزى فردت  
ثلاثة آلاف قارئة متحمسة فقط ، مضمونات لكل كتاب ،  
لكان في وسعنا الثقة من شيء ...

فسأله فردت بلهجة :

- من أى شيء ؟ ..

- من الانراء ! .. أنت وأنا ! ..

- من لا شيء ؟ ! ..

- لا تكن ضيق الأفق ! ..

وظفق بستر عرض في زنزانته هذه الأحلام الجديدة ..  
واذا بحارس يدخل ، ويعلنه بحكم آخر عليه بالسجن  
ستة أيام ، حتى ؟ مايو ! .. فألقى بالحارس خارجا ،  
غاضبا ، محنقا ، قانطا ... وسقط أعياء على الحصر  
قائلا لصاحبه :

- أنت ترى أننى رجل انتهى ! ..

وكان هذا الناشر الوفى معه أيضا يوم خروجه في  
مايو . فقال له بلزاك :

وكثيرا ما الفت الأنظار . وهم ينتقمون منى ، لشدة  
- هذه التجربة هي درس لى . فانى كثير الكلام .



طبيبتى وصراحتى . وقد فهمت . وهذا كله ميسر .  
وسأعمل الآن فى الظل ، من أجل نفسى .. ولن يسمعنى  
بعد انسان . فم مطبق . صمت ووحدة ! ..

وكان لابد له ، لتحقيق ذلك ، أولا ، من ألا يكون مثقل  
الذراعين بمسألتين ، أو ثلاث مسائل خطيرة ، هى حديث  
كل الناس ، أو لا تلبث أن تكون حديثهم . وجاءت مجلته  
chronique de Paris التى اشتراها منذ ستة أشهر ،  
فزادت الطين بلة ، ينمنى لو صفى حسابها ، ولا يستطيع  
أن يفعل . وكان من كبار المساهمين فيها : الترنزى  
بويسون ، الذى كان مدينا له أيضا بتفصيل ثياب قيمتها  
أربعة آلاف فرنك ! .. وكان بويسون ، بدل أن يتمرمر  
ويتدمر ، يقرأ المجلة من الفلاف الى الفلاف ( وكانت  
فى اثنتين وتلاثين صفحة ، تظهر كل ثلاثة أيام ) ، ويقول  
لبلزاك وهو يقيس له البذل الجديدة :

— انى لا أفهم كيف أنك ، وهذه كفايتك المجيبة ،  
لا تكسب الملايين العديدة .. فان أحدا لم يؤثر فى بقلمه  
مثلك ! ..

ولم تكن مجلته التى تلتهم النقود ، بدلا من أن تدر  
عليه مالا ، هى شغله الوحيد الشاغل . فقد عاد فلقى  
نفسه فى مركز حرج مروع ، كما كان فى ١٨٣٩ ! .. وكان  
عليه أن يدفع ... ر. . . فرنك قبل آخر السنة ! .. كان  
يردد ذلك لكل من يصفى اليه ، من خادمه الخاص ، الى  
أعيان حى سان جرمان ، تاركا ، فى الوقت نفسه ، الصحف  
والمجلات الكاريكاتورية تفيض بذكر أسطورة تتردد عن :  
أنه غنى جسدا ، لأن ذلك كان ، فى صميمه ، يملقه  
ويرضيه ! .. ولكنه ما كان ليعطيه شيئا ! .. وها هى  
ذى ناشرة كتبه ، « مدام بيشيه » الأرمل ، قد تزوجت  
من رجل يدعى « جاكيا » ، فحملها هذا الزوج الجديد



على مطالبة بلزاك بخمسين فرنكا يوميا ، تعويضا عن تأخير المخطوطات ! .. على أن أمله الأكبر كان متعلقا بنشر فردت قصته : « الزنبقة » . يالله ! .. انه لم يكد يخرج من « ثكنة اللوبيا » ، حتى رأى نفسه مضطرا لرفع الدعوى على مدير « مجلة باريس » ، وهي قضية استنزفت دمه ، لشدة ما وضع فيها من روحه ، وشدة ما لقي فيها من خيبة أمل .. لشدة ما كان رجل احساس ، وقلة ما كان رجل أعمال . فان « بولوز » ، مدير تلك المجلة ، كان قد أعطى النصف الأول من قصة « الزنبقة » الى جريدته من جرائد سان بطرسبرج . فزعم بلزاك بادئا انه حالم . ثم أقام الدعوى أمام الحقيقة الواقعة ، واستنجد بزملائه من اهل الأدب ، لأنه يدافع عن مصلحة عامة لهم جميعا .. فماذا وجد ؟ .. لقد رأهم جميعا في صف بولوز ضده ، ليكفل لهم بولوز نشر مقالاتهم في مجلته ! .. فعانى قلب بلزاك الساذج من ذلك ما عانى . وكسب القضية ، ولكنه خسر أحلامه ! .. ولم يخفف نجساح الكتاب من مرارته ، مع أنه بيع منه في الثاني من شهر يونية ١٨٠٠ نسخة في ساعتين اثنتين ! .. ومرض من ذلك ، فسافر الى مسقط رأسه ، حيث اشتدت عليه العلة .. ثم شفى ، وعاد الى باريس ، حيث كان قد اتخذ من عام ، مسكنا جديدا ، بشارع « باتاي » ، أثنه وزخرف صالونه بالحرير والذهب ، مضاعفا بذلك ديونه ( أنا الفريق فما خوفي من البلل ! ) .. وكان له باب غير منظور ، الى سلم خفى ، كالقصور القديمة . وكان من هذا السلم يصعد الى « سندر » اتخذها مكتبا . ومنها يرى : « الشان دي مارس » ، والمدرسة الحربية ، وجرينل ، وتلال ميدون . وبذلك يشرف على جانب من باريس وضواحيها . وكان يقول أحيانا وهو واهن العزم ،



وأحيانا وهو يتحدى : « كم من قراء بلزاك في البيوت التي أراها ، وفي التي أتخيلها وراء هذه ! .. لا شك في أنهم في كل مكان ! .. » .. وسيثبت الزمن أن قراءة سيكونون في كل زمان أيضا .. وأنه سيترجم على ضفاف النيل ، ويقرا شباب الشرق ، المتحمس لكل ما هو جميل ، هذه الحياة الوفيرة العجيبة .

وما كان بلزاك ، بكل هذا الجهد ، مع الديون المتراكمة عليه ، إلا ليشقى .. أو لم تر كيف تقبل من الكونت والكونتس دي فيكونتى الذهاب الى تورينو ، من أعمال إيطاليا ، ليكون وكيلًا عنهما في قضية تتصل بالدفاع عن مصالحهما ؟! أترك هكذا شهرا كاملا ، منضدة عمله ، ويسافر هادئا الى الخسارج ، في خدمة أحد السادة ، لا يكاد يكسب الا قوته ، ويرى في ذلك عملا محمودا ؟! ويفيب عن باريس من ٢٥ يونية الى ٢٢ اغسطس .. ويعود فيجد في بيته بريدا ضخما ينتظره .. وينظر الى الفلافات ، فيرى غلافا منها رابه أمره ، ففتحه ، وضرب المنضدة بقبضته ، حتى كاد يكسر يده ! .. فهو نذير له بحكم آخر عليه ، لأنه لم يقم بدورته في الحسرس الوطني ! .. وكان نمة خطاب آخر ، عرف فيه خط الكسندر دي برنى ، نجل صاحبه الحبيبة لوردي برنى . فقضه ، فاذا به :

( لابلونبير في ٢٧ يولية ١٨٣٦ )

هذه رسالة حداد . ياميزى اونوريه .. )

فكف قلب بلزاك عن الخفقان . وبحث بعينين جاحظتين ، من هول الصدمة ، في خلال الصفحة ، عن الكلمة المحتومة . فوقعتا عليها . لقد ماتت ! .. يا للسماء ! .. لقد سقط في كرسيه كما لو كان قد صعق صعقا . ماتت !



هى ؟ .. لور ! .. لور ! .. وناداهـا بصوت متحشرج  
مختنق ، وقبل أن يفيس مدى مصابه فيها ، رآها بعين  
خياله على فراش الموت ، ثم مسجاة فى قبرها ..  
- أواه .. يا حبيبتي ! ..

لقد سقط قناع من الحـسـزن على عينيه ، فأمسك  
بالخطاب ، مرتعش اليدين ، لا يكاد يفك خطه :

( ... بعد عشره أيام فى الام عصبية حادة للغاية . فضب أمى نجبها  
فى الساعة التاسعة من هذا الصباح ... لقد انتهت حياة هذه الام  
الطيبة . وقد هدأت الآن ، واستراحت فى جدتها . وقد رتبـت قبل  
مرضها الاخير رسائلها . وجعلنها فى ثلاث لفائف .. واحدى هذه  
اللفائف بحوى على جميع مراسلاتك معها منذ عرفك . وهذه اللفائف  
المربوطة المختومة بأحكام . لدى منها أمر قاطع بأحرافها ، بمجرد موتها  
.. فبعد ساعة من كتابة خطابى هذا ، سأسـعل فيها النار ... )

وكان بلزأك ، وهو يقرأ ، يئن ويتوجع . فقد كان فى  
عربة المسافرين ، ليقضى مهمة الكونت الايطالى ، بينما  
حبيبته تقضى نجبها .. فلم تـره .. ولم تسمعه .. ولم  
يقف الى جانبها ! .. وهو ، وقد سمع اليوم بموتها ،  
لا يستطيع أن يهرع ليجثوا أمام رفاتها .. فعليه أن  
يذهب ليقدم حسابا عن مهمة فى ايطاليا .. فيقول : « اننى  
لا أستطيع حتى قضاء الواجب المقدس ، من وداع التى  
كانت كل شىء لى ! .. اننى عبد رقيق ! .. اننى أتعس  
الناس ! » ..

انه لم برها فعلا الا بعين الخيال ، وهى تمد ذراعيها  
الى ولدها ، تسلم روحها ، فى لوحة الحنان الأخيرة ،  
زاعمة أنها يفشى عليها بين ذراعى أونوريه ! ..

يا للسماء ! .. انه لم يرها منذ عام ! .. عام ! ..  
هذا فظيع ! .. ولن يجد لنفسه عزاء .. بعد كل ما  
تراكم عليها من مصائب : افتراقها عن زوجها ، وموت  
اجدى بناتها ، وجنون بنت أخرى ! .. على أنه ، من



جانبه ، قضاء عاما مضطربا منحوسا !.. انظر ماناله  
من مجلته ، ومن قضية ناشرة كتبه « يشيه » ، ومن  
قضية قصته « الزنبقة » ، ومن كل تلك الشناعات التي  
جعلته كمن حقت عليه اللعنة فكان من الهالكين .  
انه اليوم يتذكر نصيحها اياه بالا يكون كثير الطيبة ،  
والا يكون مفرطا في الثقة بالناس .. وها هو ذا يرى  
صدق نصيحها . ان الافراط في الثقة معناه ان يكون  
معتوها في عالم محشود بالقرصان .. وها هو ذا يجد  
نفسه ، مرة أخرى ، في شارع دى باتاي ، يعيش في  
غرفة سطح ، كما كان منذ خمسة عشر عاما سواء  
بسواء !.. فياللسنين التي غمرته بطوفانها دون جدوى ،  
أحيانا تحرقه بنارها ، وأحيانا نجمده بثلجها . وآه !  
لولا ما تخللها من بعض العطف الانثوي ، وبعض الحنان  
فحاول ، بالكتابة الى صديقاته ، المجهولات  
والمعلومات ، ان ينخفف من حزنه ، وان يتشدد من  
ضعفه ، وان يطري ذلك الملك الذي فقده ، فيلطف  
بالمديح والثناء عليها ، من الندم على قضائه عاما دون  
زيارتها . فكتب الى ثلاث نساء .. الاولى تدعى لويز ،  
وهذا كل ما يعرفه عنها . وهو لم يرها قط . ولكنه  
كان يتبادل وأياها الرسائل التي بدأت بصيحات النجوى  
والاعجاب ، ثم تحولت الى نداءات التمنى ورثسها  
الرضاب !.. وكانت تلك المرأة ، ببقائها خافية عليه ،  
مجهولة منه ، ذات تأثير شعري فيه لا يقاوم .. فهو  
يروى لها ، أول ما يروى ، حديث بثه والده :

( ان المرأة التي فعد بها ، كانت لي : أكثر من أم ، وأعز من صديقة .  
... انها ملك هبط على ، طيرحمني من هول ما ألقى في هذه الارض  
المستعرة بالويلات .. وقد أيدتني : بالقول ، وبالفعل ، وبالتفاني ،  
في أحلك الليالي ، وأشد الايام أنواء وزوابع .. واذا كنت أعيش ..  
فبفضلها ، فقد كانت لي كل شيء ! ... )



وكان في بريدته خطاب من زولماكارو تدعوه ، كالعادة ،  
الى ان يغادر هذا القرن المقنوت ، باريس ، ويذهب  
اليها ، في الريف ، ليستجم ويستريح .

آه لو كان يستطيع !.. لقد هرع بالفكر نحو الحياة  
الجميلة المحيطة بتلك المرأة البسيطة ، الطيبة ،  
الكريمة ، التي لم تكن له يوما الا : صديقه ، وفيه ،  
نقية .. وكانت تعرف مدام دي برنى من حديثه عنها ،  
وتمنى لو عرفت بها بشخصها ، فراح يبثها مصائبه  
العظيم ..

وأخيرا .. كيف لم يكتب خطابا طويلا الى عزيزته  
« ايف دي هانسكا » ؟ ولكنه لم يكن يستطيع مع  
هذه التي كانت خليلته ، ان يبدي ذات الصدق المطلق ،  
يتحراه مع الاخريات ، اللواتي لم يكن الا صديقات !..  
ان الكونتس دي هانسكا امرأة ذات أهواء .. فبالرغم  
من رسائله المشتعلة حبا اليها ، تراه غير وفي لها ..  
وهي تصفى الى ما يدور حوله من وشايات الحساد ..  
حتى لقد اضطر مرة الى الاقتراض من ناشره فردت ،  
وخف الى لقائها في فينا ، ليخفف من سورتها وغضبته .  
فتصالحا . وما كانت لتقاوم قط حديثه . كان :  
بصوته ، ونظراته ، وحميته ، وفورته . يؤثر فيها ، كما  
كان يؤثر بكتابته .. ولم يستطع بلزائه ، يوم علم بوفاة  
لور دي برنى ، الا ان يقارن : بين ايف ، وبين تلك التي  
ذهبت لغير عودة .. تلك التي كانت رءوفة رحيمة به ،  
كرامة معه ، حية منه .. وقد ماتت ، على مايلوح ،  
من عذابها الادبي ، دون ان تبوح له ..

آه لتلك المخلوقة العزيزة ، العلية النفس .. أبت الا  
ان تنزل عن الحب ، عندما رأت انها قد وهنت ،  
وصارت عجوزا !.. لشد ما كانت تعرف كيف تحب ،



فلا تفكر الا فيمن تحشه ، حتى انها قالت له ، عند  
عودته من جنيف ، ولقائه ايف : « احس انك قد عرفت  
الآن امراتك الحقيقية ، وأرى هذا خيرا » ..  
أى قلب كبير ، هذا القلب الكسير ؟ ! ..  
وعندئذ كتب الى السكونتس خطابا مؤثرا بما فيه  
من عزة وانفة :

( مانت مدام دى برى . ولا أقول لك أكثر من ذلك . فان حزبي  
ليس حزن يوم .. وإنما سيمند ما على بقى لي عند الدهر من عمر ..  
لقد كانت صادقة . لم ترد الا الخير والكمال لي .. وأنت عندي وارثتها  
.. فان لك كل صفاتها الطيبة .. )

وشعر بدوار رأسه ، وضيق صدره . كان بحاجة  
الى الهواء . فخرج . وصعد حتى ساحة الايتوال .  
وكانوا قد ازاحوا الستار عن « قوس النصر » غداة  
سفره الى ايطاليا . فوقف يتأمل : ذلك النصب الفخم ،  
الذى شيد تكريما للبطولة ، وتمجيذا للجيش ..  
المجد ! ..

لقد تساءل بلزاك ، في هيجته ولوعته ، عما اذا لم  
يكن المجد ، كالحب ، سريع العطب .. وعما اذا كان  
يستحق التهاك عليه ، والتفاني فيه ! ..



ان لبوط الهمة في مثل هذا الرجل ، لا يمكن ان يدوم  
الا اذا ازدادت حالته الصحية سوءا .. هذا في حين  
انها تحسنت . وهو يعزو ذلك الى الاستشفاء بالفاكهة!  
فقد ورث عن ابيه الاندفاع المبالغت نهم بعض النظم  
الغذائية . اما وقد اتهم اربطالا ، بل اطنانا ، من : الكرز ،  
والقراصيا ، والخوخ والكمثرى ، فقد احس بصفاء  
ذهنه ، ونشاط جسمه ، واستعداده من جديد للنضال  
الجبار! فجعل ينظم مؤلفاته في سلاسل باسم : دراسات  
اخلاقية ، ودراسات فلسفية ، ودراسات تحليلية .  
واستأنف مشروعاته عندما كان في سن العشرين . وبذلك  
احس بسعادة فائقة . انه يريد : المجد والمال ، معا .  
وكانت زولماكارو ، المتواضعة ، تحسب انه يمكن الحصول  
على هذا دون ذاك . وهذا خطأ !.. فلا بد من ان يكون  
المراء اولاً غنيا ! قال : « اننى اخسر ٣٠٠٠٠ فرنك  
( ١٢٠٠٠ جنيهه ) في السنة ، لاننى لست غنيا . فاذا  
اصبحت غنيا فرضت ارادتى فرضا !.. اذا اصبحت  
غنيا لا اعرض عملى ، بل يطلب منى ، ولا اكون سائلا ،  
بل اكون مسئولا .. وليس « اوجين سو » شيئا مذكورا  
في عداد المؤلفين ، ولكنه غنى ، ولذلك يقف ببسابه  
الناشرون افواجا . فالمال هو السيادة . اذن فلا بد



لبلزاك من ان يسود باريس ، ويبهر العقول ، ويضرب  
على اوتار القلوب ، فيجيئوا يضربون على بابه !..

واعتزل في « سيفر » ، من ضواحي باريس ، هربا  
من أحكام الحرس الوطني !.. وفكر في : شراء أرض ،  
وبناء بيت ، حتى يسكن الجو المختار الذي يطيب  
لحياته ، وينسجم وأعماله ، فيتوج ذلك جهده ،  
ويكون حافظا على الدأب ، أى غاملا على الفن . . لأن  
المال هو السلطان ، هؤلاء هم العامة . هؤلاء هم  
الخاصة ، اتري على سنتهم ، من الصبح حتى المساء ،  
كلمة سواها ؟ ! اذن فسيعمل كسواه ، وسيكسب مالا ،  
ويشترى ثراء !.. وسيتضاعف في خلال عشرة أعوام ثمن  
بيته ، بل سيكون ثلاثة أمثاله !.. وزاره فيكتور هيجو  
في ذلك البيت ، الاقرب الى الكوخ ، والذي أطلق عليه  
Jardies: . . ولم تكن أشجاره تزيد طولا عن ثمانين  
سنتيمترا !.. ولكنه بيته ، فهو اذن بيت كبير !..  
وعد زيارة هيجو له بمثابة : الشعر يزور القصص !..  
وصار ذلك الكوخ في سجل التاريخ !..

ولكن بعد سنة واحدة ، لم بعد في اللغة الفرنسية  
عبارة يمكن ان تعبر بها عن اشمئزازه من هذا البيت  
وكرهه له !.. فقد توالى عليه منه : الكروب ، والمصائب  
لا نحل فرادى . فحوادث الحديقة والحوادث الجديدة ،  
قد انهارت !.. انقاض كافه ثمانية آلاف فرنك !..

وتمكن منه الحرس الوطني هذه المرة ، فألقى به في  
سجن سيفر ، لاثنتين وسبعين ساعة ، بحجة امتناعه  
عن الاشراف على جنى العنب !.. وهذا كثير !. ايقف  
لببيع للناس على قارعة الطريق ؟ !.. اليس اذن المجال  
ذا سعة لراسمى الكاريكاتير ؟ !.. او لم يكن محقا اذن  
يوم اشرف مع صاحب له من سطح بيته ذات مساء ،



وبصق على باريس ؟ ! ..

ثم زاد اقناعه في عام ١٨٣٩ ، بضرورة ان يكون له : مركز وطني ، الى جانب صناعة الادب ، مما يجعله ملحوظا من الراى العام .. وانتهر لذلك اول فرصة لاحت لوهمه . وهى قضية اجرام . فقد حدث ار مسجلا للعقود ، يدعى « بيتل » Peytel ، قد زج به في السجن بتهمة قتله زوجته . ولكن التحقيق لم يسفر عن بينات ضده . فأطلق سراحه . وكادت نحفظ الدعوى . غير ان الرجل افضى ، في سهرة ، عند اصحاب ، بأشياء فظيعة ، ذاعت ، فأحدثت دهشة ودويا . فاستؤنف التحقيق معه ، وقبض عليه ثانية . واذا بلزاك ، البعيد كل البعد عن هذا كله ، يسخط ، ويستنكر ! .. فما شأن بلزاك ؟ ! ذلك انه كان قد عرف عرضا مسجل العقود « بيتل » في ادارة احدى الصحف ، فحكم بأنه غير اهل لاقتراف جريمة شنعاء . ودرس القضية بتعمق ، او على الاقل خيل اليه ذلك .. ثم أعلن على رءوس الاشهاد ، براءة المسجل ، وخطب ، وكتب ، وحاول ان يحرك الصحف .. ثم سافر آخر الامر الى بلدة بللى Belley ، حيث وقعت الجريمة ، غير حاسب لمقاومة القضاء حسابا ، ولم يكذب بصل ، حتى قرع باب قاضى التحقيق ، والساعة التاسعة مساء . ففتحت له خادم وقالت :

— ان سيدى القاضى قد دخل حجرة نومه ..

فصاح بلزاك :

— حسنا ! .. وابن اذن هذه الحجرة ؟ .. ان الامر

يتعلق بحياة انسان .. فلا يمكن رفض مقابلتى ! ..

ثم اقتحم البيت ، وكان القاضى فى « الروب دى شامبر » يملأ ساعته .. فقال بلزاك :



— ياسيدى القاضى ، اعتذر اليك عن دخولى بيتك  
كما لو كنت قاتلا ! . ولكن ليس مظهرى كمخبرى ..  
وكذلك « بيتل » على نحوى ليس بالقاتل ! .

وراح بلزاك يترافع ، ويترافع ، ويدافع ، دون ان  
يسترد أنفاسه ، متهما الاتهام ، بشدة وقوة ، حتى ان  
ستائر الخدر رفعت قليلا ، وبدت منها امرأة فى قميص  
النوم ، جالسة على السرير .. قالت :

— انت تكذب ياسيدى ! ..

فغص بلزاك ، وصاح :

— ماذا تفعل هذه المرأة هنا ؟ ..

فاحمر وجه القاضى ، وقال محتدا :

— انها تفعل ياسيدى ما على المرأة الشريفة ان تفعله ،

فى هذه الساعة من الليل .. انها فى فراش زوجها ! ..

يا بلزاك العاثر الجذ ، الفاقد الحذر ، المحروم حسن  
التصرف ! .. ان دروس مدام دى برنى ، دروس الكونتس  
دى هانسكا ، لم تنفع فى تهذيب طبعه الحامى ، والخفض  
من تهوره واندفاعه ..

ان الناس فى فرنسا يخافون السيول المنهمة ،  
ويحبون الجداول الهادئة .. فنال منه القضاء . وتنكر  
له الراى العام . وكانت قصصه تقرأها النخبة المختارة  
من النساء ، فجاءت هذه القضية التى يتهم فيها امرأة  
بالزنا ، فحزبت ضده نصف قارئاته . وتهكم الناس  
عليه بالاغاني ، وهجوه بالقصائد . وقضت العدالة بقطع  
رقبة بيتل . وعاد بلزاك الى بللى ، ووقف فى الصف  
الاول من الجماهير ، وراء الجنود ، ليراه يصعد الى  
المقصلة . وعاد الى باريس مريضا ، محنقا ، تجيش  
بالسخط نفسه .. وبدت له بلاده مضيعة ، لانها  
أبت الاصفاء الى عبقر ! .. وقد وصفوه بأنه خيالى ،



يعيش في بيداء الاوهام . فاستشاط غيظا . . . اليسست  
المخيلة هبة اوتيتها من عند الله، ليرى ما لا يراه العميان؟  
ومضى بحلم في ان يسود الجماهير ، ويحمنسها على  
الاعجاب به على رغمها . .

وكشف له فكتور هيغو مرة المزايا المادية التي يحصن  
عليها مؤلف القصص التمثيلية . وكان منذ عشرين سنة  
يحلم بالمجد المسرحي . وجاء هيغو ببسلافته فزاده  
اقتناعا ، واثار فيه أمنية مستكنة . وكان هيغو حريصا  
على النفع المادي ، فقد كانت روحه نهبا مقسما بين  
الشعر والمادة . كان نصفه شاعرا ، ونصفه صرافا !  
فعدد المبالغ التي يمكن ان تحصلها رواية تمثيلية في  
باريس ، ثم في الاقاليم . وقال :

— ان كوميديا تنجح ، ولو نصف نجاح ، تدر على  
مؤلفها بقدر ما تدره قصتان ناجحتان . . . اما الرواية  
التمثيلية الناجحة فانها تعد ثروة . ثم اعادة التمثيل !  
ثم الجوائز . . . ثم التذاكر . . .

فراى بلزاك ركاما من الذهب . . . ولم يكد هيغو  
ينصرف ، حتى قرر ان يعود فيؤلف للمسرح . كلا ،  
بالطبع ، فما كان ليعكف على تراجيديا تتطلب منه شغل  
سنتين ، بل ان له من الروح اللاذعة اللاسعة ما يجعله  
يكتب ، في شهرين ، وربما في اسبوعين ، كوميديا تدر  
عليه مالا ، أي تمنحه الراحة سنتين . . . وقابل ، وهو  
في هذه الهيجة ، الشاعر الالماني هنري هيني في البولفار ،  
فاشركه الرأي ، وقال :

— أستطيع في سنة ان اكسب مئتي الف فرنك . . .  
فسخر منه هيني قائلا :

— هذه مجازفة . . .

فاستنكر بلزاك سخريته ، وسأل :



— أية مجازفة ؟ .. اننى لا أجازف بشيء ..  
— أنت تغير سجنك . فحذار ! كل المحكوم عليهم  
بإشغال القلم الشاقة يهلكون اذا فعلوا ! .. فابق اذن  
فى سجنك القصصى ! ..

ففكر بلزأك فى نفسه ، وهو يفارقه : « لشد ما يشبط  
هؤلاء اليهود الهمم بتهكمهم الشنيع ! .. وهذا الرجل  
ليس موهوبا من الحياة . انه لا يحب الحياة . انه على  
النقيض من مؤلف مسرحى ! .. »

هذا ، فى حين عد نفسه قد خلق للمسرح ! واذا لم  
يكن قد عالج ذلك بعد ، فلأنه كان متعجلا القصص ،  
وكانت القصة قبله لا وجود لها ، فى حين كان للمسرح  
ابطاله . ومديرو المسارح لا يتمنون شيئا مثل كومبديا ،  
أو درامة ، عليها توقيع بازأك . لقد أصاب هيجو ،  
واخطأ هينى ! ..

وعلى ذلك قصد مديرى المسارح ، الذين أدخلوا على  
قلبه السرور بممسول الكلام .. قال لهم : « أريد أن  
أكرس نفسى لكم . أريد أن نثرى جميعا ! .. ولكن  
لأبد من أن أعمل فى هدوء وسلام . فلا مندوحة اذن  
عن كبح جماح الدائنين ، الذين يرهقوننى ، ويعطلون  
عملى .. لا مندوحة عن تقديم خمسة عشر أو عشرين  
الف فرنك لى سلفا . »

فقبلوا المبدأ عن طيبة خاطر ، قائلين : « أبدا على  
أى حال بالعمل ، فلا نلبث أن نوقع العقد الذى يحقق  
رغباتك ! .. »

وكانت تدور برأسه مواضيع قصتين أو ثلاث قصص  
تمثيلية ..

وها هى ذى باريس عنده تتطور ، وتثار بالغاز الذى  
جعلها : « مدينة النور » ! .. وهى عنده الآن عاصمة



العواصم . وجمهورها في مقدمة جماهير العالم . وهذه هي اللحظة التي يستحوذ فيها على هذا الجمهورا . . فهو، على ذلك لا يلبث ان يحصل المجد ، ويحصل المال ، مما قد يمكنه ، يوما ما ، من ان يكتب الى حبيبته البولونية الكونتس دى هانسكا : يا عزيزتى ايف . . انى لم أعد فقيرا ! . . وليس على من الديون دائق . فاذا استدعت السماء يوما قرينك ، فلن تكون هناك عقبة دون زواجنا ، الذى سيصبح حلفا ساميا بين عقل اوربا ونبلها ! . .

واندفع يعمل بكل قواه . ورسم للفصة هيكلا . وكتب حوارا . ولكنه ، لسوء طالع ، كان مأخوذا بدوار السرعة . كان يرى نفسه محوطا بجو المسرح : الخشبة المضيئة ، والجدران الملونة ، والستار يرفع ، والقاعة غاصة بالرءوس المتنبهة ، والعيون المحدقة . . كان مأخوذا بالحاجة الى الكلام ، والى العمل ، والى ان يصفقوا له سربعا ، لآى شىء، كائنا ما كان ! . . فبدلا من ان يتم عمله في الشهرين اللذين قدرهما له ، من قبل ، أنجزه في اسبوعين ، وكان احبانا بكفيه بومار ليضع على الورق ثلاثة فصول ! . . هو ، الذى ضحك مرة من امرأة سألته : « ابلزم من الوقت لكتابة قصة ، أطول مما يلزم لطالعتها ؟ » . . كان يكتب قصته التمثيلية في مقدار الوقت اللازم لتلاوتها ! . . وكان متعجلا اخراجها ، الى حد انه هرع الى اصدقائه، القريبين والبعيدين ، الذين يحبون هذا النوع ، والذين يحتقرونه ، يتلو عليهم آيته ، ويمثلها تمثيلا ، يتقمص شخصية خمسة عشر نفرا بلسانه ! . . وكان متلهفا على رؤية اثر هذه الادوار في عيون السامعين . . وكان يقطع القول على اخلص الاصدقاء بقوله : « اعرف ،



اعرف ، ملحوظتك منهومة .. لكن انظر القصة في مجموعها ، فهي مذهشة !.. »

وفي يوم من عام ١٨٣٩ دعا في بيته المهشم أصدقاءه الكتاب : تيوفيل جوتييه ، وجوزلان ، ولاساي ، ولوران جان ، الى الفداء ، ثم سماع الكوميديا التي اتمها .. وقد سماها Les Mercadets .. وعند اللون الثالث من الطعام قال جوتييه ، وكان على يود وثيق ببلزاك ، ويحمل له كل الحنان والاعجاب :

- اتراني حالما ؟ !.. يخيل الى انني آكل البصل في كل شيء !.. انني اكاد اصبح بصلة !.. فضحك بلزاك قائلا :

- ايها الطفل !.. انني اردت هذا .. فاني حريص على ان يكون حكمكم صادقا !.. وقد دلتني التجربة على انه مثل البصل عنصر منبه للذهن !..

ثم راح يقرأ .. وكانت القصة تدور حول البطل « ماركاديه » ، الشبيه ببلزاك ، الفارق في الدين حتى اذنيه ، يابى التجار ان يوردوا له بضائعهم .. فيقول البطل لخدمه : « كيف يمكن ان يكون هؤلاء تجارا وهم لا يتاجرون ، وموردين وهم لا يوردون ؟ ! » .. ثم : « اى عار في الاستدانة ؟ .. اى رجل لا يموت ، وهو مازال عاجزا عن الوفاء بدين ابيه ؟ ! » .. وكان بلزاك يقرأ ، وبمثل ، في الوقت نفسه ، هرب البطل من دائنيه ، وحياته المتعددة في التخفى والفرار منهم ، وهم يلاحقونه ويضطهدونه ..

وبينا كان بلزاك في نشوة التمثيل هذه ، اذا به يسمع من الخارج دق الجرس . وعندئذ شحب وجهه ، وقفز الى احدى النوافذ ، مهيبا بأصدقائه المدعوين :

- بربكم ساعدوني يا اصحابي !.. ساعدوني سريعا



على اغلاق النوافذ ! .. انهم دائنى ! ..

ثم تركهم ، وجرى الى المطبخ ، وأمر بعدم ادخال أحد ، مهما يكن السبب ، وعاد الى ضيوفه ، وتمدد على ديوان ، متصنعا الموت ، هامسا بصوت كأنه خارج من أعماق قبر :

— اتوسل اليكم .. لا حركة ، ولا نأمة ! .. اذ لو سمعوا شيئا لكنت من الهالكين ! ..

فطن أصحابه بادىء ذى بدء انه يستأنف تمثيل القصة .. فترددوا .. ولكن اللهجة تغيرت .. وراوه متأثرا الى حد اضطربوا معه هم أنفسهم ، ولبوا توصياته القريبة . ثم امتد الموقف ، واستمر الحال على هذا المنوال ، حتى أصبح مضحكا .. كقصته .. فصدرت منهم ضحكات مكتمة .. فتمتم بلزأك : « يا أصحابى .. أتريدون مماتى ! .. » .. وعندئذ سمعوا جدالا عنيفا عند عتبة البيت .. وكان المتجادلون كثيرين .. وكان الخادم يؤكد لهم بشدة وحزم : « انكم يا سادة ترون النوافذ مغلقة .. فسيدي غائب فى سفر ! .. » . فتعالت أصواتهم بالسخرية والاستنكار ، تتشعبه بالحيوانات ، منها : نباح كلب ، ومواء قطرة ، ونعيق غراب .. وكان ذلك كله كأنه جزء متمم لرواية بلزأك التمثيلية !

وكان بلزأك متيبسا متصلبا فى رقدة الموت ، منقطع الأنفاس ، كما لو كان قد جرد من الحس والشعور ، وفى الظلام كانت عيناه تلمعان وتتوسلان ! .. ودامت هذه المأساة المهزلة خمس عشرة دقيقة . وأخيرا ، أغلق باب البيت ، وهمهم بلزأك ، ودمدم ، بصوت صادر من أحشائه :

— لقد عجزت ، وشاخ عمري عشر سنوات ! ..



وهرع الى المطبخ .. وما زال صاحبه في الظلام ،  
فطفقوا يدخنون .. فعاد بلزأك فوصفهم بأنهم قتلة ! .  
فقداجتمع عليه أصحابه من الداخل يدخنون ويخنفونه ،  
وفي الخارج دائنوه بمسكون بتلايبه ! .. وكانوا فعلا  
من شر الدائنين وأخطرهم : أحدهم تاجر نبيذ ، والثاني  
تاجر عاديات ( أنيكات ) ، والثالث مقاول بناء ! ..  
وأخيرا فال جوتيه :

- والآن ، هل آن لنا ان نرى الضوء ونشم الهواء؟!  
فأجاب بلزأك بزهو وخيلاء :

- ولكنى أسألكم : ما الذى يحول بينكم وبين  
فتح النوافذ على مصاريعها ؟ ! يا للغباء ! ..

ها هو ذا قد استرد لونه ، وقوته ، وصوته . ولم  
يمهلم حتى بدأ تلاوة الفصل الثانى .. فعاد الدائنون  
في القصة ، يهددون ، ويتوعدون : ينشقون ، وينبحون ،  
ويهمسون ، كأنهم : غربان ، وكلاب ، وقطط .. فظن  
المدعوون انهم يسمعون فعلا دائنى بلزأك الحقيقيين ! ..  
لقد اقتبس بلزأك طرق دائنيه في مطالبته بديونهم ،  
وسخريتهم منه ، وزرايتهم به ، وتهكمهم عليه بأصوات  
الحيوانات .. وكانوا يتكلمون من كل جانب ، أى ار  
بلزأك كان كالشيطان : يقفز ، ويلتفت ، ويداعب ،  
ويركض ، ويهجم .. فخيل الى سامعيه فعلا ان الدائنين  
يقتحمون البيت : من الباب ، ومن النافذة ، ومن  
المدخنة ، ومن كل شق ! .. أهى حقيقة وإقعة ، أم  
هى كوميديا تمثيلية ؟ .. هل يضحكون ؟ .. هل يخافون ،  
ويجزعون ؟ ! .. ولكن بلزأك كان واقفا يدير هذا  
كله ، بلسانه العجيب ، وإشارته ، وحركته .. فياله من  
جبار فى تمثيله ، وفى تقليده ، وفى صوته ، وتشبيهه ..  
وهو يتحدى دائنيه ، مشبكا ذراعيه ، قائلا لهم بازدراء :



« آه ! .. اتزعمون اذن ان فى بيتى كليشيهات الاوراق  
المالية التى بصدرها بنك فرنسا ؟ ! »

فيصفق له اصدفلاؤه .. ويتبادلون نظرات الاعجاب  
بفنه الرفيع : تأليقا ، وتمثيلا .. فيدفعه الفرع بهذا  
التقدير الى الاسراع بالوصول لختام القصة .

وهنا نرى شخصية غير منتظرة ، تصل من الهند ،  
حاملة اكياسا من المال ، لتنقذ الموقف ، وتصفى الجوى ..  
نرى نقودا ، تم نقودا ، نم نقودا ! .. نفودا حقيقية ،  
وليست زيفا ، وليست وهما ! .. فيمد يده ، ويقرص  
بعض الناس عشرة آلاف فرنك .. ويصيح ضاحكا :  
« وافرحناه ! .. لقد صرت دائنا ، بعدما كنت  
مدينا ! .. » ..

وبهذه الكلمة ينهى الرواية التمثيلية .. فينهض  
جوتيه ، ويأخذ بلزك بين ذراعيه مهنئا ..

أسفا ! .. فلم يكن هذا كله الا نجاحا بيتيا ، لا يصل  
الى خشبة المسرح . فلن يعرف فى المسرح الا القتل .  
فقد تشاجر مع المديرين والممثلين والمخرجين .. واقسم  
الا يغير مما كتب سطرًا .. ومن « بروفا » الى أخرى  
اضطر الى أن يكتب من جديد فصلا كاملا فى ليلة  
واحدة ! .. وكانوا يلقونه فى تلك الفترة من حياته ، فى  
شوارع باريس ، شاحبا ، هزيلا ، بلا ربطة عنق ، يجر  
قدميه من التعب .. وكانت روايته التمثيلية Vautrin  
أشهر ما أخرج . فحضر تمثيلها ولى عهد الملك لويس  
فيليب ، فى اللوج الاول ، فرأى تعريضا فى التمثيل بأبيه  
الملك ، فخرج فجأة .. فكانت ضجة ، وفضيحة ..  
وفى اليوم التالى منع تمثيل الرواية .

وكانت ضربة قاصمة لبثراك .. بيد انه ما عثم ان  
أفاق منها ، وصفا ذهنه ، وحمى قلبه .. ولقى صديقه



جوزلان ، فأخذ يفسر له كيف انه سيعوض العشرين ألف فرنك التي كان سيكسبها من روايته ، بأن يزرع حول بيته كروما واعنابا ، يستخرج منها النبيذ ، و يقيم معملا للألبان . . .

وكان وقف روايته يوم ١٥ مارس عام ١٨٤٠ ، وبدأ مشروع معمّل الألبان ، يشه يوم ٢١ مارس ، أول الربيع . . . ثم نبذه يوم ٢٢ . . . وفي الثالث والعشرين راح يحام بالصحافة ، الصحافة التي يلعبها ويعبدها . يعبدها ليكتب فيها ، وينشر ، ويحارب ، ويتغلب ، ويسود . . . هو يريد ان يكون حرا ، وانما هم يقاومونه فيها ، ويقصون أجنحته . . . المال اذن . . . ان المال هو المدير الحقيقي لجميع الصحف ، ولا يجوز التنكر لهذه القوة الجبارة . ومع ما فيه بلزأك من ضيق ، وشدة ، واحتداد . . . فانه تمنى لو كانت له جريدة .

أو ليس يملك من القوة ، واللدع ، والتهكم ، أضعاف أولئك الكتاب « الهلافيت » المسيطرين على الجماهير؟ ان مجلته السابقة « لاكرونيك دي باري » قد كلفته غاليا . فهل يكون ذلك سببا في ان يخاف ، ويجبن ، ولا يحاول مرة أخرى ، في شكل آخر ، بوسائل أخرى؟ انه في هذه المرة سيؤسس مجلة شهرية ، تكون كالكتاب ، في حجم الجيب . وسيعمل كل شيء : من اللدع السياسي ، والتهكم الاجتماعي ، الى نقد الكتب والمسرح . . . وسيفضح طغام الكتاب ، أمثال « اوجين سو » ، ويحطم أصنامهم . . . وينصر آخرين ، أمثال « ستندال » . وبقیم لهم التماثيل . . . وعلى ذلك تمكن ، آخر الامر ، من إصدار المجلة الباريسية Reulle Parisienne فظهرت ثلاثة أشهر ، وكلفته ، بما حملته من ديون ، جهد خمس سنين أخرى ! !



وانسحب مشتركو الشهر الاول في الشهر الثانى ،  
وبعد عددين اثنين ، ألب باريس عليه ، فصار لها  
غريما ، وأغلقت بقية المجلات أبوابها فى وجهه ، وأحس  
رجال الادب بالقلق من لدعاته ..  
ودس له رجال السياسة ، خشية المستقبل ..  
فيجب ان يحقق به الخراب ! ذلك لانه كان جبارا .  
قويا قوة لا تجارى ولا تبارى .. وكان عبقرىا .. وكان  
قلمه ساحرا يخلب الالباب ..  
فلم يزد على ان عاد صاغرا الى العمل الذى خلق  
له . فالانسانية هى فى كل مكان : فريسة للصغائر .  
فليستديرها اذن ، ويعمل عمله وحيدا منفردا .. فهذا  
العمل هو هويته ، وهو خليلته حقا .. لم يضمن عليه ،  
عليها ، بشيء ! .. وكان مرة يتحدث مع المركيز دى  
بلوى وهو عائد من ايطاليا ، فأشار هذا الى «دانتى»  
مؤلف الكوميديا الالهية ، ولوح بأن بلزاك يرسم  
الكوميديا البشرية .. ومنذئذ وبلزاك هائم بهذا  
الوصف ، فتوج به عمله : المهزلة البشرية ! ..  
وانقطع من جديد ، يداب ويتفانى فى اتمام سلسلة  
هذه الكوميديا الانسانية ، مقدرا لها جهاد خمسة  
عشر عاما .. فأنذره طبيبه وصديقه «الدكتورناكار» ،  
الذى شحب وجهه اذ سمع دقائق قلب بلزاك .. فان  
القهوة التى كان يشربها بالابريق ، لابلفنجان ، قد عملت  
عملها السيئ ، ونالت من القلب ما نالت ، بحيث لم  
تعد خفقانه تدق بحرارة الشباب .. وانما صارت مندرة  
بالفناء .. وكان يجمع قلبه خطبا ، ويشعله ، ليخرج  
آياته البيّنات ، ولكن كل عود من الحطب كان يخلف  
له الرماد ، فتراكم قلبه رمادا ..  
وكان يخرج بعد شغل ست عشرة ، أو عشرين ساعة،



كما لو كان بركانا ، فيجتاز شوارع باريس ، وهو  
يركض ، مرتديا أى شيء ، بلا هندام ، و لانظام ،  
أشعث ، أغبر !.. فأين هذا من الطاووس عاشق  
المرکيزه دى كاسترى ، يختال فخورا فى الارض مرحا ؟!  
وابتهل اليه الدكتور ناكار ان يخفف من أعباء  
جهده . فصار يحاجه بأنه احسن منه فى أى وقت  
مضى ؟ !.. وكان كاذبا . فهو لم يبح لطيبه بالسبب  
الحقيقى لثقتة بنفسه .. فقد علم بوفاة الكونت دى  
هانسكا !.. وهكذا كانت هناك العناية الالهية له  
ظهيرا !.. فمن ذا الذى يصدق انه لم ير عزيزته  
« ايف » منذ ست سنوات ؟ ! فقد تراكت عليه فى  
تلك السنين أعباء انقضت ظهره .. وكان وحيدا ، أشد  
ما يكون وحدة ووحشة ، لا يجد ما يقوله ، للكونتس  
دى هانسكا ، الا فشلا على فشل ، وويلا على ويل ،  
فتراخت رسائله .. ولا سيما انه احس حذرها ،  
وتحفظها ، واعتزازها بمكانتها ، كزوجة ونبيلة ،  
وأدامت نقده ، تفرقه بأسئلتها التحليلية ، مما يدل على  
نقص فى ايمانها بالحب ، بينا كان لا يحتاج لنىء حاجته  
الى : الحنان ، والعطف ، وتأيد أفكاره ، وتلقيم  
أفعاله ..

وهاهى ذى تعلن اليه فى رسالة ، فى شهر مارس عام  
١٨٤١ ، انها قد صارت أرملة !.. فلم يخطر له الا  
انه الآن يستطيع البناء بها !.. وكان دائما يريد الزواج  
منها . فسيتزوجها اذن !.. فما دام ملكا للفكر ،  
فليجد رفيقة من أعلى الطبقات العريقة !.. فكتب الى  
« ايف » رسالة عزاء ، هى صيحة هناء !..  
وهو على عمله بعجلة ، ولهفة ، يقول لنفسه :  
« أسرع . ولا تضيع وقتا .. فالحياة قصيرة . وعملك



طويل...» . فجرت ريشته على القرطاس كما كان يجرش قلبه .. وكان لا يرى أمامه سوى إيف دي هانسكا .. ما أعظم الصراع عندما تكون هناك امرأة تنظر.. وتنتظر؟! انه يعمل ، حتى يتهالك : تعباً ، وضئياً ، والمسا .. بيد أن فكرة المجد والحب تصلب من جديد عوده . وهو لا يبحث بالمجد عن مديح الرجال ، بل عن رضا واعجاب تلك المرأة : الحساسة ، المفكرة ، الملهمه !.. وإذا كانت كتاباته قد اصطفت بهذا اللون الساحر الأخاذ . فما ذلك إلا لأنه كان يكتب لها ، ويروي لها ، ويتحدث في الحب معها !.. ان الحب هو دين من أديان هذا الزمان .. هو معجزة الحياة الخفية ، وهو لدى بعض الموعودين : عقيدة وإيمان ..

كيف تتردد إيف في أن تصبح بزواجه فرنسية .. انه اذن لن يتردد في أن ينخدجنسها ، ويصبح روسياً، ويتم عمله هناك عندها !..

وكانت مازالت تتردد . كانت لها عمّة تدعى روزالي، تكره بلزاك ، وتراه مخلوقاً شاذاً ، وترى أن « الزواج به لا يشرف » !.. وتتبع هذه العمّة كل أخبار بلزاك في الصحف والمجلات الكاريكاتيرية ، وجمعت لإيف دي هانسكا أسماء عشيقاته : الكونتس فيكونتى ، مدام دي فاليت ، مدام مريوتى ، وغيرهن ، وغيرهن !.. وحقيقة كان بلزاك على علاقات طائشة مع هؤلاء جميعاً.. ولكنها كانت ترفيهات سطحية ، يروح بها عن نفسه ، على حد قوله : « بين ميدانى المعركة » ! كان يعبث . كان يرفه عن الجسد ، دون أن ينال الروح رذاذ !.. وما أقل النسوة القديرات على أدراك هذه الشخصية المزدوجة في الرجل !.. النساء عادة لا يفرقن بين هذا وذاك !.. فرأى بلزاك أن الكذب أولى .. فكتب الى إيف :



( انى لا اعبد سواك .. )

وكان ذلك حقا وصدقا . وكانت عمة ايف تحلرها وتنذرها : « حافظى على سمعتك ، ولا تنهوى بزواج رجل غير كفاء .. فمن حماقة ان تقترن امرأة نبيلة برجل من رجال القلم .. »

ومع دفاع ايف عن بلزاك ، كانت فى صميمها تشعر بمرارة الارستقراطية ، لرؤيتها الرجل الذى تحبه يكسب عيشه من وضع الكتب ! .. وكانت ترى خيرا من ذلك : ان يستدين ! فعندها ان الاستدانة والدين من مظاهر السادة ! .. ولكن ذلك السيد المدين محكوم عليه بالعزوبة ! .. فهالك الضيق المالى التى يتخبط فيها بلزاك تخيفها وتروعها .. وعيثا قال وكرر قوله : « اننى سرى مثر ، اقوى من روتشيلد ! .. » .. فهى تعرف ان ليس وراءه من طوابع السعد ما يشارفها منه غير المشاغل ، والمشاكل : المنتظرة ، وغير المنتظرة ! .. فليس الزواج بمثله مما يحميها من المهالك .. فلم تفتاحه بذلك صراحة ، وانما جعلته يدركه من بين السطور . فأحس انه لن يقنعها . ولم يبق له الا أن يملكها من جديد ، فيقلبها .. كيف ؟ .. بتأليفه ؟ .. انها لم تعد تكفى ! .. فليقصد اذن الى بولونيا ، ويخطفها ، ويتزوجها ! ..

وعلى هذا ، راح مرة أخرى فريسة التفانى ، وبدأت تدب فيه حمى الوحي الاعظم ، التى لن تهمد ولن تخمد فيه ، حتى تنطفئ فيه الحياة نفسها . وكان ذلك جهادا لنحو عشر سنوات ، أهاب فيها بكل ما يملك من قوى روحية خفية ، لتظهر وتلبيه . وكان يشبه عقله : بحصان جموح ، يعصى اسابيع بطولها ، ويأبى أن يسير .. وكذلك وجد بلزاك فى صميم نفسه : عنساصر



الفضائل ، وعناصر الرذائل ، جميعاً .

ولكى يصل الى السلام المطلق ، اتخذ مسكنا في حي « باسى » الهادىء . فقد نان بحاجة الى أقصى قسط من السكون ، ولكنه وجد ، طوال النهار ، ضجيج خمس عائلات عمال ، تفتن بحتة ، ونجعل البيت يرج يابل ، فلا يسوده الهدوء الا ليلا ، عندما ينام الاطفال . ومن هناك أخرج كتبه عن : « الفلاحين » ، و « الآباء الفقراء » ، « عز وذل بنات الهوى » ، وغيرها . . . وكان مسكنه ، ومعمله ، قد صار له جحيما تتلظى نيرانها كالسفير . فما من كاتب ، فى كل الاجيال ، بذل ما بذل ، فى مثل ذلك الوقت القصير ، من روحه ومن جسده . ولم تعرف نفس ، كائنة ما كانت ، ما عرفت نفسه من حروق . .

وكانت تلك تضحيته العليا ، ان يحترق بالشعلة التى سوف يسلمها للانسانية لتستضىء بها . . . وسيموت منها ، ولكنه سيكون عظيما ، بعدما أدى عمله : لله ، وللناس . . . وكان عام ١٨٤٤ بالنسبة له عام آلام لا يوصف . . فتكاثفت عليه أمراض : الكبد ، والقلب ، والرأس ، والرئتين . . وتحركت ، تأكل منه ، وتقضم ، وتلفى على مخه ستائر من الغيام ، فلا يجد فيها الكلمات التى ينشدها . . وعندئذ جزع . . واستمع الى توسلات طبيبه الدكتور ناكار ، فاعتكف ، ونام نوما عميقا . . ولما استيقظ منه ، ولم يكن طبيبه الى جانبه ، هروا الى منضدته ، يلزمها ثمانى عشرة ساعة ، مرغما الجسم على ملاحقة العقل ، كالجندي فى الطابور .

وبعد ثمانى سنوات فى حرمان من رؤية حبيبته ايف دى هانسكا ، تلك الموعودة بأن تصير زوجته ، لقيها فى سان بطرسبرج ، حيث كانت تقضى جانبا من السنة ،



منذ موت زوجها .. وهناك عاشا الاسابيع ، بل الشهور  
الثلاثة ، في : حب ، وشعر ، وعبادة .. تم اضطر الى  
السفر الى باريس ، صحراء الرجال ، بينا عادت هي  
الى بولونيا ، صحراء الفلال .. ولم يلتقيا الا بعد ثمانية  
عشر شهرا في درسدن ، في يناير عام ١٨٤٥ ، حيث كانت  
مع بنتها وخطيب هذه البنت ، الكونت مفيرتش ،  
فجعل بلزاك حياة الخطيبين السابين مرحا جنونيا ..  
فقد أوتى ، فيما أوتى ، نبوغ التصايب ، والارتداد الى  
الطفولة الحادة ، بلا جهد ولا تكلف ..

ثم سافروا جميعا الى ايطاليا .. وكان بوده لو قضى  
الشتاء فيها ، لولا ان « الكوميديا الانسانية » كانت  
تناديه ، وكانت طبعة كبرى ستصدر منها .. فسافر  
باكيا كالطفل .. ولكنه هرب من جديد ، في ربيع عام  
١٨٤٦ ، الى المدينة الخالدة .. تم عاد الى بيت حى  
« باسى » صفا ، يعمل الساعات الطوال ، من الليل  
والنهار ، ويشرب ، بفر مبالة ، أباريق القهوة ، التى  
نهاه عنها الطبيب ، وحرمها تحريما مطلقا! .. « ما أعجب  
ان أحاول العمل هنا صيفا! .. ان فوقى سقفا من  
الزنك ، وتحتى غسالا بشعل ، طول يومه ، نار قطارا .  
هذا هو مسكنى ومقامى! .. وهذا حقا رمز حياتى! ..  
فقد أتممت أعظم عمل فى عصرى ، فى ظروف تحمل بقية  
البشر على البكاء منها .. ولكن .. ألس هذا ، فى  
الواقع ونفس الامر ، هو المعجزة .. ألس هذا هو  
الفوز العظيم ؟ ! »

وحملت اليه الخادم رسالة ، عرف من غلافها الانق ،  
وخطها العزيز ، وطالعها الغريب ، انها من حببته  
ابف .. فأخذها بيد مرتعشة ، ورفعها الى شفثيه ،  
ولثمها من أعماق نفسه ، مغرورق العينين بالدمع ..



كان بهم بالرد على الكونتس دى هانسكا ، بعد  
ظهر اليوم نفسه ، عندما أعلنه خادمه بحضور والدته  
.. فصاح بفرح :

- فلتدخل !.. فلتفضل ، قبل ان اذوب واتلاشى !  
آه يا أمى ، انى أعيش فى قرن !.. انظرى ، انى أتصيب  
على أوراقى عرقا !..

فتنهدت مدام بلزاك ، التى كانت شقية بكل شيء :  
- أفلى تكون اذن قط سعيدا ؟ !.. متى أراك هادئا  
رضيا ، لا تسخط على شيء ، ولا تكفر بكل انسان !  
- عما قريب ، يا أماه العزيزة !.. بمجرد زواجى  
من الكونتس دى هانسكا !..

- أزواج آخر ليس الا وهما ؟ !..  
- وهم ؟ ! ولماذا يكون وهما ؟ !..  
- مثل كل مشروعاتك .. يا ولدى المسكين !..  
- مثل كل مشروعاتى ؟ سبحان الله ؟ !.. أكون  
عملى ، أكون كسبى ، ليست الا مشروعا وهما ؟ !..  
الم أحقق بعد شيئا ؟ !..  
- فى أية ظروف ؟ !

- أعترف بأنها ظروف سيئة .. سيئة جدا ..  
ولكنها ستتحسن ، وتطيب ، اذا ساهمت فيها اسرتى



— أسرتك ؟ ! انها تلقى الضربة بعد الضربة من  
نزواتك وبدواتك !.. واذا كانت حياتي ضيقة بأثمة  
شقية ..

فسقط بتراك في مقعده ، ممسكا برأسه بين يديه ،  
فائلا بحزن لاحد له :

— اليس اذن شيئا مطلقا ، يا أماء ، ان تكونى أم  
الرجل الذى ينهض من الرغام ، وبصبح علما من  
الاعلام ؟ !

فهزت أمه كتفيها .. فرأى استخفافا .. فتابع كلامه  
بحدة :

— هذا ، ويا للأسف ، لاشيء !.. اذ لا كرامة لنبي  
في وطنه !.. ومادمت انت من ورائى ، وأختى ، وزوج  
أختى ، تهرفون جميعا بما لاتعرفون .. فأننى أعلنكم  
بأنه ليس لديكم ما تقولونه بشأن هذه المرأة ، التى  
ستكون امرأتى ، شئتم ، أم كرهتم !.. وانى لا أسأل  
عائلتى العزيزة ، عائلتى المقدسة ، الا شيئا واحدا ،  
هو : السلام !.. فاذا كانت أمى لا تسكن قصرأ ،  
فلست أسكن أيضا العلالى والقصور.. انى أقطن بيت  
عمال فقراء مساكين ، فوق غسالىن !.. غير ان لى  
مذهبا ، ومثلا أعلى ، بينا أسرتى محرومة من كل مثال.  
وورائى عمل يعمل ، وأسرتى لم تترك بعد هذا العمل.  
وهو يسمى : « الكوميديا الانسانية » .. وهو يتقدم  
بيد ان قواى تنحط وتتأخر . فلا بد لى من الاسراع .  
وأنا بحاجة الى بيت ، الى حياة داخلية . وستكون لى،  
بفضل امرأة مدهشة .. وسأسافر الى بولونيا ، التى  
تجهلونها كما تجهلون سواها ، وتضحكن منها كما  
تضحكون من غيرها ، لأنكم تحسبون الدنيا محصورة  
فى باريس ، وان الله خلق الخليقة لسمع حكمكم عليها!



— ستندم على كلامك هذا وأفعالك ، عندما أكون ميتة ! ..

قالت ذلك ، في حوش البيت ، وهي منصرفة .. فسمعها ، وحياتها ، وعاد الى غرفته ، يكاد يختنق : « ميتة ! ؟ هي ؟ .. هي تعلم جيدا انها سوف تدفني بيديها ! »

وجفف جبينه ، وأمسك بالقلم ، يستأنف كتابة الخطاب الى حبيبته :

( ... تعلمين أنني لم يكن لي قط أم . فما ان جئت الى هذه الدنيا ، حتى بعثوا بي الى بيت سرطي ، حتى الرابعة ، ومن الرابعة الى السادسة وصعوني في مدرسته نصف داخلية . وفي السادسة والنصف أرسلوني الى فندوم . حب مكثت حتى الرابعة عشرة . لم أر أمي في خلال ذلك الا مرتين .. آه يا حوائي العزيرة ، انك اذا فوجئت بي تكونين قد عشت مع أهلك فوق الورد والرهرا .. يا حسبي ، فليضم كل منا صاحبه اله .. لا تتخلي عني . انك نحلين عندي محل : الأم ، والصدقة ، والسفينة . أنت حليلتي ، وسكوني حليلتي ! .. )

وقبل أن يسافر الى بولونيا ، رأى أن يوفر لحبيبته مسكنا لائقا ، هي التي تسكن قصرا فيه من الخدم والحشم عشرون نفرا ! .. ولم تروعه فكرة شراء بيت . فقد كانت له نقة لا حد لها ، شأن النفوس الكريمة . وبعد طول البحث والعناء ، وجد ، في شارع لا فورتينييه ( يا للأسم الجميل : المحظوظة ! ) على عشرين مترا من فوبورج سانت اونوريه ، فيلا كانت جزءا من قصر المالى الشهير بوجون . وقد راقه فيها خاصة ان حوائطها مكسوة بالخشب ، بحيث يكاد الخشب نفسه يكون اثاثا لا يحاج ليكمل الا الى أقل الاناث ، فهو يوفر في نظره أربعين ألفا من الفرنكات ! .. وكانت تلك أقوال الخيال ! .. وبدأت عذابات الواقع ! ..

ولكن البيوت ليست بالحيطان ، وانما بالسكان ! . فمتى تأتي ايف لتسكنه ؟ ! .. لقد أتت فعلا قبل أن



يحقق ذلك بوجهه ، فوصلت باريس في أوائل ٨٤٧ . . ١ .  
يا لله ! . لقد تحقق أعز أحلامه ! . . فبعد فيينا . وسان  
بطرسبرج ، وروما . . ها هو ذا حى باسى سيتخذ  
مكانه بين المدن المقدسة ! . . فلما ظهرت على عتبة  
الباب ، وهى آية من آيات الحسن ، تعبد لها ، وقدم  
صلوات الحب ! . وسبح بحمد كل ما فيها ، من فرعها ،  
الى قدمها . .

فتركته يفعل ، ثم نظرت بامعان الى هذا المسكن  
الضيق الحقيق . . ودون أن تقارن مقارنة لا محل لها ،  
قالت ضاحكة ، من وراء نظارة يدها :  
— يا للحياة التى تحيونها فى باريس ! . . انكم تسكنون  
اقفاص ذباب ! . .

فجارها بلزا كفى ضحكها ، وقال :  
— ان الناس يتزاحمون على باريس ، ليفترفوا من  
معينها النوراني ! . .

لقد كانت الكونتس دى هانسكا تحس بالنشوة حين  
تسمعه متكلم ، مثلها فى ذلك مثل : مدام دى برنى ،  
ومدام زولماكارو ، ومام ركامبيه ، ومام دى برانتس  
ومن اليهن ، ممن عرفنه من النساء . .

وجاء ، وهو يقبلها ، حديث الفرة . . فسألته :

— اما زلت تلقى الكونتس دى كاسترى ؟

فتنهده قائلاً :

— المسكينة ! . . لقد حالت جد دميمة ! . . فدعينا  
من هذه الشئون الحزينة . . واعلمى ان « الكوميديا  
الانسانية » تتقدم بخطا جبارة . فلا تكاد تتم ، حتى  
نفزو بها سوق الادب الاوربى كله ! . . وسأكسب ثلاثمئة  
ألف فرنك سنوياً ، نوفر منها نصفها . فانظرى كم يكون  
لدينا بعد عشر سنين ! . . اونوريه دى بلزاك رأسمالى !



ياله من موضوع تتناوله الصحف والمجلات ! ..  
كذلك كانت مخيلته تصبغ الحياة بالذهب . وكان  
يصنع من رغبات قلبه : حقائق تبهر القلوب وتأخذ  
بالابصار ! ..

وكان قد استأجر لها شقة بقرب الايتوال ، يؤدي  
بابها الى حديقة ، يخف اليها كل صباح ، وهو يزاد  
كل يوم فتوة وشبابا .. وكانت الكونتس دي هانسكا  
امراة مثقفة ، متعطشة دائما للمعرفة . ففتنت بباريس ،  
حيث يجرى في كل خطوة منها جانب من التاريخ ، تحت  
اشكال شتى ، من الحجارة الجميلة ، الى الشوارع  
والميادين التي شهدت : شخصيات بارزة ، وساعات  
مشهودة ، ومواقف حاسمة . وكانت ترى زيارة باريس  
في صحبة بلزاك ، بمثابة الاصفاء الى شعر الماضي الذي  
تعرف أصالته .. وكان سماعها اياه يتحدث ، يبعث  
فيها حرارة كالنبيذ المعتق .. فشربت ، ونهلت ،  
وتدفأت وآمنت .. وكان يكشف لها ، في كل ركن من  
أركان باريس ، آية طريفة تبهرها ، ويكشف لنفسه  
آية يسجلها للأحقاب ..

وغادرت الكونتس دي هانسكا باريس ، على غير  
وعد منه بالزواج .. لم ينل منها في صدد هذا الوعد  
الا ابتسامة الجوكوندا ، الشبيهة عندنا ، في سرها  
ولغزها ، بابتسامة أبي الهول ! ..

ومضى الصيف .. وكانت رسائلها تفيض أنوثة ، ولا  
ترتبط بشيء .. فقرر الرجل الى بولونيا ! .. وسافر  
فعلا . فقطع ثمانمئة فرسخ في ثمانية أيام . ودخل  
أرض بولونيا ، ببيوتها الخشبية ، وفلاحيتها المرتدين  
جلود الخراف ! وكان قصرها مفاجأة أخرى . لقد أراد  
أن يتخيله منذ خمسة عشر عاما ، ولكن عبثا ! ..



أين الخبر من الخبر ! ؟ كان قصرا أسود أبيض ، لأعهد  
له بمثله في فرنسا .. قصرا يونانيا وبولونيا في وقت  
معا ، غنيا ، فخما ، منيفا .. فبهت من وجاهته ،  
وتفجر قلبه حبا .. « يا للعظمة ! » .. وكان كل ما  
فيه يدل على غاية الذوق المصفى ، والثراء الطائل ..  
حتى الوصيف الذى حمل اليه القهوة باللبن فى الصباح ،  
كان يدعى : توماش .. توماش جويرنانشوك ! .. فرأى  
أن اسمه بربرى ، ولكن مظهره يدل على ذروة الحضارة  
ها هو ذا قد نزل أهلا وسهلا . هاهو ذا ، بعد طول  
السفر ، قد حصل ، آخر المطاف ، على الثروة ، عن  
طريق العبقرية ! .. ما أعظم كرمك يا الهى ! .. تعوض  
وتخلف ، على أسباب شتى ! .. أن قارئة بولونية قد  
جعلته يكسب منها وحدها كل ما سلبه آياه ناشرو  
بلجيكا ، الذين طبعوا كنبه دون أذنه ! . وهى ، فضلا  
عن غناها الفاحش ، تمنحه حبا ، حبا الاسمى ،  
وذكاءها الأعلى ! ..

وكان لاينفك يبدى ألوانا من الحنان والمحبة الأبوية  
لكريماتها « أنا » ، التى تزوجت الآن .. وكان ، إذا ما  
تنزهوا ، لايفتا بطرى : بولونيا ، وأهلها ، وخيراتها ،  
وزراعتها ، وعاداتها ..

ولما كان عقله سياسيا أيضا ، فقد كان يكفيه أن  
شاهد حقلا واسعا من القمح ليحسب ويضرب هكذا :  
« أن روسيا وأنجلترا هما القوتان الوحيدتان  
الحقيقيتان .. انجلترا تصطنع ، وروسيا تنفع وتنتفع ،  
لأنها تملك المواد الأولية العظمى ( ١ ) .. »

---

(١) تأمل هذا الحكم العظيم . من كاتب قصصى . بنظر الى ماحوله  
كشاعر عاشق . منذ نحو قرن من الزمان . قبل أن تجتمع . فى  
مخالفة . بالدم والروح . هاتان القوتان ! . « ص »



ونعم غراما ، وطاب مقاما .. ولم يكن ينعجل العودة الى باريس ، لولا ان جاءه بريد ينبئه بضرورة العودة على جناح السرعة ، والا سلبه ناشروه ونهبوه ، وجعلوه صفر اليدين !.. فالامر يتعلق بمستقبل « الكوميدنا الانسانية » ! مجهود عشرين سنة يتلاشى !.. فانتزع نفسه انتزاعا من كل ما يحب ، واستأنف السفر بالقطر والعربات ، على الا بغيب اكثر من شهر ، أو شهرين ! ووصل باريس في آخر فبراير عام ١٨٤٨ ، في ابان الثورة .. فلم تدهشه ، لانه كان يتوقعها من امد طويل .. فاستقبلها كارها ، ساخطا .. ومع ذلك فقد دخل مع الشعب ، في ٢٤ فبراير ، الى قصر التويلرى .. وراه أحد أصدقائه ، فهمس في أذنه :

— كيف ؟ انت هنا ؟ !.. انت ، المدافع عن التقاليد الملكية ؟ !..

وكان بلزاك شديد السحوب . فأجاب همسا أيضا :  
— اننى جئت فى طلب قطعة من عمل ( قطيفة )  
العرش !..

ولما عاد ، بعد ستة أشهر ، الى بولونيا ، كانت هذه القطعة فعلا أول ما أخرجته من حقائبه .. وقدمها هدية الى « ايف » !..

وكان ضيق الصدر بالسياسة ، ولم يكن دون ذلك ضيقا بذات أعماله . فان اصلاحات بيته بشوارع لا فورتونيه لم تتقدم ، فاستقر عزمه على انزال والدته فيه ، لتشرف على ذلك بدقتها وتحرزها . أتراها تصلح لتنظر وتأمّر ؟ !..

ولم يعد لديه من الشجاعة ما يحمله على العيش وحيدا ، بعد مقامه السعيد فى قصر دى هانسكا .. وكانت همته من الثبوت والهبوط بحيث سقط مربضا



لأول لفحة برد .. وكان مرضه شديداً ، فتداعى له كل ما فيه .. والرئتان مهددتان .. وكان في حيساته الجسدية كما في حياته المعنوية ، إنما هو قلبه الذى يقود البقيسة ، وكان هو القلب الشجى أول منكوب مكروب .. فتارة يسعل ، وتارة يختنق .. وحينما يحس ضعفاً عاماً ، وحينما يزعم نفسه مسموماً ! .. وكان يقول لمن حوله :

— آه يا أصدقائى ، ماذا يكون حالى ، لو لم تكونوا لى ! ..

فاستدعوا طبيبين مشهورين ، الدكتورين « كنوث » ، الأب والابن . وكان الأب طالما رأى موتاً مفاجئاً كما رأى شفاء خفياً ، بحيث لم يعد يعرف : بم يؤمن ، وبم يكفر .. فقال باحتمال انقاذ بلزأك . أما الابن فكان شاباً ، لا يمارى في نظرياته ، فقال للكونتس دى هانسكا : « لا أمل ياسيدتى في شفائه ! » .. وكان بلزأك المسكين أشد ثقة بدواء الابن منه بدواء الأب ! .. وقد أخذ ، بناء على مشورته ، الليمون الخالص : سبع ليمونات ، أو ثمانى ، في اليوم ، كانت تسبب له غثياناً شنيعاً . بحيث وصف له الأب مسحوقاً .. ثم تخلياً عنه كلاهما ، لقسمته ونصيبه .. ( وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر ؟ .. )

وكان يجلس في مقعد كبير ، أمام المصطفى المتأجج نارا ، وهو ينتفض من الحمى ، بينما يتساقط : الثلج ، والجليد ، حول البيت .. وعيناه اللامعتان تسرحان من النافذة ، وتطلعانه على منظر ناصع البياض ، الى جانب النار الشديدة الاحمرار .. ففكر ، على رغمة ، في : تفهقر نابايون من روسبا ، وحررق موسكو .. أو ليس هو أيضاً نابليون آخر ؟ ! فلعل المصير نفسه ينتظره ،



وقد جاء ، كالقائد العظيم ، ليفنى فى فيافى روسيا .  
ويفتح الباب ، ونظهر ايف !.. فتتبدد أحلامه  
الكئيبة ، ويرسم معها مشاريع المستقبل ، فتبتسم  
بحزن ، وتعيد ذكرى الماضى !..

وقضى السناء فى صعود وهبوط . وكانوا يعنون  
به عناية ليست من المؤلف على هذه الارض . فكتب  
بذلك الى أمه ، التى كتبت بدورها لتشكر « سيدتها  
الكونتس » .. وما برح يلح على ايف فى الزواج ،  
ويلحف ، حتى رضيت أخيرا ان تسأل الفيصر : الاذن  
فى الاقتران منه ، طبقا للقانون الروسى . ولم يكن يشك  
فى حصولها على ذلك .. أكان « بلزالك » عبثا ؟ ! ورفض  
القيصر .. فلم يبق للكونتس ، لتحقيق رجائه ، إلا  
ان تتخلى عن تروتها لبننها .. ووقع هو فى هوة من  
اليأس والقنوط !.. أو لم يكن اذن المجد شيئا .. وهو  
الذى أفنى فى سبيل المجد حياته !..

وفى يونيه تضاعفت أوجاع القلب ، واشتدت به  
العلة . أيقون قد انتهى أمره ، والارض تناديه ؟ ! أهى  
مسألة أيام ، أو ساعات ؟.. انه كان كشجرة ، انقضت  
عليها صاعقة فأحرقتها ، ودمرتها تدميرا !.. وكان  
يقول لمرضته العزيزة :

— ان رأسى يزن أثقل من قبة كنيسة القديس  
بطرس !..

واستدعت ايف الطبيبين من جديد .. وسألتهما ،  
بلهفة واضطراب ، فجاء ردهما هذه المرة : اجماعا على  
تعذر شفائه .. فبدأت تحس ، وتذكر ، ما فى زواجها  
به من الخير والرحمة .. وكان يتوسل اليها فى ذلك ،  
فتعده من فصل الى فصل .. فقبل يديها بحرارة



وهوس .. وما زال يتضرع لها . وما زالت هي تنتحل  
حججا ومعاذير ..

ومضى الصيف .. انه يحبها .. وهو بقربها ..  
فلماذا لا يصبر ؟ ..

كان ذلك في أوائل فبراير ١٨٥٠ .. وأقبل الربيع  
مسرعا .. فهل يكون ربيعته الأخير ؟ .. ان قلب الكونتس  
دى هانسكا قد تزعزع ولم يعد الامر شفقة ، بل صار  
حبا ، كما كان حالها وإياه في جنيف يوما ما .. وجلسا  
ليلة يتشاكيان ، وهى أشد ما تكون اشفاقا عليه مما  
به .. وكان مابه هو الحب !. أحبها ، وأحب الحياة .  
وكانت الساعة تتقدم بهما ، ولا يدريان كم تكون !

ويطلب قهوة ساخنة ، ثم مرقا مغليا .. فتوقظ  
« توماش جوبر ناتسوك » ، فيحمل اليه ما طلب ،  
فكان بلراك يجرع السائل وهو يغلى بحيث لا تكاد الاصابع  
تتحمل لمس الفنجان .. ويخرج توماش مبهورا ، ويأوى  
الى فراش ، يتساقط تعباً .. ويتسائل : « ماذا يمكن  
ان يقولوا حتى الساعة الرابعة صباحا !. »

وكان يقول لها ، ، كما كان يفعل منذ سبعة عشر عاما  
في رسائله ، كل ما كان ، وكل ما يريد ، وكل ما يحب  
.. فهذا الرجل ، فى كتبه ، وفى نفسه ، لم يكن حياة  
واحدة . انه كان كل الحيوانات ، فى كل العصور . كان  
فدا فى شخصه ، وفى فكره ، وفى حبه . كان ملهما  
بروح قدسى ، ينيره ، فيشرق ، ويبعث الهناء .. وهو  
يتفانى ، وينطفئ ، ويفنى ..

وحدث ، بعد ثلاثة أسابيع من ذلك ، ان ظلا ليلة  
معا حتى مطلع الفجر .. وقد أشعلا النار فى المصطلى  
سبع مرات . وأصغت اليه الساعات الطوال ، دون  
ان تقول كلمة ، اللهم الا ان شكرته بعينها المملتين



حبا ، عندما قال لها بصوته الرخيم :  
- فلنصعد يا صديقتى لنستريح . فما كان أعظمك  
الليلة !. ان الروح فيك يفوق الجسد جمالا ، على جماله !  
فنهضت ، وتناولت يديه وقبلتهما بكل نفسها ،  
وقالت له بتلك اللهجة العزيمة :

- أتريد أن نتزوج في الشهر القادم ؟ ..  
فاضطرب وتمتم :

- ايف !.. ايفاي !..

فاستندت الى ذراعه ، وقالت له بذات الصراحة  
والجلاء :

- تعال الى حجرتى .. لتنام معى ..

وفي اليوم التالي أعلنت بنتها وزوج بنتها بعزمها ،  
وكانا يحبان بلزاک كأب لهما . فبلغ من تأثرهما ان لم  
ينبسا بكلمة . ثم انتحيت بابنتها جانبا ، وقالت لها :  
- أنت تعلمين أن عدولى عن الاقتران به يعد جريمة ،  
فلتبد ما تألم . وهو مقضى عليه ، واأسفاه ! .. وتجلى  
عبقريته المواتى ، على الصورة التى تشهدينها فى هذه  
الأيام ، دليل على أنه لم يعد من هذا العالم . ولكن  
إذا كان عقله يرى الآخرة ، فان قلبه يعانى فى الدنيا ..  
وواجبى ان أخفف عنه ، والطف أيامه الآخرة على هذه  
الأرض ..

وفي تلك الاثناء ، كتب بلزاک ، بقلم يتعثر سعادة ،  
الى كل الذين يحبونه ، أو يمكن ان يفروا به .. فكتب  
الى أمه يوصيها : بأعداد البيت ، وتنسيق الحديقة ،  
وملاء الحجرات بالزهور فى اليوم الذى سيحدده  
لحضوره مع عروسه !. وزف الى أخته البشرى : بأنه  
يتزوج من أرقى طبقة نبيلة فى أوربا .. وكتب الى  
زولماكارو يعلن اليها : انه ، هو الذى لم يزدهر ربيعته،



ولم يسعد شبابه ، قد آن له ان يطمئن ، ويستريح  
خريف الحياة .. وان امراته تعرفها ، كما لو كانت قد  
راتها رأى العين :

( .. فاني قد رسمت صورتك بتأثرات قلبي .. فعديها صديقة حميمة  
لك . وقد كلفتني ان أقول لك : ان لك دائما في باريس عرفتك عندنا  
.. كعب أسطيع أن أرد اليك كنور الموده ، وكريم المثوى ؟ )

وكتب الى الدكتور ناكار :

ان نسب روحتي يتصل مباشرة بامبراطور روسيا .. وكذلك مسينم  
الرواج الذي ما كان أكثر حساده ! .. )

لقد كان سعيدا : في حبه ، وفي غروره وزهوه ، وفي  
ادراكه للمنافع ، وفي ضعفه لالقباب النبيل ومراتب  
الشرف ، وفي ميله للعظمة والجاه ، وفي عزمه ان يكون  
غنيا .. لقد كان سعيدا على طول الخط ! ..

ولكنه أصيب ثانية بالبرد ، مما كاد يؤخر هذا  
الهناء الذي لاحد له . وكاد يهلك من شدة السعال .  
وأخيرا ، في ١٥ مارس ١٨٥٠ ، بعد نماني عشرة سنة  
في الانتظار ، وفي الهيام ، وفي الحساب ، تزوج من  
« ايف » ، حوائه الشائقة ، الفاتنة ، في دير من أديرة  
الكرملين ، مشهور بصورة معجزة للعدراء .. وكان  
يوما فظيعا ، ومشرقا .. مشرقا لانه كان ينظر الى  
زوجته بعيني الانجذاب ، فقد كانت عنده جوهرة  
بولونيا .. وفظيعا بالنسبة لانحطاط بدنه .. برد  
صقيع ، ووحل رطب .. وكانت مقاطعة اوكرانيا -  
التي كانت في هذه السنين الاخيرة ( من ١٩٤١ الى  
١٩٤٤ ) ساحة للحرب العظمى بين الروس والالمان -  
كانت اوكرانيا هذه ، في يوم زواج بلزاك ، مفرقة بصيب  
من مطر متواصل .. وكانت الطرق اللينة تموج تحت  
العربات .. وصعد بلزاك مركبة مقللة ، وكاد يتعذر



عليه النزول منها . وكان « نوماش » يسنده ، مع  
« المدام » ، لدى كل ارنجاج . وكان يخنق ، ويشكو .  
ورأسه على كتف « ايف » :

— يا حوائى !.. سأموت قبل ان اعطيك أسمى !..  
ووصل . وهدأ . ودخل الكنيسة على ذراع الوصيف  
« توماش » ، الذى ظل يعينه مخلصا طوال فترة  
القداس .. وخرجوا ، وقاب بلزاك يذوب من كل شيء  
حنانا .. وتذكر كلمة زولماكارو : « اذا أصبت بالجنون ،  
كما تقول ، فانى سألازمك وأحرسك !.. » .. ورواها  
لزوجته بصوت متهدج ، وأضاف :

— اننى مجنون .. من الهنساء .. فلازمينى ،  
واحرسينى !..

وكان الفصل لسوء الحظ قاسيا قارسا ، وكان هو  
جد متألم ، بحيث لم يستطع السفر فى الحال الى  
فرنسا ، كما كان يرجو .. ورثى لنفسه :

— لشد ما كنت أريد ان أرى الربيع فى باريس .  
فالمدينة كلها تبتسم فيه ابتسامتها الزكية ، التى  
لا تشاركها فيها مدينة فى العالم !..

ومضى ابريل كله ، دون ان يستطيع الحلم برحلة  
طويلة كهذه . ثم راف به القدر فى أوائل مايو ، وتحسن  
تنفسه ، فقال : « فلنسرع بالسفر ! » .. وظل خلال  
ثمانية أيام يلقي عذاب الشهداء ، ولكنه كان وطيئ  
الامل بأن هواء باريس ، أو جو فرنسا ، يشفيه من كافة  
أوجاعه التى ضاعفها برد بولونيا ، وأحسن عند الحدود  
الفرنسية بأنه أحسن حالا .. وكانت مدام دى بلزاك  
( الكونتس دى هانسكا ) حزينة .. فسألها صبرا ،  
فسوف تجازى الجزاء الاوفى !.. وأخيرا بلغا باريس ،  
بعد ظهر يوم جميل ، وكان الهواء لا يحمل الا أنباء طيبة



في عالم سلام .. ثم دخلوا شارع « لافورتونيه » ، في  
نحو الساعة السابعة ، مع شعاع الشمس الاخير على  
السطوح .. وكانت أمه قد آثرت العودة الى بيتها ،  
تاركة البيت معدا ، بحراسة خادمه الوفي « فرانسوا »  
.. فقال بلزاك وهو ينزل من المركبة :

— انى أحب هذا الشارع ، فهو هادىء ، يريح الفكر  
.. وبابنا قوى متين .. اليس كذلك ؟ ..

فقالت مدام دى بلزاك ، وقد لاحظت ان النورمضىء  
في داخل البيت :

— لقد بادر الخادم الامين ! .. ولاربب في ان الحساء  
الآن على المائدة .. فلنسرع بدق الجرس ! ..

ودقا الجرس : خمس مرات ، عشر مرات . ولكن  
لم يتحرك شيء .. على ان المصاييح مضبئة ، فلا نزاع  
في ان بعض الناس في البيت ! .. وسألا جارة لم تكن  
تدرى شيئا .. وناديا .. فلم تفتح نافذة ما ..  
وانتظرا .. وبدأ الليل يرخى سدوله . ولما ضاقا ذرعا  
بعثا بالحوذى في طلب حداد . فجاء وفتح الباب .  
وظالت مدام دى بلزاك ملازمة الصمت . بينا كانت  
أعصابه متوترة الى حد لا يطاق . فاندفع الى الفرف  
المضيئة . وهى تتبعه . فوجدوا فرانسوا جالسا ،  
شاحبا ، ينظر اليهما بعينين جاحظتين ، و لا ينطق الا  
لفوا لامعنى له .. لقد أصيب بالجنون .

وعندئذ نزلت مدام دى بلزاك ، فأمرت الحوذى  
بحمل الحقائق . وفي خلال ذلك كان بلزاك في الدور  
الارضى ممسكا قلبه بيديه ، متطيرا ، يتمتم ، كما لو  
كان مغشيا عليه من الموت :

— يا للفأل المروع ! .. اننى لن أخرج من هذا البيت  
حبا ! ..



نحن في العشرين من شهر مايو ١٨٥٠ .. أمام بلزالك  
ثلاثة أشهر حتى يموت ! .. فما هي ثلاثة أشهر من  
العمر بغير أمل أو رجاء ؟ .. كان يرى هاوية تحت قدميه  
.. وكان يتألم .. ولم يكن ألمه قاصرا على اختفائه ،  
وهو يكاد يكون شابا ، بكل ما يحمل من آماني ، وكل  
ما لديه من مشروعات ، وكل ما بين جنبيه من حب ..  
بل كان يبكي كلما انفرد بنفسه ، لأنه حطم حياة  
الكونتس دي هانسكا البولونية ، ليفطيتها الترملة عوضا  
عن ذلك في بيت خاوي في باريس ..

وليت هذا البيت كان ، على الأقل ، يعجبها ! ..  
ولقد سألتها في ذلك مئة مرة ، فلم يحصل منها الا على  
اجوبة مبهمه ، كتلك التي يعطى بها الاطفال المرضى ..  
ولا يكاد يسترد أنفاسه ، حتى يطلب اليها أن يعتمده  
على ذراعها لينزلا لرؤية اللوحات الفنية والبسط ! ..  
ويقول لها :

- انت هنا في الاطار اللائق بك .. فقد ولدت للعيش  
بين روائع الفكر الفرنسي ! ..

ثم يسود سكوت ، تقطعه بقولها مثلا :

- لا تنس انها الآن ساعة تناولك الدواء ! ..

ولم يكن يرى في تملصها من الرد على هذا النحو الا



لونا من الحنان ، فقد قدر ما أعطته إياه ، في عامين  
اثنين ، بأكثر من ستين ألف فرنك ( ٣٤٠٠ جنيه ) !  
اتفقوا في مختلف الأعمال . . . وكان يروح بعرفان الجميل  
فيكررها :

— لقد كنت أنت حباتي ! . . أنت تعلمين أنه منذ  
خمس عشرة سنة وكتبتى كلها قد كتبت لك ، وبقربك  
.. وانت لم تغادري قط مكتبتى .. وكانت صورتك  
دائما حاضرة ! . . واذا كانت ثمة هذه الحرارة كلها في  
مؤلفاتي ، فذلك لاني لم أقلب صفحة الا نظرت اليك  
قائلا : « ايف ! . . انى أحبك ! . . » .. وعلى ذلك ،  
فان قصصى ملك لك .. ولست ألقى الكلام خبط  
عشواء . فانك تجدينها في مكتبتى مجلدة باسمك . وقد  
صححت فيها أشياء جوهريّة ، سوف ترعينها يا حبيبتي  
اذا أعادوا طبعها . ولكم كنت أود لو أعدت قراءتها  
معك ، حتى تبدى فيها رأيك ، ولكن الله يأبى .. على  
ان لى الثقة في فطنتك ، فقومى عنى بهذا ، اذا ما  
اختفيت من الدنيا .. فليس في الدنيا غيرك فهمنى في  
عملى ! . .

وكانت عندما تسمعه يتكلم هكذا ، بصوته الابح من  
المرض ، تنسى ، هى التى صارت مدام دى بلزاك ، والتى  
كانت الكونتس دى هانسكا ، تنسى : مرارة أبامها ،  
ووحشة ليالبها ، وتهتز بفرح الكبرياء الذى يعوض  
عليها تضحياتها ..

وجاء الدكتور ناكار بمجرد رجوعه ، لزيارة بلزاك ،  
فوقف عاجزا أمام ما شاهده فيه من ضيق التنفس ،  
وتقطع الكلام ، وغشاوة البصر .. فتوسل اليه بلزاك  
ان يعود كثيرا ، فعاده ، بحكم الصداقة . فكان بلزاك  
يقول له كل مرة :



- آه يادكتور !.. انى انتظرك بفارغ الصبر .. انى اتألم اكثر مما لو كنت من الهالكين !..

وكان يوما يشكو القلب ، ويوما الكلى ، ويوما البطن .. فقال الدكتور تآكار لدام دى بلزآك ، وهو يخرج آسفا :

- انه ياسيدتى عمل كعشرة رجال !.. ومنذ خمسة عشر عاما ، رأيتة فى شارع كاسينى ، فزعمته قد قضى نحبہ ، وكنت يومئذ لا أستطيع له شيئا .. ولكن .. هل تريدین الآن رأى زملائى ؟..

ودعا ثلاثة أطباء للاستشارة : فوكييه ، ورو ، ولويس . ولم يكن أحد منهم قد بهرته « الكوميديا الانسانية » !.. لم يكن منهم من سحرته العبقرية !.. فكشفوا على بلزآك كآى مريض مدنف ، على فراش الموت .. وأمروا بكاسات هواء ، ووضع دود لامتصاص الدماء ، وملينات ، وما اليها .. بلا اكترآث .. وكان الله بالسر عليهما !.. وبعد زيارتهم اشتد الاضطراب فى بصره .. وراح خلال مسائين ، فى بحرآن ، خرج منه مرعوبا يبحث عن ذات نفسه .. ولم يعد يستطيع أن يقرأ أو يكتب . ومر عليه أسبوع صحو ، فى بولييه . قال أثناءه لأمه . وقد حملت اليه فاكهة وزهرا :

- انى أحبك ، وأعجب بك ، يا أمآه !.. فأنت تعيشين بثلاثة صلديات !.. والذنب فى هذا ، وآ أسفاه ذنبى .. ومع ذلك تجدین سيلا للترفيه عنى هكذا .. أتوجد آذن ساعة تجاور فيها الأمهات الرفيق الاعلى؟!.. فطفقت أمه تنتحب :

لقد ظلمتنى طويلا يا اونوريه ..

- ولقد قسوت على يا أمآه .. ولكن دعينا من هذا .. فأنت تحبين زوجتى .. وتستحقين على ذلك



كل حنانى .. وسأعرف كيف أوفر لك شيخوخة هادئة  
الجناب ..

وجاء فى هذا الأسبوع أيضا فكتور هيجو لزيارته .  
وروى له من حوادث الثورة حكاية : هرب الملك لويس  
فيليب فى عربة حصان ، كانت تركب فيها سيدات ،  
فأنزلهن ، وركب مكانهن ! .. فرثى له بلزاك :  
— مسكين ! .. الرجل المسكين ! ..

وأراد هيجو ، وهو ينصرف ، أن يشجع بلزاك ،  
ويطمئنه ، فرد عليه هذا بقوله :

— أجل .. انى أحسن حالا .. وقد يمكن أن أشفى  
.. فالساحر المشهور « بلنازار » قد تنبأ لى ، من قبل ،  
بهذا المرض الشنيع فى سن الخمسين .. وقال اننى  
سأنجو منه ! .. فإذا كان ذلك حقا ، وعادت الى قواى ،  
فسأستخدمها كلها فى النضال ضد الديمقراطية ! ..  
فانى لا أدري كيف أن رجلا ملكا يتنزل عن لقبه كمضو  
فى بلاط فرنسا ، وهو أجمل لقب بعد لقب الملك ! ؟ .  
فرد عليه هيجو بصوت عميق :

— هناك ما هو أجمل من الملك ، وهو الامة . وقد قام  
نزاع طويل فى ضميرى .. وقد كنت عضوا فى مجلس  
البلاط الاعلى ، مختارا من الملك .. فاثرت أن أكون  
نائبا ، مختارا من الشعب ..

ونهض لينصرف ، فقال بلزاك :

— يا عزيزى هيجو ، انى أعجب بالديمقراطية عندما  
تتكلم بلسانك ! .. ولكنها عندما تتحرك بأذرع الشعب  
أخاف وأجزع ! .. فالشعوب تجهل ما هو نبيل ..  
وأنا ، قد أموت غدا ، ولكنى أكون قد حققت حلمى  
ونظر الى زوجته ، مواصلا الكلام :

— وتزوجت ، وحالفت ، سليلة ملوك ..



وعند هذه الكلمات سرح بصر فكتور هيجو بين  
الزوجين متأملا .. ثم انحنى ، واستأذن .. فأشار  
بلزأك الى زوجته أن تفرجه على اللوحات ! .. وصحبت  
مدام دي بلزأك الشاعر الكبير .. فقال لها :  
- أهناك أمل في انقاذه ؟  
فتنهدت قائلة :

- لست أدري .. وهو اليوم أحسن حالا .. وقد  
رايت من اشراقه لمحات .. ولكنه طفل كبير .. فاغفر  
له بعض ملاحظاته .. فهو متعلق بأهداب أشياء اسمها :  
النبالات ، والسلالات ..

فتأمل هيجو ، مليا ، هذه السيدة السلاقية العظيمة ،  
التي طالما تحدثت عنها الصحف ، بالحق وبالباطل ..  
ورأى مظهر سيادتها المطمئنة ، وعينيها العميقتي  
النظرات ، وجبينها الوضاء .. فقبل يدها بانحناء ..  
وانسحب ..

فعادت الى بلزأك ، فاذا به يقارن بين : هيجو  
ولامارتين .. ويقول ان الآخر ، ولو انه ديمقراطي ،  
فهو يحب النبالة .. فقاطعته :

- يا عزيزي المسكين ! بالله لا تعد الى هذا ..  
فأنت تؤلمني !.. أفلا تدرك اذن أبدا ان النبلاء حقاً  
لا يتحدثون قط عن نبالتهم ؟ !.. أفلا تدع الأدباء بأننا  
نتصل بالنسب الى القياصرة ..

- ادعاء ؟ .. ان الوثائق تحت يدي !  
- ولو كانت .. فليس لنا ان نذكر ذلك ! ..

وان بلزأك انينا ، وقد أصيب باختناق :  
- رباه !.. رباه !.. اقضى على .. اننى لم أهد  
استطيع نطقاً .. اننى سأموت .. اقضى على بالاً اظهر  
بمظهرى الصريح ، الطبيعى ، الامين ؟ ..



وأمسك لحظات ، يعانى ، ثم قال :

— هاتى مروحتك !.. ردى الى أنفاسى المقطوعة..  
يا صديقة !.. أهكذا نزول ونختفى ، عندما تبدأ الحياة  
تطيب ؟..

وألحت عليه العلة . ولم يردده الدواء الا عناء . وكان  
جسده المضنى لا يكف عن تعذيبه .. وانتفخت يداه  
وقدماه .. وأخيراً ، كان يتحرك ثلاث خطوات فى حجراته  
فاصطدمت ساقه بقبضة نحاسية فى الاثاث .. فتكون  
جرح لم يندمل قط . وصار مؤلماً ، لا يطاق . وكأن فيه  
ناراً تتأجج ، وتشبعت منه الحمى الى بقية الجسم ..  
وفى صباح ١٨ اغسطس ، دخلت مدام دى بلزاك الى  
غرفته ، وسألته ، سألت الممرضة التى تساعدها ليلاً ،  
عما اذا كان قد نام قليلاً . فأشار بنظرة شاردة ان :  
« لات حين منام !.. » ..

واستجمع قواه ، وقال بصوت متقطع :

— انى حريص .. على أن أدفن فى مقبرة « بيرلاشيز »  
فتلججت ايف ، وهمت بالرد .. فربت على يديها ،  
محاولاً الابتسام :

— انى أرى مارآه نابليون .. من أن من يتعشق  
المجد ، ليس له غير باريس مثوى ، ومقام آخر ..  
وبعد ذلك خفض جفنيه ، ولم يعد يرد إلا بإشارات  
مبهمة على أسئلتها :

— أتريد أن تشرب ؟.. أنت تتألم ؟.. قل كلمة  
يا صديق قلبى ، كلمة واحدة ، تطمئننى !..

ولم يتحرك الا لدخول الطبيب .. وفجأة ، كما لو  
كانت عيناه قد شهدنا القبر ، نظر اليه ، وقال :

— هل تظن يا صديقى ان أمامى بضعة أسابيع ؟..



فطلب الدكتور نكار ، بلطف ، ان يجس نبضه ..  
فألح عليه بلزاك :

- بريك ترفق بى وأجبنى : هل أمامى ثلاثة أسابيع؟

- ان نبضك أحسن !

- أربعة أسابيع ؟ .. لا ؟ .. اذن خمسة عشر يوماً؟!

- بالله دعك من هذا ، واسترح ! ..

فسأله :

- ثمانية أيام ؟ ..

فلم يجب الدكتور نكار . وعندئذ اعتدل بلزاك فى  
جلسته ، وصاح :

- ثمانية أيام مع الحمى ! .. يكفينى هذا الزمن  
لاضع فيه كتاباً ! ..

ثم اتكفاً على أذنيه .. وبدأ الاحتضار ، ولم يخاطب  
بعد أحداً من عالم الأحياء .. دخل فى اللحظة العلوية،  
التي يحاكم فيها المخلوق حياته ويحاسبها قبل ان  
يفادرها . فرآها كلها : ثلاثون سنة فى جهاد وكفاح  
للوصول . أربع أو خمس سنوات مالكا لأمره ونفسه  
.. ثم هو الموت يعلن القدوم .. وليست بقية الزمن  
الا : نضالاً مميتاً ، وصراعاً قاتلاً ، تتخبط خلاله عظمة  
الروح فى مذلة الجسد .

وعندئذ ، بدأ ، فى عقله الباطن ، حوار مشهود ،  
بين : بلزاك الذى أدرك مصيره واستسلم ، وبلزاك الذى  
لشدة تعلقه بالحياة قد أعطاه كل ما أعطاه .. فهو  
برحل ، على الرغم من المجهود الهائل الذى بذله ولم  
يتمه .. أحدهما يقنط من ذلك ويحزن .. والآخر  
يعتبه قائلاً :

» - وماذا يهمك ! ..

والأول يقول :



» - ومع ذلك فقد بذلت كل قواى .. وعشت مئات الليالى المشسوبة ، وكنت فوق كل ما يلوح فى امكان البشر !.

والآخر يجيبه :

» - ولكن ما هذا كله ، اذا قيس بمملكة الشمس الهادئة ، التى تسطع كل يوم على البحار والقفار ، وتحىى الكروم والحقول ؟ .. ان ابن آدم ليس الا مثاة ، الا مسخا !..

فيقول الاول مندهشا :

- امع كل هذا الجهاد ، لم اؤد الا قليلا ؟ ..

فيرد عليه صاحبه :

» - كل شىء على الارض قليل ! .. من انت ؟ .. مانت ؟ .. وما ميكل انجلو؟ ، وشكسبير؟ ، وبيتهوفن؟ ! انكم جميعا فرعتم ، عبثا ، الجدار الذى بفرق البشر عن الحقيقة العليا .. فهل اسمعتم الحجارة تحت قبضات ايديكم الدامية ؟ ! ..

فيجيبه بحدة :

» - ان عملى ما كان ليكون قليلا ، لو اننى استطعت ان اكتب « صور الحياة العسكرية » ، اذ كان يمكن ان يكون هذا هو التاريخ الاوربى ، الذى يسيطر عليه ذلك الرجل القزم ، نابليون بونابرت ! .. ولسكنى لم اتمكن .. ولهذا سيظل عملى اعرج ..

فيسخر منه صاحبه :

» - ان عملك ، حتى لو كنت قد اتمته بـ « صور الحياة العسكرية » ، كان سيظل اعرج فى عيون كل الذين لا استعداد فيهم لتقدير الاشياء العظيمة .. وما اكثرهم !..

فيسأله غاضبا :



« - اذن فلن يكون عملى شيئاً ؟ ! ..  
فيجيبه :

« - انه ضياء فى ظلام .. ولكنه لن يطرد الظلمات  
التى بعضها فوق بعض .. »

ونادى بلزأك أبطاله .. واستنجد بأبنائه ، الذين  
أبدعهم ، وخلقهم ، وسواهم ، من سويداء قلبه ، فى  
صفحات كتبه :

- الى با أولادى ! .. الى ، أنتم جميعا ، يا من  
صنعتهم من لحمى ودمى .. وخلقتمهم من صميم حياتى !  
وراح يناديهم بأسمائهم ! .. ثم توقف عند اسم  
أشهر طبيب فى قصصه .. وسمعتة الممرضة وزوجته  
وهو يجذب ملأء الفرش ، ويدعوه لاهثا :

- بيانشون ! .. دكتور بيانشون ! .. ادعوه الى !  
فهو الذى سينقذنى !

ولكن الصوت الآخر الداخلى رد عليه :

- ومم ينقذك ؟ ! ..

بلزأك ، الحنون ، الحساس ، المرح ، عاشق الحياة  
لم يعد يرد ، شعره مشعث ، وعيناه مغمضتان ، وفمه  
مفتوح ، وروحه تصعد الى بارئها ..

والتاريخ ١٨ أغسطس ١٨٥٠ ..

الامبراطوريات تنهار . والفراعنة يرقدون فى سبات ،  
وبتحولون الى موميات مقمطة ، يقضون أجيالا وأجيالا  
فى الظلام ، بعد سنوات قليلة سريعة فى النسور ،  
والاسكندر الأكبر يقضى نحبه فى سن الثلاثين .  
وديموستين ، الخطيب الأشهر ، ينتحر .. وسقراط  
يشرب السم الزعاف .. وقيصر بطعن بخنجر ..  
وموليير ينفث دما ..

مقابر ! .. ثم مقابر ! .. فى كل مكان مقابر ! .. و ..



رب لحد قد صسسار لحد مرارا  
ضاحك من تراحم الاضداد ..!  
ودفين على بقــــــــــــــــايا دفين  
من فــــــــــــــــديم الازمان والآباد ..!

وكل شيء ، كل ما كان عظيما ، أعظم ما يكون .  
يخضع ، على رغبة ، ويخضع جناحه ، وينكسر ..  
ويضطر الى الاستسلام ، والعدول عن النضال ، ويسلم  
النفس الاخير ..

زد على هذا القضاء المحتوم : ان بلزاك قد مات على  
يديه ذات أولاده ، الذين خلقهم بقلمه ، ثم القى بهم  
ليعمروا المقابر ..!

ورآهم ، وهو في النزع ، واحدا بعد واحد ، رجالا  
ونساء .. يتتابعون على الاجداث صاغرين .. وسمع  
صوت خطوات .. فالتفت .. فاذا بجنازة تمر .. عرف  
في المشيعين أسرة حبيبته لور دي برنى ، يتبعون نعشا  
.. كان نعشها .. فقد ماتت كذلك ، تلك التى كانت  
له : أما ، وصديقة ، وحبيبة ، وملك حارسا ..

هى أيضا ! .. وعلى ذلك ارتضى الموت ، وسلم بأنه  
حق . وتمدد ، من تلقاء نفسه ، على سريره ، ليرتاح  
الى الابد .. وتحول جفناه نحو روحه .. ورأت أمه ،  
وهى منخنية على فراشه ، نجمتيهما تنطفئان ..  
فصرخت ، وأجهشت فى البكاء ..

وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف مساء . وقد  
ظل يحتضر اثنتى عشرة ساعة .. واعتكفت مدام دي  
بلزاك ، الكونتس البولونية ، فى غرفتها ، بعد ما هلك  
حزنا ، ولوعة ، وتعبا .. فلم يرها تنصرف . وجاء  
قسيس فصلى ، ولم يسمع صلاته . ثم جاء فكتور  
هيجو يحمل اليه وداع الشعر ، فلم يحس يده تضغط



على يده .. بم كانت أمه ترى ، وتشهق بين عبراتها :  
— آواه ..! يا ولدى ..!

شيع أونوريه دى بلزاك فى جنازة باهة ..! كتلك  
التى يؤديها المجتمع لموتاه ، جميعا ، بلا تمييز ..!  
وبلغت كنيسة سان فيليب دى رول ، فى الساعة الحادية  
عشرة ، من صباح الاربعاء ٢١ أغسطس .. وكان النساء  
مزدحمات من حولها فى السوق .. فوقن لحظة ،  
ينظرن ببساطة ، ويحيين باحترام .. ولا يعرفن ، فى  
كثرتهم ، مقدار ما أحبهن هذا المسجى فى تابوت من  
خشب !.

وكان الجو بغيلا ، كثيبا .. وبدأ رذاذ مطر يتساقط  
.. ووصلوا مقبرة بيرلاشيز فى ساعة متأخرة . وكان  
جمهور هائل ينتظر الرفات .. وكان المتران المربعان  
من الأرض ، اللذان اختارتهما أرملته فى العشية ، يقعان  
على قمة الربوة .. فعانت الخيل ، وجهدت ، فى الوصول  
الى حفرة .. وكاد هيجو ، وهو ممسك بطرف من  
سلسلة الرحمة ، يحصر بين العجلة وقبر من القبور ..  
وحدث هرج ومرج ، وتعالى الصياح .. ثم أنزل  
التابوت فى الحفرة ، ووقفت الجماهير دقيقة ، جامدة ،  
خاسمة .. وكان هناك أربعة رجال ، فى ثياب عمال ،  
أخذوه بالحبال ، وتركوه يهبط ..

فارتجف الكاتب الرقيق ، « باريه دورفيللى » ،  
الذى كان يعجب ببلزاك ، ولزم الصمت أثناء جنازته ،  
وقال لنفسه : « أن بلزاك هو نابليون بونابرت الأدب ،  
ولكنه لم ينزل عن عرشه ، ولم يهزم فى موقعة ووترلو !  
ثم اغمض عينيه ، ورأى ، بدلا من جسد يسقط فى  
حفرة ، روحا يصعد الى عنان السماء .. فأمن بأن المجد  
يسمو فوق كل حقد ، وفوق كل حسد ، وفوق كل



عناء ، وفوق كل شقاء ..

وبعد أن بارك أحد القسيس الضريح ، تكلم فكتور  
هيجو .. وكان الهواء الذى يعصف ، وحفيف الشجر  
الذى يهتز ، ووقع الفؤوس التى تحفر ، تلتهم الكثير  
من كلماته قبل أن تصل الى الأذان .. وأخيرا التفت  
الشاعر الكبير نحو باريس ، واستودعها الكاتب الخالد  
وكان يوما عبوسا قمطريرا . فلما آن أوان الشفق،  
تفتحت أبواب السموات ، وبزغت الشمس ، وصبغت  
بذهبها البهيج رعوس الاشجار .. وخرجت الطيور التى  
كانت مستكنة فى أعشاشها ، فصذحت ..

واتخذت مقبره بيرلاشيز مظهر حديقة للموتى ..  
وقد استودعتها فرنسا ، الساعة ، رفات مجد من أعظم  
أمجادها ..

وكان صاحب هذا الرفات ، من ثلاثين سنة ، يجوس  
وما زال فتيا ، بين أجداث نزلاتها ، أمثال : مولير ،  
ولافونتين ..

فى هذا المساء ، ٢١ أغسطس ١٨٥٠ ، الله وحده  
يعلم كم من النساء يسهرن ، وهن يطالعن روائع وانوريه  
دى بلزاك ، ويهنأن ! .. بيد انه كانت هناك ، فى اقليم  
بعيد ، امرأة ، صديقة ، وفية ، هى « زولماكارو » ،  
لم تعد قراءة ما قرأته ، بل عادت فاستعرضت ، بكبد  
حرى ، وفؤاد يتمزق ، تلك الرواية التى عاشتها واياه ،  
فى صداقة نقية خالصة ، على هامش « الكوميديا  
الإنسانية » ..

أيها العظيم بلزاك !. أيها العزيز بلزاك !. أيها القلب  
البطل ، الذى لم يعد يخفق !.. أيها الصديق الذى  
لا مثيل له .. الرأقد الآن ، منفردا ، فى الارض الباردة!  
ان اكل هؤلاء اللواتى ، فى ليلة الحداد عليك ، يرنين



لأنفسهن ، ولك ، قد خضعن مع ذلك لما أصابهن من  
تعب وكلال ، هو أقوى من الحزن .. وبعد ساعة أو  
أكثر أو أقل ، نمن جميعا ، كما نامت أخته ، وكما  
نامت زوجها ، وكما نامت أمه .. أما « زولماكارو » فقد  
بقيت ، وحدها ، من دون الدنيا كلها ، ساهرة ، مع  
النجوم الساطعة في سمائها ، الخافقة من عليائها ،  
المشرقة في تواضع مشرق على مقبرة بيرلاشيز .. فلم تأو  
الى فراشها . بل صعدت الى الغرفة التي كان يلزأك  
قد سكنها ، في جناح من بيتها الصغير ، فوق ماكان يحبه  
من خزين الحبوب والدقيق ، هذه الاشياء النبيلة ! .

فحملت شمعة ، ووضعتها على المنضدة التي كان  
يجلس اليها ، وتركت النافذة مفتوحة على الحديقة ،  
لتشم هواء الليل القادم من بعيد .. ربما من باريس ..  
من يدري ؟ .. وجلست أمام الشمعة ، التي يرتعش  
لهبها ، على نحوها . وقد تاهت عيناها ، وشرد منهما  
البصر ، وضمت يديها .. وتعانق ذراعاها على صدرها ،  
وبدأت تعيد بقداسة ، في ذاكرتها ، وكأنها تسبح ، ذكرى  
هذا الرجل المجيد ، ذى القلب الذى لايفنى ، ولا عداد  
له ..

وظلت هكذا تتبعه ، وتصحبه ، في فكرها ، وتؤنسه ،  
سواد ليلته الاولى ، الموحشة في المقبرة ..



# وكلاء اشتراكات مجلات دور شلال

جريدة - ص ٠ ب رقم ٤٩٢  
السيد هاشم علي نحاس  
الملكة العربية السعودية

**THE ARABIC PUBLICATIONS**  
7, Biskopsthorpe Road  
London S.E. 26  
ENGLAND.

البريطانيا

**Mr. Miguel Maconi Cary.**  
B. 25 de Março, 994  
Caixa Postal 7406  
Sao Paulo, BRAZIL.

البرازيل





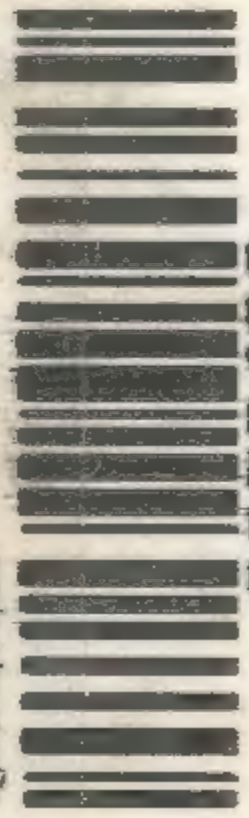
## هذا الكتاب

كان « بلزاك » يريد أن يكون : نابليون الادب ، ذلك لأنه نشأ في  
اوائل القرن الماضى حيث كان نابليون فى ذلك الحين هو بطل الابطال  
فى اوروبيا بل فى العالم كله . وكذلك كان بلزاك يريد ان يكون اديب  
الادباء فى اوروبيا وفى العالم . كان موهبة رائعة ، وكان غزير الانتاج ،  
غزير العاطفة . يعتبر واحد من اكبر عشرة عباقرة انجبيهم الادب العالمى  
فى كل عصره منذ ظهر الانسان على الارض حتى اليوم ، كما قال عنه  
سومرست موم ، وبلزاك لم يكن روائيا عظيما وحسب ، بل كان انسانا  
مليئا بالعواطف والاندفاعات ، وكانت حياته قصة مثيرة من المغامرات  
ومن النجاح الضخم والفشل الضخم ..

وهذا الروائى العظيم ، والانسان المتدفق بالحياة والانفعال ، هو  
موضوع هذا الكتاب الرائع الذى تقدمه سلسلة « كتاب الهلال » اليوم ،  
والذى كتبه الصحفى الكبير احمد الصاوى محمد معتدلا على موضوع  
المصادر الاوروبية الاساسية التى تحدثت عن حياة بلزاك  
... وهو كتاب لا غنى عنه للقراء ، وخاصة من الذين  
فى هذا الكتاب كثير من المتعة الفنية والفكرية وفهم  
والمعرفة ... كل ذلك فى أسلوب بسيط جذاب يربط  
سحرى من الادب الرائع الجميل ...

١٢ ترشبا

Bibliotheca Alexandrina



0252483

مكتبة الإسكندرية